منهج محمود شاكر

ملامحه وأصوله وعلاقته بعلم اللغة النَّصي

منهج محمود شاكر

مادته وأصوله وعلاقته بعلم اللغة النصي

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

رقم الإيداع

2019/3531

ISBN: 978 - 977 - 85207 - 2 - 9

دار الأمل

DAR ALAMAL

Daralamal2014@gmail.com

01000282166

منهج محمود شاكر

ملامحه وأصوله وعلاقته بعلم اللغة النَّصي

دكتور
محمد سعيد كامل

دار الأمل
DAR ALAMAL

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي خلق الإنسان علمه البيان، وجعل من آيات قدرته، ودلائل وحدانيته، تنوعَ اللسان والألوان: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ [الروم:٢٢].

وأصلى وأسلم على النبي العربي العدنان، الذي رفع الله بمبعثه ذكر العرب ولسانَهم؛ إذ جعل العربيةَ لغةَ القرآن، وأترضَّى عن أصحابه الغر الميامين، والتابعين لهم بإحسان.

أما بعد،

«يُعد الربط بين القديم والحديث منهجًا قويمًا لدراسة الفكر الإنساني عامة والفكر اللغوي خاصة؛ ولذا فقد قامت دراسات كثيرة، في العصر الحديث على إنتاج القدماء، ودراسة النص وتحليله،.. أكدت أن هناك تحليلاتٍ تقترب من التحليلات المعاصرة للنص»[(١)].

و«البدأ من الصفر المنهجي في هذا المقام – مقام الدراسة النصية – يعني إهدار أربعة عشر قرنًا من النتاج اللساني المتميز، الذي هو إنجاز قوم من أعلم الناس بفقه العربية، وأسرار تركيبها، وذخائر تراثها[(٢)].

لاسيما وأن العرب: «بحكم مميزات حضارتهم، وبحكم اندراج نصهم الديني في صلب هذه المميزات، قد دعوا إلى تفكر اللغة في نظامها، وقدسيتها، ومراتب إعجازها؛

(١) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، د. صبحي إبراهيم الفقي، دار النابغة – القاهرة ط. الأولى ١٤٣٦هـ – ٢٠١٥م، ص٧٧.

(٢) من نحو الجملة إلى نحو النص، د.سعد المصلوح، جامعة الكويت، الكتاب التذكاري بقسم اللغة العربية، دراسات مهداة إلى ذكرى عبد السلام هارون، ط١٩٩٠، ص٤٢٣.

فأفضى بهم النظر إلى درس شموليّ كوني للغة فحسب، بل قادهم النظر أيضًا إلى الكشف عن كثير من أسرار الظاهرة اللسانية، مما لم تهتد إليه البشرية إلا مؤخرا، بفضل ازدهار علوم اللسان منذ مطلع القرن العشرين، وهذا ما يمكن اسقراؤه بالكشف النصي والاستدلال الضمني»[1].

ويعد علم لغة النص مظهرا من مظاهر تلاقي الماضي العلمي بالحاضر، فعلى الرغم من أنه لم يظهر كمصطلح: «في الدراسات اللغوية عند القدماء من علماء اللغة العربية، ولكن في وسعنا القول بوجود إسهامات قيمة والتقاءات بالغة الأهمية مع الأفكار التي يقدمها المحدثون الغربيون بهذا الشأن، ومن أبرز الأمثلة على ذلك نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني، والدراسات التطبيقية الواسعة لإعادة الصياغة عند ابن الأثير، والإلحاح على أهمية الموقف الكلامي عند الجاحظ»[2].

وتُعدُّ هذه الرسالة: «**منهج محمود شاكر .. ملامحه وأصوله، وعلاقته بعلم اللغة النصي**» محاولةً لإبراز صورة من صور التلاقي بين الماضي والحاضر من العلوم العربية والغربية، من خلال نموذج تحليلي ينتمي انتماءً أصيلًا إلى التراث، وقد اختار الباحث علمَ النص خصوصًا، يتجلى من خلاله مظهر التشارك بين الإطارين الزماني والمكاني للثقافتين العربية والغربية.

كما تأتي الرسالة استجابةً لما دعا إليه بعضُ النقاد: «من ضرورة إعادة قراءة الشعر العربي القديم في ضوء هذا العلم، وذلك من أجل تصحيح بعض المفاهيم، وتعديل بعض الأحكام النقدية التي بُنيت على نظرة معينة لبعض قضايا الشعر.

---

(١) مباحث تأسيسية في اللسانيات، د. عبد السلام المسدي، دار الكتاب الجديد المتحدة – بيروت،ط. أولى ٢٠١٠، ص٢.

(٢) مدخل إلى علم لغة النص، روبرت دي بوجراند، وولفالج دريسلر، د. إلهام أبو غزالة، علي خليل حمد، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ط.الثانية ١٩٩٩: ص١٧.

ومثال ذلك ما يراه بعض النقاد من أن أحد عيوب القصيدة الجاهلية هو افتقارها إلى الوحدة العضوية»[1].

ومن هنا كانت الدراسة متوفرة على تتبع الجوانب النصية في منهج محمود محمد شاكر، متمثلة في معايير تماسك النص السبعة بالإضافة إلى خصائص علم اللغة النصي ووظائفه، يتبين من خلالها عراقة الثقافة العربية وغناها وسبقها إلى ما يعدُّ في حاضرنا سبقًا علميًّا، وإنجازًا حضاريًّا.

ولم تكن وِجهةُ البحث نحو الملامح النظرية لصور التلاقي وحسب، بل كان الجانب التطبيقي له حضور داعم، ليؤيد الحقيقة العلمية، مع الاحتراز والتوقي من الانزلاق إلى التعسف والتكلف في الاستقراء والنتائج.

وعلى الرغم من أن النتاج العربي المطروح للبحث نتاج تراثي في أصوله واتجاهاته، وعلى الرغم من انحياز محمود شاكر إلى المورث العربي، بحكم ثقافته ونشأته، وما أحاط به من بيئة تراثية، وشخصيات منتمين إلى التراث أثَّرُوا فيه – فقد انطوى نتاجه الأدبي على ما يؤكد نظرته المعارضة للجمود العلمي والتحجر الفكري، ويدل كذلك على قبول الحقائق العلمية شريطة ألا تتعارض مع ثقافتنا وثوابت ديننا.

فهو – على سبيل المثال – لا يقف من التطور اللغوي موقفَ المعارضة والخصومة، كما أنه يعيب الجمود، وغضَ الطرف عن المعطيات المستحدثة التي تنسجم مع التراث،

(١) مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، محمد الخضر الصبيحي، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨، ص١٣٥- ١٣٦.

ونستطيع أن نلمح من كتاباته ما يدل على إيمانه بالتطور اللغوي، كتأكيده على أن:«معرفة القوانين التي تخضع لها اللغات في تطورها أمر لا غنى»[1].

ولا شك في أن الإيمان بفكرة التطور، يستلزم -ولا يمانع- تطور العلوم التي تتعلق بذلك التطور، وأدواته.

وكذلك، كانت له رؤية في الشعر، تدل على معاصرته وعدمِ انغلاقه، تتمثل في إنكاره على الجمود الشعري الذي وقع فيه الشاعران، أحمد شوقي وحافظ إبراهيم، يقول شاكر: «ولكنهما (شوقي وحافظ) وقعا في أشدِّ مما وقع فيه البارودي، فكانا كثيرًا ما يقلدان شعراءَ ذلك العصر (يقصد شعراء العصر الجاهلي) في نهج شعرِهما، وفيما لم يحسَّا به، وفيما لم يعرفاه على وجهه من تاريخ تلك الحقبة من حضارة الدولة العربية، فصارا يستعيران من كلامهم وأسلوبهم ما ليس يغني شيئًا في مثل عصرهما، وإن شئتَ فقل: ما ليس له معنى في هذا العصر»[2].

ويقول في التقليد:«والتقليد عجزٌ وفساد، ولا يكون التقليدُ عذرًا لأحدٍ يعقل»[3].

فهذا الكلام ينفي عنه ما رمي به التراث والمهتمون به، من الجمود والتحجُّر، ورفض الجديد الذي يخدم الدراسة التراثية ولا يتعارض معها.

---

(١) من مقال اللغة والمجتمع «محمود محمد شاكر، مجلة» الكتاب «المجلد الثاني، سنة ١٩٤٦م، ص٣١٠-٣١٣، والمقال في «جمهرة مقالات محمود شاكر»، جـ٢، ص٨٧٦.

(٢) مقال «أوطان»، مجلة لكتاب المجلد الرابع سنة ١٩٤٧م، ص١٥٦٦-١٥٨٧، والمقال في «جمهرة مقالات محمود شاكر»، جـ٢:ص٨٨٢.

(٣) قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلاَّم، محمود محمد شاكر، مطبعة المدني - مصر، ط. الأولى ١٤١٨هـ ١٩٩٧م، ص٩٦.

لكن التطور والمعاصرة في رؤية شاكر ومنهجه، له ضوابط وأصول وركائزُ لابد أن يرتكز عليه، جِماعُها، الدين واللغة والثقافة، وهذا ما جعل دعوة محمود محمد شاكر لا تنطلق من نظرة ضيقة إلى هذا التراث، لا ترى إلا جانبًا واحدًا منه، هو جانب الإبداع والسداد والعظمة حسب، وإنما تنطلق من نظرة متراحبة عميقة، من شأنها أن تيتيح اكتشاف جانبي القوة والضعف، كليهما في نواحي التراث المختلفة، ترتبط عنده بمفهوم التجديد «القوي» الذي يحقق للأمة وجودها، ويعينها على النهوض والغلبة والرقي، في مقابل التجديد «الذي يؤدي في نهاية الأمر، إلى التشتت، والوهن والخضوع لسلطان الثقافة الأوربية»[1].

أهمية الموضوع:

وترجع أهمية الموضوع إلى أمور، منها:

١- إثبات أن التماسك النصي مرتكَزٌ من مرتكزات المنطق اللغوي العربي، باعتبار الملكة اللسانية(اللغة)كنظام ومقدرة، والأداء (الكلام)، كإنجاز وتحقيق فعلي للغة،

٢- محاولة الكشف عن أسس وأفكار علم اللغة النصي في التراث العربي من خلال تطبيق تراثي معاصر، ومن ثَمَّ الوقوف على أسباب القصور عن المواكبة والإنماء.

٣- الوقوف على مدى صلاحية هذه المناهج الحديثة للتطبيق على العربية، ومقدار التوافق والتعارض بينهما.

٤- ومن ثَمَّ جاء اختيار كتاب: «نمط صعب، ونمط مخيف»؛ لأنه تضمن تحليلًا ومعالجةً لقضايا نص شعري، بعدِّه نصًّا ذا سماتٍ خاصة، تميزه عن سائر النصوص في العربية، وهو نمط لغوي مستقل.

(١) محمود محمد شاكر: سيرته الأدبية ومنهجه النقدي: د. إبراهيم الكوفحي: مؤسسة الرسالة: دار البشير: ط. أولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، ص٢٢٩- ٢٣٠.

لأن: «لشعر على سبيل المثال من بين أسسه الفنية الوحدة العضوية، وهي تنطلق من خلال مراعاة القصيدة كاملة، لا مراعاة جزء منها أو جملة واحدة منها، ومن ثَمَّ برزت أهمية المعالجة التي تتخطى مجال الجملة إلى مجال أرحب وهو مجال النص»[1].

٥- وينضاف إلى ذلك أن من أهم قضايا الكتاب، قضية التماسك والترابط اللغوي والدلالي، مما يؤكد أن التماسك أساس في منطق العربية، لغةً وكلامًا، على حسب تفريق دي سوسير وتشومسكي[2].

---

(١) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، د. صبحي إبراهيم الفقي، ص٤٨.

(٢) الثنائية عند «دي سوسير»، والثنائية عند «تشومسكي» لها جانبان:

(أ) جانب عقلي وهو القواعد المخزونة في العقل،ويسميها دي سوسير «اللغة»،بينما يسميها تشومسكي «البنية العميقة» أو«المقدرة»،وهذا الجانب هو موضوع الدرس اللغوي لدى هؤلاء.

(ب) جانب مادي،وهو الحدث اللغوي المنطوق بالفعل،ويسميه دي سوسير «الكلام»،ويسميه تشومسكي «البنية السطحية» أو «الأداء».

يفرق دي سوسير بين اللغة والكلام، فاللغة عنده هي مجموعة القواعد و الضوابط المخزونة في ذهن الجماعة أصحاب اللغة،أما الكلام فهو الأحداث الفعلية المنطوقة «وهو جانب مادي».

أفاد تشومسكي من تقسيم دي سوسير فأطلق على «اللغة» مصطلح البنية العميقة، ويعني القدرة الفطرية على توليد ما لا نهاية من الجمل، وأطلق على «الكلام» مصطلح «البنية السطحية »، ويعني الإنجاز الفعلي للغة، أو الخروج بالكفاءة اللغوية من حيز القوة إلى حيز الفعل، وعليه، فالفرق بين اللغة والكلام يتمثل فيما يلي:

- اللغة (language) هي الملكة اللسانية المتمثلة في تلك القدرات التي يمتلكها الإنسان، وهي التي تميزه عن الكائنات الأخرى.
- الكلام parole هو الإنجاز أو الأداء الفعلي للغة في الواقع، وفق أنماط اللسان وتحققها في الواقع، فاللغة والكلام هما أساس اللسان البشري ودعامتاه.
- اللغة مؤسسة اجتماعية - الكلام عمل فردي.
- اللغة من صنع المجتمع، وهي نتاج يتقبله المتكلم بالطبع، ويشكله بشكل سلبي لا حرية فيه.
- الكلام نشاط يقوم به المتكلم، فهو إرادة وذكاء وإبداع وحرية.
- اللغة نظام - الكلام تطبيق النظام.
- اللغة سنة مشتركة بين أفراد مجتمع واحد. =

٦- أن القصيدة التي دار عليها التحليل والمعالجة قصيدة جاهلية، ضاربة بجذورها في عمق الجاهلية، وهذا ظل آخر يدل على ارتكاز الوحدة النصية وتماسكها عند العرب، المنشد والمتمثل، أو الباثُّ والمستقبل.

٧- الوقوف على الملامح النصية في منهج محمود شاكر، بعدِّها آليات للتحليل، المضمَّن لإجراءات علم اللغة النصي، وأهدافه ووظائفه؛ إذ ليس هدف الدراسة إثباتَ التماسك النصي فيما كتبه شاكر.

فالعمل البحثي إذن، منصبٌّ على استقراء الملامح النصية وظائفَ ومعاييرَ وخصائصَ، والوقوف على تمثُّلِها في منهج ذي أصل تراثي، تنسجم فيه الأصالة والمعاصرة،ومن ثَمَّ لايعرِّج على الجوانب المنهجية الأخرى، التي لا تخدم مقصودَ الدراسة، وفي الأخير.

فإن الرسالة ليست استلهامًا نظريًا للملامح النصية في التراث العربي، بل تقدم نموذجًا تطبيقيًا، يبتعد عن التعسف والتكلف في إثبات المعطيات النصية في التراث العربي.

= - الكلام هو الطريقة الشخصية التي يستعمل بها المتكلم هذه السنة.
- الكلام ما نقوله أونكتبه.
- اللغة ما يحكم القولَ الذي نقوله، والكتابةَ التي نكتبها.
-ا للغة إمكان التحقيق - الكلام تحقيق الإمكان؛ أي أن اللغة عبارة عما يوجد بالقوة.
والكلام عبارة عما يوجد بالفعل.
- اللغة ثابتة نسبيًّا - لكلام متغير».
انظر التناص بين التراث والمعاصرة، أ. د.نورالهدى لوشن، مجلة أم القرى، جـ ١٥، ع ٢٦ صفر ١٤٢٤هـ ص٢٨.

الدراسات السابقة:

وأما ما يتعلق بالدراسات السابقة، فإنه يستلزمني الحديثُ أن أسيرَ في ثلاثة دروب؛ إذ كانت الدراسة تمدها روافدُ متعددة.

وقد انقسمت هذه الدراسات - فيما أرى - إلى ثلاثة أنواع:

- دراسات تناولت محمود محمد شاكر نتاجًا ومنهجًا.
- دراسات متعلقة بعلم النص وأصوله التراثية.
- دراسات متعلقة باستقصاء وتتبع ملامح علم النص في عمل تراثي واحد.

أولًا: الدراسات التي تناولت إنتاج محمود شاكر ومنهجه:

لقد نال محمود شاكر ومنهجُه وإنتاجُه العلمي، اهتمامَ كثيرين من الكُتَّاب، والأدباء والنقاد، وزخرت المكتبات بكتب ومقالات،تتناوله بالشرح والإيضاح والتحليل، واستجلاء معالمه أخذًا وردًّا.

ومما انتهى إليه علمي من ذلك:

١- محمود محمد شاكر، سيرته الأدبية ومنهجه النقدي لإبراهيم محمد الكوفحي.
٢- محمود محمد شاكر الرجل والمنهج لحسن القيام.
٣- محمود محمد شاكر الأديب الناقد لإبراهيم محمد الكوفحي.
٤- محمود محمد شاكر،.إسهاماته في البحث العلمي والتحقيق لمحمد إبراهيم.
٥- المتنبي بين طه حسين ومحمود شاكر لإسماعيل الشرقاوي.
٦- الصورة الفنية في شعر محمود محمد شاكر لعبد الله خميس سنكر.
٧- معجم محمود محمد شاكر لمنذر أبو خضر.

٨- محمود محمد شاكر شاعرًا لأماني حاتم بسيسو.
٩- محمود محمد شاكر بين الدرس الأدبي والتحقيق لمحمد الرضواني.
١٠-إشكالية الذوق الفني عند محمود محمد شاكر لخليفة بن عربي.
١١- آراء محمود شاكر وجهوده اللغوية لمحاسن بنت أحمد مولوي.
١٢- مقالات حارس التراث أبي فهر، لإبراهيم أبا نمي.
١٣- محمود محمد شاكر..قصة قلم، لعايدة الشريف.

هذا إلى كمٍّ يهول مداه من المقالات التي غمرت الجرائد والمجلات، ومواقع الإنترنت، تجردت للحديث عنه، وتناولت آرائه ومنهجه، وإنتاجه الأدبي بالدراسة والتحليل.

لكنَّ أيًّا منها -فيما أعلم - لم يحاول تتبع مظاهر لسانية من خلال ما أنتجه، بعدِّها أصولًا أو إرهاصاتٍ لنظرية نصية عربية.

ومن هنا جاءت هذه الرسالة: «الملامح النصية في منهج محمود شاكر»، لتخطوَ هذه الخطوة، وتكون لَبِنةً في صرح التناول العلمي لمنهج شاكر، لا سيما الوجهة اللسانية النصية.

ثانيًا: الدراسات المتعلقة بعلم النص وأصوله التراثية:

وهذا النوع من الدراسات يتلمس جذورَ علم اللغة النصي في التراث العربي، ومن الدراسات ذات القيمة العلمية في هذا الباب، رسالة ماجستير، تحمل عنوان «أصول المعايير النصية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب» كلية الآداب - جامعة الكوفة، للباحث:عبد الخالق شاهين فرحان، تتبع فيها الباحث أصول المعايير النصية، في التراث

العربي البلاغي والنقد، فأتى فيها بنتائج قيمة، لكنه تتبعها في أعمال ومصادرَ متفرقة، ولم يقف بنا على إنتاج تراثي واحد يحتوى هذا المعايير تطبيقًا أو يقارب.

وهناك دراسات عرَّجتْ على أفراد المعايير، وتتبع أصولها في التراث بصورة ضمنية، وفي تفاريق متعددة، فأكَّدت حضور فكرة المعايير بصورة منفردة في اتجاهات ومصادرَ تراثية متعددة، وكشفت عن تجذرها في الفكر العربي، ومن هذه الدراسات، رسالة ماجستير بعنوان: «مصطلح التناص في خطاب «محمد عزام»، مقدمة من الباحث عمر شادلي، لكلية الآداب واللغات –جامعة قاصدي مرباح – الجزائر.

ثالثًا: الدراسات المتعلقة باستقصاء وتتبع ملامح علم النص في عمل تراثي واحد،

لاستبيان تلك الملامح في خلال منهج منتجِ هذا العملِ، فإني إلى أن شارفتُ الانتهاء من أمر رسالتي تلك لم أكن وقفت على مثل هذا العمل، لكنني عثرت على رسالة بعنوان «ملامح نظرية النص عند الجاحظ من خلال «البيان والتبيين»، مقدمة من الطالبة/ بشرى بوشلاغم، لنيل درجة الماجستير، بكلية الآداب واللغات – بجامعة فرحات عباس بالجزائر.

وهي تشابه موضوعَ رسالتي في فكرة تتبع ملامح هذا العلم الحادث في التراث العربي، من خلال عمل واحد، بحيث يتجلى تجذر مضمون هذا العلم في ذخيرة الإنتاج الحضاري العربي.

وقد تجردت الرسالة للوقوف على نظرة الجاحظ النصية، وما أفرزته أراؤه، مما يمكن أن يُسمَّى «نظرية نصية»، ثم تتطرق لمنطلقاته وتعريفه للنص، وما يمكن أن يكون عناصر ضامنة لتماسك النص من وجهة نظر الجاحظ، إلى قضايا أخرى متعلقة، ومتعالقة ترجع آخيَتُها في النهاية إلى لُمح أبعاد الرؤية النصية في كتاب «البيان والتبيين».

وهو جهد مشكور، بلا شك، ينضاف إلى المكتبة العربية، ويُسهم في كشف اللثام عن قضايا نصية مهمة.

لكنَّ الرسالة وقفتْ على ملامحَ متناثرة في نصوص مختلفة، لا يجمعها نص واحد، تحاول إثبات نظرة الجاحظ النصية من خلال تفاريق نصية، ولم تهدف إلى تتبع كلَّ المعايير التي تجعل نصًّا ما مكتملَ النصية، مكتفيةً ببعضها، كما لم تتبع ملامح وظائف علم النص وخصائصه في منهج الجاحظ من خلال كتابه السابق الذكر.

ولا نستطيع أن ننكر القيمة العلمية للرسالة، وما بُذِل فيها من جهد مُثمَّن.

مسار البحث

وقد اقتضت منهجية البحث، أن أقسّم الأطروحة إلى ثلاثة فصولٍ:

الفصلِ الأولِ بعنوان: (**النص: المفهوم، الخصائص، الوظيفة، والمعايير**)، ويشتمل على مبحثينِ:

الأول منهما بعنوان: «**مفهوم النص في التراث والمعاصرة**» أتناول فيه المفهوم اللغوي للنص، ومفهومه في علم لغة النص، ومفهومه في ضوء نظرية التواصل اللغوي.

والمبحث الثاني بعنوان: «**الخصائص، الوظيفة، والمعايير**»، أعرض فيه لخصائص الدراسة النصية، ووظائفها، ومعايير اعتبار النص نصًّا في الدراسة اللغوية الحديثة.

الفصل الثاني بعنوان: «**منهج محمود شاكر، ملامحُه وأصولُه**»، ويشتمل أيضًا على مبحثين:

- الأولِ بعنوان: «**محنة الشعر الجاهلي وأثرها في تشكُّل المنهج**» أتناول فيه المحنة التي مرَّ بها الأستاذ محمود شاكر، والمعروفة باسم «محنة الشعر الجاهلي»، وما تعلقت به وأفرزته من قضايا، كان لها أثرها في تشكُّل منهج خالصٍ في عربيته أصولًا وفروعًا، وذوقًا وحسًا، وأدواتٍ في التناول والتحليل، بما يعدُّ امتدادًا لمنهج علماء العرب السابقين ممزوجًا بالمعاصرة.

-الثاني بعنوان: «**أهم سمات المنهج وعلاقتها بالدراسة النصية**»، أعرض فيه لأهم معالم المنهج المتعلقة بالدراسة النصية الحديثة، كنظرته المتكاملة للنص، والوسائل والمبادئ التي تتلاقى مع علم لغة النص.

أمَّا الفصل الثالث: فهو مخصوص بالتطبيق العملي لموضوع الدراسة، وعنوانه: «**تمثُّلُ السمات النصية في منهج محمود شاكر**»، ويشتمل على ثلاثة مباحثَ:

الأولِ بعنوان: «**التمثل المعياري النصي في المنهج فيما يتعلق بالنص ذاته**»، يتناول المعايير النصية المتعلقة بالنص ذاته،ومدى تواجدها من الناحية الوظيفية في التحليل، وهما معيارا السبك والحبك.

الثاني عنوانه: «**التمثل المعياري النصي في المنهج فيما يتعلق بمستعملي النص**»، يتناول المعايير النصية المتعلقة بمستعملي النص، القصدية، التقبلية، الإعلامية، ومدى تواجدها وتوظيفيها.

الثالث عنوانه: «**التمثل المعياري النصي في المنهج فيما يتعلق بالسياق الخارجي**».

يتعرض للمعايير المتعلقة بالسياق الخارجي،المقامية، والتناص، ونجاعة توظيفها في معالجة القضايا التي تعرض لها كتاب الأستاذ شاكر «نمط صعب، ونمط مخيف».

وفي النهاية أعرض لما انتهى إليه البحث من نتائجَ علميةٍ، تليها المصادر والمراجع، ثم فهرسة لموضوعات الأطروحة.

والله هو المسؤل – وحدَه – أن يُوفِّق ويُسدد. وهو حسبي ونعم الوكيل.

تمهيد

أهمية البيان اللغوي:

اهتدى الإنسان انطلاقًا من فطرته وحاجته الطبيعية إلى الاتصال من أجل التفاهم ونقل المعلومات، وخدمة لهذه الغاية أوجد لنفسه وسائل متنوعة، وكانت اللغة أرقاها، وأكثرَها فعَّالية في الإبلاغ، غير أن استعماله لها لم يكن جزافيا وغيرَ مضبوط، بل ظلَّ مرتبطًا بنظام تُكوِّنه مجموعة من القواعد، والغاية من كل ذلك ضمان نجاح الاتصال اللغوي، وقد عُدَّ بذلك (الاتصال) ضرورة إنسانية لتماسك الأفراد والجماعات وحتى الشعوب، فهو المحور المركزي الذي على أساسه يتشكل المجتمع وينمو ويتطور»[1].

الاهتمام باللغة وتحليلها:

لقد توقف التحليل اللساني بنفسه خلال زمن طويل عند الجملة، فقد كانت مصمَّمةً بوصفها إطارًا للإدماج الإجمالي لكل الوحدات الملائمة لسانيًا، من غير اهتمام بالمستويات المحتملة للتنظيم العالي»[2].

«إلا إنه ومع تطور العلوم اللغوية وارتباطها بمبدإ التكاملية Complementarity بين العلوم المختلفة كعلم الاجتماع Sociology وعلم النفس Psychology وعلم الاتصال Communication وغيرها وجد علماء اللغة أن الاكتفاء بدراسة الجملة لا يفي لمقتضيات

---

(١) الاتصال اللساني بين البلاغة والتداولية،أسامة بن يامنة – جامعة مستغانم. الجزائر م، ضمن دورية مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعليمية، العدد الأول:مايو ٢٠٠٨– جمادى الأولى ١٤٢٩هـ الجزائر.

(٢) العلاماتية وعلم النص، إعداد وترجمة د، منذر عياشي، المركز الثقافي العربي – المغرب ط، الأولى ٢٠٠٤م ص١٢٠.

التحليل الحديثة فوجهوا بحوثَهم إلى ما وراء حدود الجملة الواحدة، وظهر علم جديد يشمل المناهج المتداخلة، ونعني بذلك علم لغة النص، أو علم اللغة النصي»[1].

وتكمن خلف هذا العنوان اتجاهات لغوية نصية كثيرة، ذات تصورات متباينة إلى حد ما، دون شك، بيد أنها تتفق في المفهوم القائل إن أعلى وحدة مختصة للتحليل اللغوي ليست الجملة بل النص»[2].

والفرق بين الجملة والنص مما تجدر الإشارة إليه في هذا الموضع، فالنص يختلف عن الجملة اختلافاتٍ أساسية: «تفسر عدم كفاية استيعاب مقومات الجملة لخلق النصوص، في الكتابات الإنشائية مثلا، ومن هذه الاختلافات:

١- تنتمي الجملة إلى نظام افتراضي (النحو) في حين يعتبر النص نظامًا واقعيًّا تكون من خلال عمليات اتخاذ القرارات والانتخابات من بين مختلف خيارات الأنظمة الافتراضية.

٢- تتحدد الجملة بمعيار أحادي (علم القواعد) من نظام معرفي وحيد (علم اللغة) في حين تتحدد نصية النص بمعايير عدة من مختلف الأنظمة المعرفية،

٣- تكون الجملة قواعدية أو لا تكون جملة البتة، أما النص فلا تنطبق عليه معايير النصية بمثل هذه الحدة.

٤- يتأثر النص بالأعراف الاجتماعية والعوامل النصية وبموقف وقوع النص بوجه خاص، في حين يضعف تأثر الجمة بهذه المؤثرات، مثلا يمكن إطالة الجملة بوصفها نظامًا افتراضيا بدون حد، في حين يفرض الموقف قيودًا بالغة الأهمية على النص وشكل إخراجه.

---

(١) علم اللغة النصي،رسائل الجاحظ نموذجًا،د. رانيا فوزي عيسى، دار المعرفة الجامعية ط٢٠١٤، ص١٦.

(٢) انظر إلى التحليل اللغوي للنص مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج، كلاوس برينكر، ترجمة وتعليق د. سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار القاهرة الطبعة الثانية ١٤٣٣هـ - ٢٠١٠م، ص٢٢.

٥- يستند استغلال الجمل إلى المعرفة القواعدية التابعة لنظام افتراضي له صفة العمومية، أما استغلال النص فيستند إلى معرفة خبرات بوقائع فعلية خاصة.

٦- يعد النص حدثا يقصد به شخصٌ إلى توجيه المستقبل صَوْبَ بناء علاقات متنوعة لا تقتصر على العلاقات القواعدية، وكذلك إلى التأثير في مواقف بشرية، وذلك خلافًا للجملة التي لا تمثل حدثًا وإنما تستعمل لإبراز العلاقات القواعدية بمعزل عن الزمن.

٧- تتخذ الجملة شكلها المعين وفقا لبارامترات محددة القيم في نظام افتراضي معلوم في حين تتشكل بنية النص بحسب ضوابط المشاركين والمستقبلين على حد سواء[١].

«ولما كانت دلالة الكلمة جزئية بالنسبة للجملة، كانت الحاجة للأخيرة ليتم التماسك بين معاني كلمات الجملة الواحدة، وأيضًا لما كانت دلالة الجملة المنفصلة عن نصِّها، تُعدُّ دلالة جزئية غير كاملة - في الغالب - كانت الحاجة لإتمام الدلالة الكاملة، ومن ثَمَّ تأكدت أهمية التحليل النصي، لإدراك الدلالة التامة للنص، وذلك من خلال الصلة الواجب توافرها بين هذه الجمل التي تمثل الدلالات الجزئية للنص»[٢].

«وهذا لا يجعلنا نطرح نحو الجملة خلفنا بل العكس هو الصحيح؛ لأنه كما يمثل الحرف نواة الكلمة، والكلمة نواة الجملة، فكذلك الجملة تمثل نواة النص؛ فالنص عبارة عن متتاليات من الجمل في الأغلب، بصرف النظر عن كونها جملة واحدة أو كلمة واحدة»[٣].

---

(١) مدخل إلى علم لغة النص، روبرت دي بوجراند، وولفالج دريسلر، د. إلهام أبو غزالة، علي خليل حمد، ص١٠- ١١.

(٢) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، د. صبحي إبراهيم الفقي، ص٩-١٠.

(٣) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، د. صبحي إبراهيم الفقي، ص٤٥.

«ومن هنا تكمن أهمية هذا العلم الحديث، فهو أكثر المناهج الحديثة تكاملية وانضباطًا؛ لأنه يقوم بعملية متوازية الاتجاه؛ إذ يعمد إلى التحليل اللغوي بتوازٍ مع التحليل المعرفي لعالم النص مما يُهيئ للقارئ المتلقي إلمامًا بكل الجوانب المتعلقة بالنص الواحد، فيستقي منه المعرفة اللغوية إلى جانب المعرفة الثقافية الاجتماعية وغيرها»[١].

إنه يتناول النصوص بطريقة تحليلية، ولذا فقد اتجه بعض العلماء إلى تسميته «بتحليل النصوص» أو«تحليل الخطاب»، ومن ثَمَّ عرفه بعضهم بأنه، «العلم الذي يبحث في سمات النصوص وأنواعها، وصور الترابط والانسجام داخلها، ويهدف إلى تحليلها في أدق صورة تمكننا من من فهمها وتصنيفها، ووضع نحو خاص لها، مما يسهم في إنجاح عملية التواصل التي يسعى إليها منتج النص ويشترك فيها متلقيه»[٢].

«وتتمثل مهمة علم النص بناء على ذلك في وصف العلاقات الداخلية والخارجية للأبنية النصية بمستوياتها المختلفة، وشرح المظاهر العديدة لأشكال التواصل واستخدام اللغة، كما يتم تحليلها في العلو م المتنوعة»[٣].

ولما كان الوصول لأعلى درجة من الكفاءة التفسيرية هو أحد أهداف علم اللغة النصي؛ فقد تعددت أدواته بصورة: «غير محدودة، ولا يتوقف عند حد معين رافضًا أيَةَ إضافة تمكنه من الوصول إلى كفاءة تفسيرية دقيقة، إنه –بإيجاز – يختلف عنها جميعًا (علوم الأدب والبلاغة والشعر والأسلوب) في الوصف والتحليل، وفي المناهج والأهداف، إنه

(١) علم اللغة النصي، رسائل الجاحظ نموذجًا، د. رانيا فوزي عيسى، ص٦.

(٢) علم لغة النص والأسلوب، د.نادية النجار، مؤسسة حورس الدولية، الطبعة الأولى ٢٠١٣م، ص١٥. نقلًا عن:

David Crystal: A Dictionary of Linguistics and phontics. Basil Blackwell.Oxford.p.350.

Baalbek.Ramzy: Dictionary of Linguistics Terms,Beirut 1990.p.502.

(٣) بلاغة الخطاب وعلم النص، د. صلاح فضل، عالم المعرفة –الكويت،ط ١٩٩٢م، ص٢٤٧.

العلم الذي استطاع أن يجمع عناصر لغوية وعناصر غير لغوية لتفسير الخطاب أو النص تفسيرًا إبداعيًا»[١].

وعلم لغة النص:«ينطلق من النص ككل، باعتباره (وحدة متكاملة)، ويحاول أن يقدم أشكال الاطراد أو صور الانتظام Regularitaten التي تنتج عن الاستخدام الاتصالي، وأن يعالج أشكالًا نصية متباينة في سياقات تفاعل مختلفة من زوايا عدة، وتحتل الدراسة العميقة للسياقات النفسية والاجتماعية مركزًا متقدمًا في بنائه الأساسي»[٢].

فأساس البحث هنا الاطراد في المقام الأول لا الانحراف، والنص ككل وليس الجملة أو أجزاء النص أو المتواليات الجملية، ومن ثَمَّ يقوم بناء القواعد على التكوينات الكلية التي يمكن أن تتجزأ إلى عناصرَ ومكوِّنات صغرى في مرحلة التحليل، إلا أن هذا لا يعني استقلال الأجزاء، بل تظل العلاقات القائمة بين هذه الأجزاء والوحدة الكلية موضوعة باستمرار نصب عين الباحث في النص[٣].

ولا يعني هذا أيضًا تهميش الجملة أو إغفال دوْرِها، وإهدار قيمتها الفاعلة فـ «الجملة جزء أصيل من الدرس اللغوي، ولا غنى عنها للباحث، كما أنها تشكل ركيزة من ركائز البناء النصي، ولكنها غير مستقلة بذاتها، بل ترتبط بما جاورها من عناصرَ بنائية متعددة»[٤].

---

(١) علم اللغة النصي المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد بحيري، الشركة المصرية اللعالمية للنشر – لونجمان، ط.أولى ١٩٩٧م، ص ب.

(٢) علم اللغة النصي المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد حسن بحيري، ص١٠٠.

(٣) المصدر نفسه، ص١٠٠.

(٤) علم اللغة النصي،رسائل الجاحظ نموذجًا، ص٢١.

فالجملة هي وحدة البناء النصي لكنها ترتبط بعلاقات متعددة ومتجاورة بغيرها من الجمل المحيطة بها، «فالجملة ليست أكثر من سلسلة من المفردات، وإن المرء يمكنه أن يحلل النصوص أيضًا على مستوى تكمن خلفه بنية التتابعات»[١].

ومع ذلك فليس من الضروري أن يتألف النص من الجمل وحدها، فقد يتكون النص من جمل أو كلمات مفردة، أو أيَّةِ مجموعاتٍ لغوية تحقق أهداف الاتصال»[٢].

ولا يعرف التحليل النصي أن يتجنب التنوع الواسع إلى أكثر ما يمكن من أجناس النصوص المدروسة[٣].

و «تمثل مسألة تحديد الشكل الذي يعالجه علم النص، أو يختص بمعالجته علم لغة النص بوجه خاص، قضية خلافية بين علماء النص؛ إذ إنه على الرغم من تلك المحاولات المتعددة التي بُذلت لإيضاح الشكل النصي أو الأشكال النصية Textsortwnمن وجهة نظر لغوية نصية – فإنها أسفرت عن آراء متباينة، بل زادت الخلافات عمقًا»[٤].

وإذا كان التحليل الأسلوبي: «لا يُعنى إلا بتلك الأشكال المتجاوزة لمستوى اللغة العادية أو الأشكال المنحرفة،.. فإن التحليل النصي يعنى بكل أشكال اللغة في الأساس»[٥].

---

(١) علم النص مدخل متداخل الاختصاصات، تون أ. فان دايك، ترجمة وتعليق د.سعيد بحيري، دار القاهرة للكتاب الطبعة الأولى ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م، ص٧٣.

(٢) العلاماتية وعلم النص، إعداد وترجمة د. منذر عياشي، ص١٣٤.

(٣) مدخل إلى علم لغة النص، روبرت دي بوجراند، وولفالج دريسلر، د. إلهام أبو غزالة، علي خليل حمد، ص٩.

(٤) علم اللغة النصي المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد حسن بحيري، ص٥٩.

(٥) المصدر نفسه ص٦٠بتصرف يسير.

وتجدر الإشارة إلى أن الخاصية لتحديد النص هي الاكتمال، وليس الطول أو الحجم المعين...بحيث نجد أن كلمة واحدة مثل «نار» يمكن أن تكون علامة، في مقابل عمل روائي ضخم مثلا، فكل منهما يمكن اعتباره «نصًّا»،وذلك بفضل اكتماله واستقلاله بغض عن النظر عن أبعاده أو مدى طوله،.. ومعنى هذا أن علينا أن نضحي بفكرة الطول في سبيل الوصول للنص المستدير المكتمل الذي يحقق مقصدية قائله في عملية التواصل اللغوية،..فيصبح النص «القول اللغوي المكتفي بذاته، والمكتمل في دلالته»، وما لا يحقق هذا الشرط- مهما كان طوله- لا يعتبر نصًّا»[1].

ويعد النص عمليةً إنتاجية من جهتين:

١- علاقته باللغة التي يتموقع فيها تصبح من قبيل إعادة التوزيع (عن طريق التفكيك وإعادة البناء).

٢- يمثل النص عملية استبدال من نصوص أخرى، أي عملية «تناص» «Inter Textualite» ففي فضاء النص تتقاطع أقوال عديدة، مأخوذة من نصوص أخرى، مما يجعل بعضها يقوم بتحييد البعض الآخر ونقضه»[2].

وعلى الرغم من ذلك فإن النصوص الشعرية هي إحدى النصوص، التي تتناولها إجراءات علم اللغة النصي، ومن الممكن بسهولة أن تتمثل فيها المعايير النصية، باعتبارها نصًّا أدبيًا خاصًّا.

---

(١) بلاغة الخطاب وعلم النص، د. صلاح فضل، عالم المعرفة - الكويت، ط ١٩٩٢م، ص٢٣٢.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٢٩.

فـ«دائرة البحث النصي أكثر اتساعًا، يكون تصوره للشكل النصي أكثر رحابة، وتكون للأشكال الثابتة المطردة وأبنيتها عناية فيه»[1].

نشأة علم النص:

أشار درسلر: «في معرض حديثه عن بعض الأعمال التي يمكن أن تُعَدُّ الأفكارُ الواردة فيها بداياتِ علم لغة النص الحالي، إلى العمل المبكر لفايل H.Weil (١٨٨٧)، حيث علق تتابع اللفظ على تتابع الأفكار، وفصل هذا التتابع على النحو، وقدم من خلال ذلك أفكار المعايير الوظيفية للجملة ومفهومًا خاصًّا لأسلوب الأفكار،.. ويشير أكثر من باحث إلى أن بداية البحث في النص – بشكل عام – ترجع إلى رسالة I.Nye التي بحثت فيها علامات الاكتمال – وهي حجة نمطية في علم لغة النص –والتكرار بناءً على أسس نصية، وبوصفها إشاراتٍ وأشكالًا محددة للعلاقات.

ثم شهدت اللسانيات منذ منتصف الستينات في أوربا ومناطقَ أخرى من العالم توجهًا قويا نحو الاعتراف بأجرومية النص بديلًا موثوقًا به لأجرومية الجملة، وفتحت للدرس اللساني منافذ كان لها أبعد الأثر في دراسة اللغة ووظائفها النفسانية والاجتماعية والفنية والإعلامية، ولم يكن عجبًا أن تحاول المدارس اللسانية على اختلاف منطلقاتها وغاياتها وإجراءاتها، أن تقدم طرزها وصيغها ومنظومة مصطلحاتها المميزة لها في هذا المضمار»[2].

---

(١) علم اللغة النصي المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد حسن بحيري، ص٦٢.

(٢)في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية آفاق جديدة، د. سعد المصلوح، عالم الكتب، القاهرة ط الثانية ٢٠١٠م، ص٢٢٥.

وهكذا فإن ثمَّةَ دراساتٍ سابقة على أعمال زليج هاريس Z.Harris يمكن أن تعد بحق البدايات الفعلية في تحليل الخطاب، هذه الدراسات قدمت بعض الأفكار النصية الجوهرية، ولكنها متناثرة ومحدودة بشكل يسمح بتتابعها بدقة[1].

وعلم النص:«لا يختص في نشأته أو تطوره ببلد معين أو اتجاه بعينه، كما هي الحال بالنسبة لعلم النحو التحويلي التوليدي مثلًا، ولكنه نشأ في بلدان مختلفة، في صور مختلفة تتباين في الأصل، ولكنها من خلال تطورات مستمرة بدأت تظهر أوجه التقارب بين الاتجاهات المختلفة»[2].

التماسك النصي:

يمثل التماسك النصي نقطة الانطلاق التي تبتدأ منها الدراسات النصية، والقطبَ الذي عليه يدور البحث النصي، فـ«التماسك النصي هو أهم عناصر الموضوع، بمعنى أن التحليل النصي يعتمد أساسًا على التماسك في تحقيق النصية،.فالتماسك يهتم بالعلاقات بين أجزاء الجملة، وأيضًا بالعلاقات بين جمل النص، وبين فقراته، بل بين النصوص المكونة للكتاب،.. ويهتم بالعلاقات بين النص وما يحيط به، ومن ثَمَّ يحيط بالنص كاملًا، داخليًا وخارجيًّا»[3].

وجدير بالذكر أنه ينبغي التنبه إلى أنه «تتحكم في إنتاج النص عدة عمليات لغوية ونفسية واجتماعية ومعرفية، تشكِّل من الأجزاء وحدة منسجمة قائمة على قواعدَ تركيبية ودلالية وتداولية معًا، ويؤدي الفصل بين هذه القواعد أو الاكتفاء بقسم منها إلى خلل حتمي في التفسير...فالوصف اللغوي للنص وصف معقَّد يتجاوز حدودَ ما هو قائم

(١) علم اللغة النصي المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد حسن بحيري، ص١٦- ١٧.
(٢) المصدر السابق، ص١٠١.
(٣) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، د. صبحي إبراهيم الفقي، ص٩١.

في اللغة، والواقع اللغوي، إلى ما هو غير قائم في اللغة، الواقع الخارجي، أي أن المادة الفعلية التي تقدمها تراكيب اللغة ليست كافية لتقديم تفسيرات دقيقة للنصوص، وعلى اللغوي المفسِّر أن يستعين بعناصر أخرى،..غير لغوية (ما وراء اللغة) من علوم أخرى متداخلة مع علم لغة النص تداخلًا شديدًا»[١].

فالنص: «لا يكون نصًا إلا من خلال شبكة من الوسائل النحوية والسياقية والثقافية، والرابط بينها هو التماسك، فهو الذي يجمع أشتات هذه العناصر، والربط أو التماسك ليس مقصورًا على الكلمات أو الأدوات، بل قد يكون رابطًا على المستوى الكلي للنص»[٢].

إذن التماسك النصي نتاج تداخل شديد بين علوم واتجاهات وأبعاد مختلفة، وإغفال هذه العوامل،أو بعض منها، يفقد النص تماسكه، على حسب مقدر الفقد لهذه العوامل في أثناء عملية التحليل.

والتماسك أو الربط «هو الذي يعطي للنص نصيته، وذلك عبر ربط الجمل معًا بغض النظر عن طول الجمل أو الفقرات»[٣].

ويتحقق هذا الربط بوسائل متنوعة كالوسائل الدلالية والنحوية والمعجمية والفونولوجية، بل إنه قد يتحقق بين عناصر النص حتى بالوسائل الطباعية typographical»[٤].

---

(١) علم اللغة النصي المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد بحيري، ص١٠٦.

(٢) علم اللغة النصي، رسائل الجاحظ نموذجًا، د.رانيا فوزي عيسى، ص ٩٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ٩٨.

(٤) علم اللغة النصي،رسائل الجاحظ نموذجًا، د. رانيا فوزي عيسى، ص١٠٠، نقلا عن:
Boase p.186 German language.

وحين يُطلق التماسك، فإنه يدخل في ذلك المفهوم معياران – من معايير دي بوجراند – بصورة أساسية:

أولًا: السبك: ويقصد به التماسك الشكلي التركيبي للنصي، وما ينطوي تحته من إجراءات، ووسائل لغوية، تكفل الالتحام على مستوى السطح.

ثانيًا: الحبك: ويقصد التماسك الدلالي للنص، وإجراءاته المحققة للتماسك على مستوى الباطن.

ثُمَّ تأتي بقية المعايير السبعة متممة لعملية التماسك، وداعمة لها.

ولما كان النص كمًّا متتابعًا من الكلمات والجمل؛ احتاج إلى هذين المعيارين الضامنين لتماسكه شكليًا ودلاليًا.

فالنص:«يمكن أن يكون كلمة واحدة، ويمكن أن يكون أيضًا جملة واحدة، ويمكن أن يكون امتدادًا من جمل كثيرة، ونؤكد أنه يجب في النوع الثالث وجود روابط شكلية ودلالية بين التتابعات من الجمل»[1].

«يتضح مما سبق إذن أن التماسك النصي ذو طبيعة دلالية من ناحية، وذو طبيعة خطية من ناحية أخرى، وأن الطبيعتين تتضافران معًا لتحقيق التماسك الكلي للنص»[2].

وإذا غابت أدوات التماسك الشكلية فإن الحل: «يتمثل في العثور على السياق المحيط بالنص أو معرفته، فمن خلاله تدرك الصلة بين الجمل التي لا تبدو بينها صلة»[3].

---

(١) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، د. صبحي إبراهيم الفقي، صـ٢٩.

(٢) المصدر نفسه، صـ٩٣.

(٣) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، د. صبحي إبراهيم الفقي، صـ٩٥.

الفرق بين النص والخطاب:

فرق البعض بين النص والخطاب، فذهب إلى أن (النص) هو المظهر الكتابي للغة، بينما الخطاب هو المظهر الشفهي.

ويحددون الخطاب بأنه: «وحدة تواصلية إبلاغية، متعددة المعاني، ناتجة عن مخاطب معين، وموجهة إلى مخاطب معين، عبر سياق معين، وهو يفترض وجود سامع يتلقاه، مرتبط بلحظة إنتاجه، لا يتجاوز سامعه إلى غيره، وهو يدرس ضمن لسانيات الخطاب.

أما (النص) فهو التتابع الجملي الذي يحقق غرضًا اتصاليًا، ولكنه متلقٍ غائب، وغالبًا ما يكون مدونة مكتوبة تمتلك الديمومة؛ ولهذا تتعدد قراءات النص وتتجدد، بتعدد قرائه، وتعدد وجهات النظر فيه، وحسب المناهج النقدية المتعددة،..»[1].

أهمية التماسك النصي:

وتكمن أهمية التماسك النصي في أمور:

أولًا: التركيز على كيفية تركيب النص كصرح دلالي.

ثانيًا: إعداد روابط التماسك المصدر الوحيد للنصية.

ثالثًا: التعرف على ما هو نص وما هو غير ذلك.

رابعًا: الربط بين الجمل المتباعدة زمانيًا[2].

---

(١) النص الغائب، تجليات التناص في الشعر العربي، د. محمد عزام، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٠١م ص٤٧.

(٢) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، د. صبحي إبراهيم الفقي، ص٩٤.

خامسًا: يُعدُّ التماسك النصي ضمانة لنجاح عملية التواصل، وفهم النصوص وتحقُّقِ أهدافها؛ لأن النصوص غير المتماسكة تخفق كل ذلك.

دور السياق والمتلقي في تحقق التماسك النصي:

ذهب بعض الباحثين إلى أن هناك عنصرين أساسيين لإثبات التماسك النصي، هذا العنصران هما:

أولا: السياق:

فللسياق دور كبير في إثبات التماسك لنص ما، وليس من الممكن إثبات التماسك النصي منعزلًا عن سياقه، خاصة إذا تخلل التتابع الجملي حذف، أو احتملت الكلمات أو الجمل دلالاتٍ متعددة.

كما يمكن استخدام السياق في صنع تنبؤات معينة، تساهم في فك شفرة النص، والوصول إلى البعد الغائب فيه.

«والسياق لم تكن أهميته مقصورة على تحديد معنى الوحدات اللغوية فقط، وإنما في تحديد معنى الكلمة أيضًا، وتحديد معنى الكلمات يؤدي إلى بيان دلالة الجمل،ومن ثم يحدث التماسك الدلالي»[1].

«ويذكر Nils أن علم لغة النص – يعني في العادة – الدراسة للأدوات اللغوية للتماسك النصي، والشكل الدلالي، مع تأكيده على السياق، وضرورة وجود خلفية لدى المتلقي حين تحليل النص»[2].

---

(١) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، د. صبحي إبراهيم الفقي، ص١٠٠.
(٢) المصدر نفسه، ص٣٣.

وقد عدَّ «فاينريش» السياق أساسًا للتماسك النصي «فتحديد المعنى عند «فاينريش» يتحقق من خلال وحدة النص، وهو يعتمد اعتمادًا أساسيًا على السياق الذي يقدم من خلاله معلومات معينة، أي سياقات دلالية semantische Zusammenhange هذه السياقات يعبر عنها بمصطلح التماسك Koharenz»[1].

تتنوع السياقات المسهمة في تحليل النصوص، وهي في حقيقتها نوعان، السياق اللغوي الفعلي، والسياق الموقفي الاجتماعي[2].

فقد ميز فيرث بين نوعين من السياق هما: «السياق اللغوي الفعلي verbal context، وسياق الموقف context of situation وكلاهما يحكم الاستعمال ويضبط حركة الكلمات، حيث يبين الأول أن الكلمة لا يتحدد معناها إلا بعلاقاتها مع الكلمات الأخرى في السلسلة الكلامية، ويُبرز الثاني أوجهَ التغير الذي يصيب المدلولات باختلاف المواقف التي تستخدم فيها الكلمات ... ويظهر هذا الاتجاه العناية بعناصر بلاغية وتداولية إلى جانب العناصر اللغوية في تحديد المعنى وهي عناصر جوهرية في التحليل»[3].

أولًا: السياق اللغوي: ومعناه أن الوحدات اللغوية لا يمكن وصفها أو تفسيرها إلا بالنظر إلى اوحدات المجاورة.

---

(١) علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، د.سعيد بحيري، ص١٤٦.

(٢) **يقسم أحمد مختار عمر السياقَ إلى أربعة أقسام:**

السياق اللغوي: ومعناه أن الوحدات اللغوية لا يمكن وصفها أو تفسيرها إلا بالنظر إلى الوحدات المجاورة.

السياق العاطفي: فيحدد درجة القوة والضعف في الانفعال مما يقتضي تأكيدًا أو مبالغة أو اعتدالًا.

سياق الموقف: فيعني الموقف الخارجي الذي يمكن أن تقع فيه الكلمة.

السياق الثقافي: فيقتضي تحديد المحيط الثقافي أو الاجتماعي الذي يمكن أن تستخدم في الكلمة انظر: علم الدلالة، أحمد مختار عمر، ص٦٩- ٧١.

(٣) علم اللغة النصي المفاهيم والاتجاهات، د.سعيد بحيري، ص٢٤- ٢٥.

«للسياق اللغوي والحالي دور حاسم في اتساق النص اللغوي وتماسكه تماسكا كليًّا، بحيث ترتبط مكوناته في علاقات جدلية بعضها مع بعض، مفردات داخل التركيب الواحد، والتركيب الواحد في علاقاته مع تراكيب النص الأخرى، بحيث ينبئ هذا الاتساق والتماسك على أن النص وحدة متكاملة، لا يمكن للمتلقي من الاستجابة لها، وفكّ رموزها، والوقوف على دلالاتها، والتناغم معها إلا باستحضار مكوناتها وبنياتها السياقية جميعها، سواء أكانت هذه البنيات (داخلية) متمثلة في طبيعة المكونات التي تشكل التركيب اللغوي الدال، وطبيعة نظمه من ربط، وحذف، وتقديم وتأخير، أم كانت (خارجية) تتحد بظرف الكلام ومقامه،..» [1].

ثانيًا: السياق الاجتماعي: «من الطبيعي أن يمثل السياق دورًا بارزًا في تحديد معنى النص، ومن ثم تحديد تماسكه، وذلك أن اللغة وليدة الاحتكاك في المجتمع، فهي بطبعها اجتماعية،.. فالمجتمع هو المنتج للنص وهو المتلقي له،.فهو الذي يحدد معناه من خلال البيئة المحيطة التي يعيش فيها المجتمع، والذي أفرز فيها النص»[2].

لذلك فإن اللغوي لا يمكنه تحليل النص تحليلا لغويا منضبطًا دون الربط بين النص وسياقه الاجتماعي، بل إن بعض العلماء ذهب إلى أن النصوص لا يمكن أن توجد خارج إطارها الثقافي العام [3].

«ولا يمكن بحال نكران تأثير دلالة سياق النص اللغوي، وسياق الموقف الملابس له، على العناصر النحوية، من حيث الذكر والحذف، والتقديم والتأخير، والتعريف

(١) علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي، أد. هادي نهر، دار الأمل، الأردن، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ ٢٠٠٧، ص٤٧٥.

(٢) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، د. صبحي إبراهيم الفقي، ص١٠٠.

(٣) علم اللغة النصي،رسائل الجاحظ نموذجًا، د. رانيا فوزي عيسى، ص٣٠ نقلًا عن:
The Concept of Text in Cultural Semotics.p2.

والتنكير، وغير ذلك،.. ولا ينكر أن دلالة السياق تجعل الجملة ذات الهيئة التركيبية الواحدة بمفرداتها نفسها، إذا قيلت بنصها في مواقف مختلفة، تختلف باختلاف السياق الذي ترد فيه، مهما كانت بساطة هذه الجملة وسذاجتها»[1].

والسياقات بأنواعها المختلفة معتبرة في عملية التواصل اللغوي، وكذلك في عملية التحليل النصي؛ لأن السياق له أثر واضح في العدول بالكلمات عن معانيها، أو في اكتسابها معانيَ جديدة، فالسياق صورة للغة في حركتها الدائبة.

وعلى قدر استيعاب المتلقي للسياقات، وقدرته على تفهمها، تتوافق نسبة قدرته على التحليل النصي، والوقوف على اتساق النص وانسجامه، أو إثبات تماسكه الشكلي والدلالي أو عدمه.

ثانيًا المتلقي: اعتنى النقد العربي القديم بالمتلقى سامعا و قارئا، وبلغت هذه العناية أوْجَها في عصور ازدهار النقد،.. وبلغت هذه العناية حدًّا يدفعنا إلى القول إن النقد العربي وضع المتلقي في منزلة مهمة من منازل الأدب.

ونظرية التلقي اليوم من أكثر نظريات الأدب أهمية، وأشدها صلة بمقياس الجودة الأدبية، فالمتلقي هو الذي يحدد أبعاد تلك الجودة من خلال تأثير الصورة الأدبية فيه، والعمل الأدبي جوهر وحقيقة، أثر وتأثير، فإذا امتلك زمام تأثيره في متلقيه، فقد حقق الأدب أدبيته، ومنح النصوص قيمة عالية، ووفر لها فرص البقاء والخلود عبر العصور، فخلود الأعمال الأدبية، إنما هو خلود في نفوس متلقيها [2].

---

(١) النحو والدلالة، د.محمد حماسة عبد اللطيف، دار الشروق – القاهرة، ط. أولى ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م ص١١٣.

(٢) استقبال النص عند العرب، د. محمد المبارك، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط. أولى ١٩٩٩م، ص٩.

لاشك أن أهم وظائف المتلقي: «هي دراسة مدى التماسك الحاصل بين أجزائه؛ لذلك فإن محلل النص يبحث أول ما يبحث عن تماسك النص الذي يحلله، لأن التماسك بالنسبة للنص تمامًا كالمادة الخراسانية بالنسبة للبناء الذي يتكون من لبنات وأعمدة وأخشاب تجمعها وتقويها»[1].

فالمتلقي للنص: «يجب أن تتوفر فيه الكفاءة التي تمكنه من استيعاب النص وتفكيكه، وتتمثل تلك الكفاءة في معرفة لغة النص، وأسلوبه وسياقه،..فالقارئ الذي يدرك طبيعة المنتج، وطبيعة النص، والوسائل المستعملة في النص، وسياق النص، هو ذلك القارئ أو المتلقي النموذجي أو المثال إن صحَّ التعبير»[2].

وفي علم اللغة النصي على الخصوص ينضاف إلى مهارات القارئ أو المتلقي مهارةُ اكتشاف التناص، بعدِّه معيارًا محقِّقًا لتماسك النص «إن الشعرية الحديثة تبرز المتلقي بوصفه قارئًا مشاركًا ومنتجًا للنص، ومن ثم التناص بوساطة التأويل الخاص به، إن التناص مرتبط ارتباطًا منطقيًا بالمتلقي؛ لأنه لا يمكن كشف التناص إذا كان المتلقي غير عالم بالتداخلات النصية بين النصوص، وكذلك درجة قرابتها بعضها ببعض، فالتناص جهد تأويلي خاص، يرشحه المتلقي وساطة عوامل عدة»[3].

«فأي نص متناص لايكشفه إلا المتلقي العالم بأنساب النصوص وتفرعاتها وأعمارها،.. وعليه فلا يكون ثمة تناص ما لم يكن ثمة تأويل له من قبل المتلقي، فكيف

(١) علم اللغة النصي،رسائل الجاحظ نموذجًا، د. رانيا فوزي عيسى، ص٩٣.
(٢) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، د. صبحي إبراهيم الفقي، ص١٠٤، ١٠٥.
(٣) التناص في شعر الرواد، أحمد ناهم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط.الأولى ٢٠٠٤م، ص٨.

يتم ربط وكشف النص اللاحق من النص السابق إذا كان المتلقي جاهلًا بهذه النصوص أساسًا»[١].

«وينبغي هنا أن نفرق بين تفسير مستعمل اللغة والمستعمل الخاص الذي يتميز بقدرات أخرى اكتسبها من تجارب عدة ونظرات عميقة في نصوص متباينة شكلت ما أطلقنا عليه (الخلفية الدينامية) التي تؤهله للتعامل مع أشكال النصوص تعاملًا لا يتوقف عند البعد التفسيري الأول الذي يكتفي بتحديد المعاني المباشرة بل يتجاوزه إلى أبعاد أخرى خفية كامنة في النصوص الجيدة،»[٢].

وقد مارس الأستاذ شاكر دوْرَ المتلقي والمحلل في الوقت نفسه؛ لذلك رأيناه يتحدث إشراقات القصيدة في نفسه، وما وقف منه على جماليات وإبداعات بحس المتلقي الأديب ذي الثقافة العربية الواسعة، والانتماء التراثي الأصيل، وإذا كان المتلقي له « دور بارز في هذا التحليل، فهو الذي يظهر العناصر المفقودة بناء على السياق اللغوي والاجتماعي، ثم يربط بين المذكور والمفقود»[٣].

«ويسري الأمر ذاته على فكرة الفراغات أو الفجوات الموجودة في النص، وقدرة القارئ المتمرس على اكتشافها وسبر دلالتها، ويعتمد ملء هذه الثُّغرات على المعنى الكلي للنص أو وحدة الدلالة»[٤].

من هذا المنطلق وجدنا الأستاذ محمود شاكر قد تحمل من مؤهلات هذا العمل ما يجعله حائزًا قصب الريادة في ذلك.

(١) المصدر نفسه، ص ٨.
(٢) علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد بحيري، ص١٧٥.
(٣) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، د. صبحي إبراهيم الفقي، ص٥٧.
(٤) علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد بحيري، ص١٨٣.

ويلزمنا أن نفرِّقَ بين نوعين من التلقي، يكون لكل واحد منهما أثره في نجاعة الاستقبال، وفي التحليل النصي.

وهذان النوعان ببساطة هما التلقي المباشر والتلقي غير المباشر، بمعنى مفارقة المتلقي للمرسل في الزمان والمكان، ولا يخفى أثر الحضور الزماني والمكاني في تحقيق كفاءة عملية التواصل اللغوي، ولا يخفى ما يتطلبه البحث من المتلقي- إذا تباعد الزمان والمكان - من الخوص في أعماق الزمان والمكان لمقاربة النص وفك شفراته.

فلا بد من التنبه إلى أن: «الأمور تكون واضحة في التخاطب الشفهي حيث الكلام الذي ينطق به المتكلم آنيًّا إلى أذنيْ المخاطب،.. إنما يختلف الأمر قليلًا في التخاطب كتابة،..(فـ) هناك فاصل زمني ومكاني ملموس بين الإرسال والاستقبال، فالمرسِل وحده يكون متجاورًا حسيًّا، وفي الزمان والمكان، مع ما يكتب وقت إعداد الرسالة، بينما يكون حضور المتلقي حضورًا صوريًّا قائمًا في ذهن المرسل، وتنعكس الأمور بعض الشيء في عملية التلقي، فالمتلقي يتجاور حسيًّا، وفي الزمان والمكان مع النص، والمرسل يبتعد عنه،إنما يكون حاضرًا في ما كتبه وإن كان غائبًا جسديًّا»[1].

فعلى المحلل أن يملاء الفراغ الزماني والمكاني الحادث من تباعد المرسل عن المتلقي، لتتحقق أعلى ما يمكن تحققه من التواصل من المرسل والمستقبل.

(١) في بناء النص ودلالته (نظم النص التخاطبي - الإحالي) مريم فرنسيس، منشورات وزارة الثقافة بسوريا دمشق ٢٠٠١، ص٦٥، ٦٦.

العلامة محمود شاكر

إنه شيخُ العربية وعاشقُها وخادمُها، والحارس المرابط على ثغورها، والذائد عن حياضها كلَّ رائمٍ شرًّا لها، ومضمرٍ كيدًا بها.

إنه ظاهرة فريدة في الأدب والثقافة العربية الحديثة، فهو كاتب له طريقته الخاصة لا تبارى أو تحاكى، وشاعر مبدع حقق في الإبداع الشعري ما بلغ ذروته في قصيدته «القوس العذراء»، ومحقق بارع لكتب التراث، قادر على فك رموزها وقراءة طلاسمها، ومفكر متوهج العقل ينقض أعتى المسلمات، ومثقف واسع الاطلاع في صدره أطراف الثقافة العربية كلها فكانت عنده كتابا واحدا[1].

تحمل الأعباء الجسام في سبيل قضية التأصيل، والمحافظة على هوية اللسان العربي. والفكر العربي، وكان إيمانه الراسخ أن اللغة هي ثقافة الأمة، وأن رأس كل ثقافة هو الدين. وقد توج حياته الفكرية والثقافية، وجهاده المتواصل في ميدان الكلمة النقية التي تخلصت من العجمة، والغربة والاستلاب، توج هذه الرحلة المباركة بكتابه الصعب الذي أسماه «نمط صعب ونمط مخيف»[2].

أخذ نفسه بأسلوب صارم حازم، فقرأ القرآن صبيًّا، وأقبل على الشعر مبكرًا، يحفظه لا كما يحفظه الناس: مقطوعات للإنشاد والتسلي والمطارحة في المجالس، وإنما الشعر هو باب العربية، وقد قاده الشعر إلى كتب العربية كلها، فالمكتبة العربية عند أبي

(١) مقال:«محمود شاكر .. منجم الأصالة العربية د. خالد النجار، موقع الألوكة الثقافية» رابط الموضوع: http:/www.alukah.net/culture/0/41908/#ixzz3t03jkglk.

(٢) «العلامة محمود شاكر في مواجهة النص»، رؤية ومنهج «مقال إلكتروني بقلم د. صابر عبد الدايم رابط: (http://alarabnews.com/alshaab/Gif/02-08-2002/Shaker.htm).

فهر كتابٌ واحدٌ، والعلوم عنده علم واحدٌ، فهو يقرأ صحيح البخاري كما يقرأ الأغاني، ويقرأ كتاب «سيبويه قراءتَه لمواقف عضد الدين الإيجي»[1].

«ينطلق محمود شاكر في كتاباته من منهج متكامل في مواجهة النص الإبداعي والفكري وذلك وفق منظور عربي خالص، مؤمن بفاعلية الحضارة العربية والإسلامية، ودورها الرائد في حضارة الإنسان، والرقي بمداركه وأخلاقياته. وهذه الرؤية الشمولية النزعة للتجديد والتأصيل، وعدم الاستكانة للمألوف والمتوارث، تتصادم مع السائد في الأعراف والتقاليد الأدبية»[2].

مولده .. نشأته .. وفاته:

ولد محمود محمد شاكر بمدينة الإسكندرية، يومَ الاثنين، العاشرَ من شهر الله المحرم سنة ١٣٢٧هـ، الموافق أولَ فبراير عام ١٩٠٩م.

والده الشيخ محمد شاكر بن أحمد بن عبد القادر، من أسرة أبي علياء،من أشراف صعيد مصر، والشيخ محمد شاكر من أعلام العصر، ومن زعماء الإصلاح في الأزهر الشريف، وكان وكيلا له، توفي سنة١٩٣٩م.

وجدُّه لأمه الشيخ هارون عبد الـرزاق، أحد كبار زعماء المذهب المالكي في مصر، توفي سنة ١٩١٨م، وهو جدُّ المحقق الكبير عبد السلام محمد هارون المتوفى سنة ١٩٨٨م.

---

(١) مقالات د. محمود محمد الطناحي: «صفحات في الراث والتراجم واللغة والأدب: «دار البشائر الإسلامية – بيروت – ط. أولى ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م، ص٤٣٥J،من مقال: «محمود شاكر،..والتكريم المستحق «جريدة» الأهرام « مصر ٢٩ مارس ١٩٩٦م».

(٢) «العلامة محمود شاكر في مواجهة النص»، رؤية ومنهج، مقال إلكتروني بقلم د.صابر عبد الدايم رابط: (http://alarabnewas.com/alshaab/Gif/02-08-2002/Shaker.htm).

وأخوه الأكبر الشيخ أحمد محمد شاكر، مُحدِّث العصرِ، ومُسنِده، اشتغل بالقضاء، وكانت له أحكام مشهورة، ونشر جملة من نصوص التراث.

تلقى محمود محمد شاكر أولَ مراحلِ تعليمه في مدرسة الوالدة أم عباس في القاهرة سنة ١٩١٦م.

حصل على شهادة البكالوريا (الثانوية العامة) القسم العلمي – فقد كان أبوه يعدُّه ليكون طبيبًا – من المدرسة الخديوية سنة ١٩٢٥م،

في سنة ١٩٢٦م التحق بكلية الآداب[١]، الجامعة المصرية، واستمر بها إلى السنة الثانية، حيث نشب الخلاف المعروف بينه وبين الدكتور طه حسين حول قضية « الشعر الجاهلي «وقد أفضى الخلاف إلى أن يترك الدراسات الجامعية كلها،

وفي سنة ١٣٤٧هـ / ١٩٢٨م سافر إلى الحجاز مهاجرًا، وهناك أنشأ – بناءً على طلب من الملك عبد العزيز آل سعود – مدرسة جدة السعودية الابتدائية، وعمل مديرًا لها، ولكنه ما لبث أن عاد إلى القاهرة في أواسط عام ١٩٢٩م، ومنذ ذلك التاريخ وهو ملازمٌ بيتَه وكتبَه، لم يَلِ عملًا وظيفيًّا يأكل وقته، ولم يتقلد منصبًا يريد له أن ينمو، ويُكسبه الوجاهةَ عند الناس[٢].

---

(١) يذكر الأستاذ شاكر للدكتور طه حسين يدًا عليه؛ إذ كان سببًا في دخوله كلية الآداب، فيقول: «فكانت له عندي يدٌ لا تُنسى، يومَ تقدمت إلى الجامعة أحمل شهادة (البكلوريا) من القسم العلمي لألتحق بكلية الآداب، قسم اللغة العربية، وبإصراره هو استطاع أن يحطم إصرارَ مدير الجامعة يومئذ أو أحمد لطفي السيد، الذي كان كعادته ملتزمًا بظاهر الألفاظ، ويرى أن لا حقَّ لحامل بكلوريا القسم العلمي في الالتحاق بالقسم الأدبي، فبفضل الدكتور طه صرتُ طالبًا عنده في قسم اللغة العربية».
انظر: «المتنبي ليتني ما عرَفتُه» محمود محمد شاكر عام ١٩٧٨م بمجلة «الثقافة» العدد ٦٠، ضمن جمهرة مقالات محمود محمد شاكر، جـ٢، ص١٠٩٧.

(٢) مقالات د. محمود محمد الطناحي «صفحات في الراث والتراجم والتراجم والتراجم والأدب:«دار البشائر الإسلامية –بيروت – ط أولى ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م، ص٦٠٣-٦٠٤من مقال «محمود محمد شاكر» – الفرقان للتراث – لندن ١٩٩٨م.

في الساعة الخامسة عصرَ يومِ الخميس٣ من ربيع الآخر ١٤١٨هـ ٧من أغسطس ١٩٩٧م، دُعيَ محمود شاكر فأجابَ[١].

انطفأ السراج، وأفلَ النجمُ الهادي في سماء الظلمة، وساخ الجبل الذي ظلَّ راسخًا شامخًا حائلًا بين العربية وغوائل وغارات الكائدين، على مدار سبعين سنة أو تزيد، فرحمه الله رحمة واسعة وأجزل المثوبة والجزاء.

والكلام: «عن محمود شاكر لن ينتهيَ بهذه الكلمة، وسيظل هذا الرجل أثرًا ضخمًا في ضمير هذه الأمة: حراسة للعربية، وذودًا عنها، وبصرًا بها، وإضاءة لها، وإن أحق ما يقال عن محمود شاكر هنا وفي كل وقت وحين، ما قاله هو، عن أستاذه مصطفى صادق الرافعي:» بأن الرافعي قد صار ميراثًا نتوارثه، وأدبًا نتدارسه، وحنانًا نأوي إليه «وكذلك يكون محمود شاكر «ميراثًا نتوارثه» إلى آخر ما قاله في حق شيخه الرافعي»[٢].

آثاره العلمية:

لا يمكن أن يُقاسَ أثرُ العالِم بعدد ما تركه من مؤلفات – وإن كان هذا لكافيًا في شأن محمود شاكر– لأن هناك آثارًا تتجاوز المؤلفات لتستقر وتظهر، في نفوس المحيطين به، ويمتد ذلك الأثر منه إليهم، ثم منهم إلى غيرهم، ثم إلى أنحاءٍ كثيرة لا يعلم مداها الزماني والمكاني إلا الله.

---

(١) مقالات د. محمود محمد الطناحي «صفحات في التراث والتراجم واللغة والأدب «دار البشائر الإسلامية بيروت – ط. أولى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ص٥٣٢من مقال: «أيُّ شلَّالٍ هادرٍ توقف «مجلة العربي» العدد ٤٦٩يسمبر١٩٩٧م.

(٢) مقالات د. محمود محمد الطناحي «صفحات في التراث والتراجم واللغة والأدب «دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط أولى ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م، ص٥٣٦، من مقال: «أيُّ شلَّالٍ هادرٍ توقف «مجلة العربي» العدد ٤٦٩، يسمبر ١٩٩٧م.

وهذه الآثارُ الممتدة إلى من حوله، والمتجاوزة المؤلفاتِ، قد يكون بعضُها ما يغذو طلابَه من الهمة وصحيح النظر، والتبصرة بمواقع الرشاد والزلل، وخلاصة تجاربه العلمية،وما اهتدى إليه من علوم غابت عن غيره، أو تجاوزتها الأبصارُ العجلى والهممُ الضعيفةُ، والتنبيهِ على المعاطب، ومسالكِ الحقيقة، وآثار غير ذلك كثيرة، قد تقصر العبارةُ عن بيانه وإحصائه،ثم هم من بعد ذلك ينطلقون في دروب العلم عالِمِين معلمينَ على نورِ ما اقتبسوه منه في ذلك.

المؤلفات المكتوبة بعضُ أثرِ العالمِ وليستْ كلَّ، ولو ذهبنا نستقصي من ترك مؤلفاتٍ، ولم يكن أثرٌ وراء ذلك، ومن كان له الآثارُ، ولم تكن مؤلفات؛ لأعينا العدُّ والإحصاءُ، لكن سنحصل الوقوف على فرق ما بين المؤلفات والأثر.

وإلا فقدكان محمود شاكر مدرسةً أدبية لا نظير لها، وكان بيته حاضرة علمية ومحفلًا ثقافيًّا، يتوارد عليه العلماء وطالبو العلم على اختلاف جنسياتهم ومشاربهم، وتوجهاتهم العلمية.

يقول الأستاذ فتحي رضوان: «كان بيته ندوة متصلة لا تنفضُّ، من أعضائها الثابتين: يحيى حقي إذا حضر من أوربا، وعبد الرحمن بدوي، حسين ذو الفقار صبري، وغيرهم وغيرهم، ولم يكن من حظي أن أكون عضوًا دائمًا فيها، فقد كنتُ ألُمُّ بهم أحيانًا، فأراهم وأرى من العالم العربي كلِّه، ومن العالم الإسلامي على ترامبه، شخصياتٍ لا حصر لها، تتباين بعضها عن بعض، في الزيِّ والمظهر والثقافة واللغة والشواغل والمطامح، ولكنها تلتقي كلها عندمحمود شاكر، تسمع له وتأخذ عنه، وتقرأ عليه وتتأثر به»[1].

(١) مقال «الرجل والأسلوب «للأستاذ فتحي رضوان، ضمن دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى أديب العربية أبي فهر محمود محمد شاكر، بمناسبة بلوغه السبعين، مجموعة مؤلفين، دار المدني، القاهرة ١٤٠٣هـ ١٩٨٢م.

يقول د. محمود الطناحي:«وإذا كان الأستاذ فتحي رضوان قد ذكر من عرفهم من أعلام المفكرين والأدباء، الذين كانوا يختلفون إلى بيت محمود شاكر، في الخمسينات وما قبلها، فإني ذاكر أيضًا من عرفتُهم في هذا المجلس العامر، على امتداد الستينات والسبعينات: عبد الرحمن صدقي وعلي أدهم وحسن كامل الصيرفي، ومحمود حسن إسماعيل ووديع فلسطين وعلي أحمد باكثير ويوسف شوقي وعبده بدوي.

ومن أعلام العرب وأدبائه: أحمد المانع وناصر الدين الأسد، وأحمد راتب النفاخ وإحسان عباس، وشاكر الفحام، وإحسان النص، ومحمد يوسف نجم، و وليد عرفات، وعبد القدوس أبو صالح، وعبد الله الطيب المجذوب، وحمد الكبيسي، ونور القيسي، وعبد الله الجبوري، وهاشم الطعان، وبشار عواد معروف، وإبراهيم السامرائي، ويعقوب الغنيم وأخواه عبد الله ومرزوق، وجمعة الياسين، وصالح العثمان، وعبد الله العيسى، وعبد الله عسيلان، وإبراهيم شبوح، ومحمد بن شريفة، وعبد السلام الهراس، والحبيب اللمسي،..فهل وجدت هؤلاء قد اجتمعوا يومًا عند أديب من أدباء مصرَ !! ثم يتسع المجلس أيضا للطلاب المبتدئين والشباب المعيدين»[1].

وفي الأخير، أقول: قُل لي من الملتفون حولك، والحاضرون مجالسَك، أقل لك مَنْ أنت، وما أثرُك !![2].

(١) مقالات د. محمود محمد الطناحي «صفحات في الراث والتراجم واللغة والأدب، ص٥٣٤- ٥٣٥، من مقال: «أيُّ شلاَّل هادر توقف»، مجلة «العربي» العدد ٤٦٩، ديسمبر ١٩٩٧م.

(٢) يقول الطناحي أيضًا -رحمه الله-: «ومن الحقائق التي لا تُدفع أنه لم يحظَ أحدٌ من الأدباء المعاصرين الكبار،..بعشر معشار ما حظِيَ به محمود شاكر من التلاميذ والمريدين الذين صار كثير منهم رؤوسًا رؤساءَ ببلادهم ومواقعهم»، انظر مقال: «محمود محمد شاكر،..والسهام الطائشة»، مجلة «الجيل»١٩٩٨م، وتجده في كتاب «مقالات محمود محمد الطناحي»، ص٦١٥ .

أمَّا ما تركه من مدونات علمية، يظن البعض ظنًّا ضيقًا، أنها - فقط -ميزانُ الآثارالعلمية للرجال، فهي كما يلي:

تحقيقاته:

١ـ فضل العطاء على العسر لأبي هلال العسكري المطبعة السلفية ـ القاهرة ١٣٥٣هـ،١٩٣٤م.

٢- إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع لتقي الدين المقريزي. ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٤٠م.

٣- المكافأة وحسن العقبى لأحمد بن يوسف بن الداية الكاتب ـ المكتبة التجارية ١٣٥٩ هـ -١٩٤٠م.

٤- طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي ـ دار المعارف ط. أولى ١٩٥٢م ـ ط ثانية ١٩٧٤م.

٥- تفسير الطبري ـ الأول والثاني ـ دار المعارف ١٩٥٤م ـ الثالث والرابع دار المعارف ١٩٥٥م ـ السادس والسابع والثامن دار المعارف ١٩٥٦م ـ من التاسع إلى الثاني عشر دار المعارف ١٩٥٧م ـ الثالث عشر والرابع عشر دار المعارف ١٩٥٨م ـ الخامس عشر دار المعارف ١٩٦٠م ـ السادس عشر دار المعارف ١٩٦٩م.

٦- جمهرة نسب قريش وأخبارها للزبير بن بكار ـ جـ ١ مكتبة دار العروبة ١٣٨١هـ السفر الأول.

٧- تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار للطبري ـ مسند علي ابن أبي طالب ـ مسند عبد الله ابن عباس ـ السفر الأول ـ منشورات جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية ـ الرياض ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م ـ مسند عبد الله بن عباس ـ السفر

الثاني ـ مسند عمر بن الخطاب. ـ منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الرياض ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٢م.

٨- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ١٩٨٩م.

٩- أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ـ دار المدني ـ جدة ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩١م.

مؤلفاته:

١- المتنبي(١٩٣٦م)، ونشر في مجلة «المقتطف»، بإلحاحٍ من صاحبها فؤاد صرف، احتفالًا بمرور ألف سنة على وفاة المتنبي، فأتى فيه الأستاذ بما لم يُسبق إليه عن المتنبي، وترتيب شعره، وقضايا أخرى مهمة.

٢- القوس العذراء(١٩٥٢م)، وهي صدى لقصيدة الشاعرالمخضرم الشماخ بن ضرار، يصف فيها قوسا قطعها وقوَّمها وسواها وأحبها وظلت رفيقة دربه وعمره، ثم وافى موسم الحج فاضطر لبيعها فباعها، وهي إحدى روائع شاكر، وقد أقامت الدنيا وشغلت الناس، ولا زالت.

٣- أباطيل وأسمار(١٩٦٥م) وكانت مقالاتٍ نشرت بمجلة «الرسالة»، ردًا على مزاعم لويس عوض، وتطرقت إلى قضايا مهمة تتعلق بالعربية وخصومها.

٤- برنامج طبقات فحول الشعراء(١٩٨٠م) وهو إضافة إلى كتاب «طبقات فحول الشعراء»يشرح فيه منهجه في التحقيق.

٥- نمط صعب ونمط مخيف(١٩٦٩م) وهو عبارة سبع مقالات نشرت في مجلة «المجلة» خلال عاميْ١٩٦٩-١٩٧٠، وكانت ردًّا على أسئلة أوردها « يحي حقي» حول قصيدة ابن أخت تأبط شرًّا، ورأي الشاعر الألماني «جوته» فيها.

٦- قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام، وهو في الأصل محاضرة ألقاها في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٩٧٥م، ثم نُشرت كتابًا قبل موته بأشهر ١٩٩٧م.

٧- رسالة في الطريق إلى ثقافتنا (١٩٨٧م)، وهو كتاب ذو رؤية أدبية تاريخية، وقيم فكرية عالية، وقد ألحق بكتاب المتنبي، وطُبع طبعاتٍ مستقلة.

٨- ديوان: «اعصفي يا رياح «وهو ديوان يجمع ما نشره محمود شاكر وما لم ينشره من أشعاره، وقد قام بجمعه وإخراجه ابنه د. فهر محمود محمد شاكر، وتليمذه د. عادل سليمان جمال، وبإعانة ابن أخي محمود شاكر، الدكتور عبد الرحمن شاكر عام ٢٠٠١م.

٩- «مداخل إعجاز القرآن»، وهو عبارة عن كتابات متعددة متعلقة بقضية إعجاز القرآن، وطُبع بعد موت الأستاذ عام ٢٠٠٢م.

١٠- ثم «جمهرة مقالات محمود محمد شاكر» جمعت ما نشره الأستاذ على مدار حياته في الصحف والمجلات، وهو دلالة كبرى على تعايشه مع الأحداث والقضايا العامة والخاصة، وقد جمعها تلميذه الدكتور عادل سليمان جمال، فجمع ما تناثر من مقالاته في سفر واحدٍ، يكون على مدِّ يدِ الطالب، فجزاه الله خيرًا، وقد وقفت على الطبعة الثالثة ٢٠١٣، مكتبة الخانجي.

ومما يُعدُّ من بعض آثاره العلمية ما ألقاه من محاضرات، وما شارك من مؤتمرات وندوات.

فنسأل اللهَ لنا وله القبولَ وحسن الثواب

بين يدي كتاب

نمط صعب ونمط مخيف

نُشر كتاب «نمط صعب، نمط مخيف» للأستاذ العلامة شيخ العربية أبي فهر محمود محمد شاكر، في سبع مقالات بمجلة «المجلة»عامي ١٩٦٩-١٩٧٠م.

ويُعدُّ الكتابُ إحدى الوثائق التاريخية، التي أضافها محمود شاكر إلى التاريخ الأدبي والفكري العربي المعاصر، لما اشتمل عليه من خلاصة تجارب حياة أدبية حافلة بالمنازلات الفكرية، والمعارك الأدبية الثقافية، امتدت قُرابة ثلاثة أرباعِ قرنٍ من الزمان،تعرضت فيها الحياة الأدبية لِهزَّاتٍ وزلزلات، نتجت عنها تحولاتٌ هائلة في المجتمع والثقافة والفكر، وقد عاصر الأستاذ هذه التحولات يسمعها ويراها ويستشعرها ويعاني مرراتِها، ويخوض معاركها، وينازل في ميادينها، متسلحًا بزاد وافرٍ غيرِ معهودٍ، من التراث العربي على تنوع مصادره.

وفي سبب إقباله على كتابة المقالات -التي ضُمنتْ في كتاب فيما بعدُ - يقول محمود شاكر:

«فهذا كلامٌ بعيدُ العهدِ كنتُ كتبته استجابة لهوى صديق قديم، هو أخي «يحي حقِّي» رحمه الله، وهو ما يتصل بقصيدة تأبطَّ شرًا[1]:

إنَّ بالشِّعب الذي دون سلع

(١) هكذا قال الأستاذ، لكنه سيرجح فيما بعدُ أنها لخفاف بن نضلةَ يقولها في خاله تأبَّط شرًّا؛ حيث يقول: «وأنا أميل أشدَّ الميل إلى نسبة هذه القصيدة إلى: «ابن أخت تأبَّط شرًّا « سُمِّي أم لم يسمَّ، وكل الدلائل التي ذكرتها ترجح ذلك عندي، فهي إذن قصيدة جاهلية خالصة »انظر: نمط صعب، ص ٥٨.

وما أورده من أسئلة تتعلق بالقصيدة المنسوبة إلى تأبَّط شرًّا، وبعض هذه الأسئلة يتعلق بترتيب أبيات القصيدة، الذي اقترحه الشاعر الألماني «جوته» حين ترجم القصيدة إلى الألمانية، وبعضها يتعلق بالشعر القديم وروايته عامة، ثم ما بناه من افتقار القصيدة العربية إلى الوحدة »[1].

استعار الأستاذ محمود شاكر عنوان هذه المقالات، من قول الوزير الأندلسي، أبي عبيد البكري (٤٨٧هـ)، بعد أن ذكر من القصيدة أبياتًا في كتابه «اللآلي في شرح أمالي القالي فقال: «اختُلف في نسبة هذا الشعر،..،وهي قصيدة، ونمط صعب»[2].

وأيضًا لمبالغة: «يحي حقي» في إطراء «جوته»، ووصفه بما لم يدعيه هو لنفسه، يقول شاكر:«وقد أسلمني هذا كله إلى أسًى يجعلني شديدَ الضجر لمشقة هذا النمط الصعب من التعسف والمبالغة، شديدَ الارتياع لهذا النمط المخيف من التردي في عبودية الأسماء المتوهجة في سماء غير سمائي»[3].

و هو ينطلق في تلك الدراسة بدافع الغيرة على التراث، والرغبة في إزالة الغبار عنه لأجل الناشئة من الشعراء المحدثين والنقاد،فالكتاب متجرد لقضية تراثية في صورتها العامة والخاصة، دافعُه إليها الغيْرةُ على ذلك المجد التالد، وتحفزه الرغبة في إزالة ما أُثِيرَ عليه من غبار التضليل، صيانةً لورثة هذا المجد العربي من الانخداع بدعاوٍ هدفها تشويه التراث وتحقيره في نفوسهم.

---

(١) نمط صعب ونمط مخيف، محمود أحمد شاكر، دار المدني، القاهرة، ط.الأولى ١٤٤١٦هـ - ١٩٩٦م، ص١.

(٢) سمط اللآلي في شرح أمالي القالي، أبو عبد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي، تحقيق عبد العزيز الميمني، دار الكتب العلمية -بيروت - لبنان، ص ٩١٩.

(٣) نمط صعب ونمط مخيف، محمود أحمد شاكر، ص ٣٦.

يقول شاكر:«ولو كان الأمرُ أمرَ جيلٍ مضى أكثرُهُ، وبقي أقلُّه مسرعًا إلى غاية كل حيٍّ، لهان الأمر، ولكنه جيل ألقى في حياة الأجيال التي جاءت بعده كل ما تمزقت به حياته ـ وتبعثرت به خطواته، منذ كانت محنة الشعر الجاهلي، فتسرب التمزق والتبعثر خفيًّا وظاهرًا، في جيل بعد جيل...ورأيتني ظالمًا إن أنا أغفلتُ حقَّ ناشئة الأجيال العربية عامة، وحقَّ ناشئة النقاد الشعراء منهم خاصة،..فهم الورثة، وكل ما نملك نحن ميراثٌ آيلٌ إليهم غدًا أ بعد غدٍ»[1].

وهو بهذا الكتاب الفريد يلقن جيلنا المعاصر، والأجيال القادمة الدرس العميق، والرؤية الجادة، في تحليل الإبداع العربي، وفق منظور عربي، خالص من الشوائب والترجمات الهزيلة..، والتهجين الثقافي.

*إنه تحليل يرتكز على إظهار عبقرية اللغة العربية، وجمالياتها الصوتية، والاشتقاقية، والبلاغية في خضم هذا الجمال العبقري، لا يغفل عبقرية المكان، ولا تضيع ملامح البيئة الممتزجة بالمفردة اللغوية، والتراكيب وخصائصها المائزة[2].

بين يدي القصيدة:

هي قصيد جاهلية محضة،على بحر المديد الأول، عدد أبياتها ستَّةٌ وعشرون بيتًا، اختلف العلماء في نسبتها، فمنهم من نسبها إلى تأبط شرًّا، ومنهم من نسبها إلى الشنفرى، ومنهم من نسبها وضعا إلى خلف الأحمر، ومنهم من نسبها إلى ابن أخت تأبَّطَ شرًّا خفافِ بن نضلة، وهذا الأخير يرجحه الأستاذ بعد التقصِّي والتتبع.

---

(١) نمط صعب ونمط مخيف، ص٢٨٩-٢٩١.

(٢) «العلامة محمود شاكر فثي مواجهة النص» رؤية ومنهج «مقال إلكتروني بقلم د. صابر عبد الدايم رابط المقال: (http://alarabnews.com/alshaab/GIf/02-08-2002/Shaker.htm).

والقصيدة تعد من نوع النص المفتوح Open text وليست نصًا مغلقًا Closed text وذلك باعتبار:«أن النص المغلق هو النص الذي اكتفى بنفسه، ولم تدخل أي تداخلات أجنبية من نصوص أخرى، بمعنى آخر لم يحدث له عملية التناص Interextuality، أما النص المفتوح فهو الذي حدث تناص بالمساس بنصوص أخرى، وإدراج بعضها في النص، ومن ثَمَّ أصبح النص مفتوحًا على نصوص أخرى»[1].

يقول الأستاذ شاكر في تأبَّطَ شرًّا - الذي انبعثت في الشاعر دوافعُ مقالتها بسبب مقتله-: كان «تأبَّطَ شرًّا» شاعرًا مُجيدًا، وكان فاتكًا جريئًا بَئيسًا، يغزو على رجليه لا يركب فرسًا، لأنه كما قالوا: «كان أعدى ذي رِجليْنِ، وذي ساقَيْن، وذي عَيْنيْن».وكان يكثر الغارة على «هُذيْل» في ديارهم وحده، وكان شديد النكاية فيهم، وله فيهم وقائع مُنكرة، ينال منهم وقلما ينالون منه.حتى إذا حانت منيَّته وفرغ أجله، ظفروا به في آخر غارته عليهم، عند جبل في بلادهم يقال له: «سَلْع»، فاحتملوا جثمانه فرمَوْا به في شعب من شعاب سلع، فيه غارٌ يقال له: «غار رخمان».

وكان «لتأبط شرًّا»ابنُ أخت (هو خُفاف بنُ نضلة، إن صحَّ ذلك، كما سلف في المقالة الأولى)، فلما بلغه خبرُ قتلِ خاله، حَمِيَ واحتدم، فحرَّم الخمرَ على نفسه، على عادتهم في الجاهلية لا يذوقها حتى يدرك بثأر خاله، وقد فعل. ثمَّ قال أكثر هذه القصيدة بعد أن شفي غليله من « هذيل»ونقض وتره،..وحلَّت له الخمر»[2].

يقول شاكر:«وقد أثبتُّها كما جاءت في رواية أبي تمام في الحماسة، ومنقولًا عن شرح التبريزي لحماسة أبي تمام،ونشرتها بنصِّها وترتيب أبياتها هناك، إلا ألفاظًا يسيرة في بعض

(١) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، د. صبحي إبراهيم الفقي، ص٥٣.
(٢) انمط صعب ونمط مخيف، محمود أحمد شاكر، ص١٣٩- ١٤٠.

أبياتها، وجدتها في كتب أخرى،.. وقد جاءت هذه القصيدة تامة في أربعة كتب: « في كتاب التيجان لابن هشام (٢١٨هـ)، وهو أقدمهن، ثم «ديوان الحماسة «لأبي تمام (١٨٨-٢٣١هـ) بشرح المرزوقي (٤٢١هـ)، ثم في «ديوان الحماسة»، أيضًا،بشرح التبريزي (٤٢١-٥٠٢ هـ)، ثم في «كتاب العِقد» لابن عبد ربِّه الأندلسي(٢٤٦-٣٢٧هـ »[1].

وهي مقسمة سبعةَ أقسام:

القسم الأول: أربعة أبيات، ذكر الشاعرُ قتيلًا لا يُطَلُّ دمه، هو خالُه، كُتب عليه أن يستقِلَّ وحده بإدراك ثأرِه، فبيَّنَ أنه لذلك مطيقٌ، وله معدٌّ متأهِّبٌ، لا يشغله عنه شيء.

والقسم الثاني: تسعة أبيات، ذكر في البيت الأول منها وَقْعَ الخبر عليه وعلى أهله حين جاءهم نعْيُ خاله، وأنه فقد بفقده ضرْبًا من الرجال قليلَ النظير، ثم نعت أخلاقه في جميع أحواله نعتًا دقيقًا في الأبيات الثمانية الباقية.

والقسم الثالث: أربعة أبيات، وصف فيها نفسه و الفتيانَ من أصحابه، وكيف كان مسيرهم إلى حيث أدركَ مرّة ثأر خاله ماشفى نفسه، حتى انفتل بهم راجعًا إلى ديارهم.

والقسم الرابع: ثلاثة أبيات، عقّب بها على ما أدرك من ثأر خاله، وبيَّن أن هذيلا، لم تنله وحيداً، ألا بعد أن أكثر النكاية في جماعتهم مرّة بعد مرّة، وبعد أن أذلَّهم وأقضَّ مضاجعهم، وبعد أن نال منهم ما نال دهراً طويلاً.

والقسم الخامس: بيتان، هما تعقيب على ما ذكر قبله من إدراك ثأره، فوصف فيها نفسه، وأن «هذيلا» لقيت منه مثل الذي لقيت من خاله من قبل،

والقسم السادس: بيتان، بيَّن فيهما أن الخمر التى حرَّمها على نفسه قد حلَّت له، بعد إدراك ثأره، ثم سأل صاحبه «سواد بن عمر» أن يسقيَه منها ما يُنْعشه، ويكشف عنه ما لَقِيَ من الضُّرَّ بعد فقدان خاله.

(١) نمط صعب ونمط مخيف، ص١٢٤.

والقسم السابع: بيتان، سخِر فيهما من قتلى«هذيل» حيث تركهم صرعى للنسور وآب هو إلى دياره راضياً عن نفسه[1]، وهذا ترتيبها كما رتَّبها الشاعر.

(١)

إنَّ بالشِّعْبِ الَّذِي دُونَ سَلْعٍ لَقَتِيلًا، دَمُهُ مَا يُطَلُّ

قَذَفَ العِبْءُ عَلَيّ وَوَلّى، أَنَا بِالعِبْءِ لَهُ مُسْتَقِلُّ

وَوَرَاءَ الثَّأْرِ مِنِّي ابْنُ أُخْتٍ، مَصِعٌ، عُقْدَتُهُ مَا تُحَلُّ

مُطْرِقٌ يَرْشَحُ مَوْتًا، كَمَا أَطْرَقَ أَفْعَى، يَنْفُثُ السَّمَّ، صِلُّ

(٢)

٥- خَبَرٌ مَّا، نَابَنَا، مُصْمَئِلُّ ! جَلّ حَتّى دَقَّ فِيهِ الأَجَلُّ

٦- بَزَّنِي الدَّهرُ، وَكَانَ غَشُومًا، بِأَبِيِّ، جَارُهُ مَا يُذَلُّ

٧- شَامِسٌ فِي القُرِّ، حَتَّى إِذَا مَا ذَكَتِ الشِّعْرَى، فَبَرْدٌ وَظِلُّ

٨- يَابِسُ الجَنْبَيْنِ مِنْ غَيْرِ بُؤْسٍ، وَنَدِيُّ الكَفَّيْنِ، شَهْمٌ، مُدِلُّ

٩- ظَاعِنٌ بِالحَزْمِ، حَتّى إِذَا مَا حَلَّ، حَلَّ الحَزْمُ حَيْثُ يَحُلُّ

١٠- غَيْثُ مُزْنٍ، غَامِرٌ حَيْثُ يُجْدِي، وَإِذَا يَسْطُو، فَلَيْثٌ أَبِلُّ

١١- مُسْبِلٌ فِي الحَيِّ، أَحْوَى، رِفَلُّ، وَإِذَا يَعْدُو، فَسِمْعٌ أَزَلُّ

١٢- وَلَهُ طَعْمَانِ: أَرْيٌ وشَرْيٌ، وَكِلَا الطَّعْمَيْنِ قَدْ ذَاقَ كُلُّ

١٣- يَرْكَبُ الهَوْلَ وَحِيدًا، وَلَا يَصْحَبُهُ إِلَّا اليَمَانِيَ الأَفَلُّ

(١) نمط صعب ونمط مخيف، محمود أحمد شاكر، ص١٤٢،١٤١.

(٣)

١٤- وِفُتُوِّ هَجَّرُوا، ثُمّ أَسْرَوْا لَيْلَهُمْ،حَتَّى إِذَا انْجَابَ، حَلُّوا

١٥- كُلُّ مَاضٍ قَدْ تَرَدّى بِمَاضٍ، كَسَنَا البَرْقِ، إِذَا مَا يُسَلُّ

١٦- فَادّرَكْنَا الثَّأْرَ مِنْهُمْ، وَلَمّا يَنْجُ مِلْحَيّيْنِ إِلَّا الأَقَلُّ

١٧- فَاحْتَسَوْا أَنْفَاسَ نَوْمٍ، فَلَمّا هَوَّمُوا، رُعْتُهُمْ، فَاشْمَعَلُّوا

(٤)

١٨-فَلَئِنْ فَلّتْ هُذَيْلٌ شَبَاهُ، لَبِمَا كَانَ هُذَيْلاً يَفُلُّ

١٩- وَبِمَا أَبْرَكَهَا فِي مُنَاخٍ جَعْجَعٍ، يَنْقَبُ فِيهِ الأَظَلُّ

٢٠- وَبِمَا صَبَّحَهَا فِي ذُرَاهَا، مِنْهُ، بَعْدَ القَتْلِ، نَهْبٌ وشَلُّ

(٥)

٢١- صَلِيَتْ مِنّي هُذَيْلٌ بِخِرْقٍ، لَا يَمَلُّ الشَّرَ حَتَّى يَمَلُّوا

٢٢- يُنْهِلُ الصَّعْدَةَ، حَتَّى إِذَا مَا نَهِلَتْ، كَانَ لَهَا مِنْهُ عَلُّ

(٦)

٢٣- حَلّتِ الخَمْرُ، وَكَانَتْ حَرَامًا، وَبِلأْيٍ مَّا، أَلَمَّتْ تَحِلُّ

٢٤-سَقِّنِيهَا، يَا سَوَادُ بْنَ عَمْرٍو، إِنَّ جِسْمِي، بَعْدَ خَالِي،لَخَلُّ

(٧)

٢٥- تَضْحَكُ الضَّبْعُ لِقَتْلَى هُذَيْلٍ، وَتَرَى الذِّئْبَ لَهَا يَسْتَهِلُّ

٢٦- وَسِبَاعُ الطَّيْرِ تَهْفُو بِطَانًا، تَتَخَطَّاهُمْ، فَمَا تَسْتَقِلُّ

الفصل الأول

النَّص

المفهومات الخصائص الإجراءات

المبحث الأول

مفهوم النص في التراث والمعاصرة

يعد النص محورًا أساسيًا تدور حوله الدراسات اللسانية المعاصرة، حيث اتفقت تلك الدراسات على ضرورة مجاوزة الجملة بالدراسة والتحليل البلاغي إلى فضاء أوسع وأرحب هو النص.

وأضحى هذا الاتجاه إلى النص، تطويرًا وتوسيعًا لعلم لغة الجملة الذي شغل المدارس البنيوية والتوليدية التحولية لفترات طويلة.

ومما وقع عليه العلماء المنشغلون بالدراسات النصية ـ على تنوعها وتنوع مناهجها ـ أن إيجاد تعريف لـ«النص» متفقٍ عليه أمرٌ مقطوع بإمتناعه، على الأقل في الوقت الحاضر.

ثمة اختلاف شديد بين هذه الاتجاهات في تعريف النص ـ كما سنرى ـ إلى حد التناقض أحيانًا والإبهام أحيانًا أخرى، فلا يوجد تعريف معترف به من قِبَل عدد مقبول من الباحثين من اتجاهات علم لغة النص بشكل مطلق[1].

«ويجب أن يوضع في الاعتبار أن مسألة وجود تعريف جامع مانع للنص مسألة غير منطقية من جهة التصور اللغوي، ويؤكد ذلك الاختلافُ بين علماء اللغة الذين ينتمون إلى مدارس لغوية مختلفة حول حدود المصطلحات التي ترتكز على بحوثهم»[2].

وعلى الرغم من محاولات العلماء وضعَ تعريف جامع مانع لـ«النص»، ومن بعده «علم لغة النص»؛ فإن المحاولات لم تنجح النجاحَ المطلوب، وواجهات تلك المحاولات

(١) علم اللغة النصي المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد حسن بحيري، ص١٠١.
(٢) المصدر السابق، ص١٠٧.

صعوبة بالغة، و«أبرز دليل على هذه الصعوبة هو التعدد الهائل للتعريفات بهذا المصطلح «النص»، ومن بعده مصطلح «علم اللغة النصي» غير أن الاختلاف يبرز في تعريفات المصطلح الأول»[1].

فعلم اللغة النصي: «مسمى لاتجاهات وتصورات غاية في التباين، ونتيجة ذلك فإنه لايسود حول مقولاته ونظرياته الأساسية أيُّ اتفاق بين الباحثين إلا بقدر ضئيل، وأبسط مثال يضرب في هذا المقام عدم وجود قدر مشترك من ملامح التوافق حتى حول مصطلح «النص» ذاته، بل إننا نجد لدى باحث واحد بعينه، في عمل واحد بعينه، في أكثر من موضع عددًا من التعريفات، ويختلف محتوى كل تعريف عن الآخر»[2].

و«يكمن السر في عدم استقرار مفاهيم النص وعلم اللغة النصي إلى عدة أمور:

أولًا: التَّماسُّ بين علم اللغة النصي وغيره من العلوم.

ثانيًا: تعدد معايير هذا التعريف.

ثالثًا: عدم اكتمال نحويات النص»[3].

ونحاول في هذه الصفحات تتبع المعنى المعجمي للنص، وانعكاساته على الدرسات اللسانية الحالية، مع ضرورة تتبع المعنى الاصطلاحي في الدراسات الغربية والعربية الحديثة، ومحاولة الوقوف على مقاربات مفهومية بين تلك الدراسات، مما يمهد لكشف تمدد الاتجاه النصي في التراث.

---

(١) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، د. صبحي إبراهيم الفقي دار النابغة – القاهرة ط. الأولى ١٤٣٦هـ ٢٠١٥م، ص٢٢.

(٢) علم اللغة النصي المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد بحيري، ص١١٥.

(٣) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، د. صبحي إبراهيم الفقي، ص٢٤- ٢٥.

أولًا: النص لغة:

(أ) النص في المعاجم العربية:

ترجع جذور كلمة «نصص»في المعاجم العربية إلى عدة معانٍ، هذه المعاني لها انعكاساتها على المصطلح في الدراسات النصية، أهم هذه المعاني هو:

الرفع والإظهار: قال ابن منظور:(نصص) النَّصُّ رفْعُك الشيءَ، نَصَّ الحديث يَنُصُّه نصّاً رفَعَه وكل ما أُظْهِرَ فقد نُصَّ، وقال عمرو بن دينار ما رأَيت رجلاً أَنَصَّ للحديث من الزُّهْري أَي أَرْفَعَ له وأَسْنَدَ، يقال نَصَّ الحديثَ إِلى فلان أَي رفَعَه وكذلك نصَصْتُه إِليه ونَصَّت الظبيةُ جِيدَها رفَعَتْه ووُضِعَ على المِنَصَّة أَي على غاية الفَضِيحة والشهرة والظهور والمَنَصَّةُ ما تُظْهَرُ عليه العروسُ لتُرَى»[1].

أما انعكاس هذا المعنى في الدراسة النصية، فيتمثل في ارتفاع النص الذي اكتملت نصيته بتحقق معاييره النصية على غيره من النصوص، وبلوغه درجة عالية من تحقيق التواصلية،

ومن الممكن أيضًا أن نلمح تقاربًا بين المعنى المعجمي القديم، والمعنى المولد على ما ذكره واضعو المعجم الوسيط، فقد عرفوا النص بأنه «صيغة الكلام الأصلية التي وردت من المؤلف»[2]، فالنص مرفوع إلى منتجه ومسند إليه، لما لهما من علاقة تداولية متينة، ورفع الحديث إلى منشئه معروف في اللغة منذ عهدها الأول، يقول طرَفةُ بن العبد:

ونُـــصّ الحـــديـــث إلى أهـلـه فـــإن الـــوثـــيـــقـــة في نـصـه

(١) لسان العرب، لابن منظور، ط.دار الحديث- القاهرة،١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م، مادة نص.

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة ط.الرابعة ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

الحركة: قال الجوهري: «ويقال: نصنصت الشئ: حركته، وفى حديث أبى بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين دخل عليه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو ينصنص لسانه ويقول: هذا أوردني الموارد»[1].

وتتمثل انعكاسات هذا المعنى في دينامية النص وحركته، فـ«إن لغة النص لغة متفاعلة، ليست خامدة، ولا تكفُّ عن استيعاب دلالات ومضامين جديدة، وإفراز أبنية غير محدودة، تتطلب وصفًا ديناميًا يواكب تلك القدرة ولا يحدها، وبالتالي تحتاج إلى قارئ ذي كفاءة معينة قادر على القيام بعملية لا تقل قيمة عن عملية إنتاج نصوصها من خلال عمليات الوصف والتحليل والتفسير، قادرٌ على إبراز إمكانات النصوص وطاقاتها غير المحدودة»[2].

منتهى الشيء: قال الكجراتي (المتوفى: ٩٨٦هـ)، «وأصله أقصى الشيء وغايته... إذا بلغ النساء «نص» الحقاق فالعصبة أولى، أي إذا بلغت غاية البلوغ من سنها الذي يصلح أن تحاقق وتخاصم عن نفسها فعصبتها أولى من أمها»[3].

ويرتبط هذا المعنى بمعاني بلوغ النص إلى درجة الاكتمال النصي، إذا وجدت فيه المعايير السبعة، على ما ذهب إليه بوجراند وديسلر، ومن الممكن أن ينضاف إليه اكتمال الدلالة، وما يترتب عليها من اكتمال هدف التواصل بتحقق فهمه.

---

(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق، أحمد عبد المقصود عطار، دار العلم للملايين ١٩٩٠م.

(٢) علم اللغة النصي المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد حسن بحيري، ص١٦٤.

(٣) مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار، محمد طاهر الصديقي الفتني الكجراتي، مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد – الهند ١٣٨٧هـ – ١٩٦٧م.

ويعرف المعجم الوسيط النص بأنه: «صيغة الكلام الأصلية التي وردت من المؤلف (مو)[1].

«هكذا يذهب مؤلفو المعجم الوسيط ويجعلون هذا المعنى الأخير مولّداً، ولكنهم يكتفون بصيغة كلام المؤلف دون القائل، وكأنهم يلمّحون إلى الصفة الكتابية للنص، وهذا غير صحيح، فالنص كما يفهمه العرب الآن هو صيغة الكلام المنقولة حرفياً سواء أكانت نطقاً أم كتابةً، هذا ولابد من الإشارة إلى أن أقرب المصطلحات إلى (النص) عند القدماء هو مصطلح (المتن) المقابل للإسناد عند علماء مصطلح الحديث»[2].

(ب) النص في المعاجم غير العربية:

«فالنص TEXT في اللغات الأجنبية مشتق من الاستخدام الاستعاري في اللاتينية للفعل TEXTERE الذي يعني: الذي يحوك، أو ينسج.

وفي قاموس LAROUSSE الفرنسي: (النص) مجمل المصطلحات الخاصة التي نقرؤها عن كاتب وهو عكس التعليقات»[3].

ومن الواضح أن الكلمة في جذرها اللغوي تدل على التماسك والتداخل، بما تحمله كلمة النسج من تلك المعاني، ولا شك في أن النص المتماسك، هو النص الذي تترابط أجزاؤه الشكلية والمعنوية كترابط النسيجة، بحيث تُكوِّن في النهاية وحدةً، ناتجةً من تضام الوحدات الصغيرة مكونة وحدة كلية أكبر.

---

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مادة نصَّ.

(٢) مفهوم النص(من النص إلى النصم)، د. جمعان بن عبد الكريم، مقال على شبكة الإنترنت http://www.lissaniat.net/viewtopic.php?t=571.

(٣) النص الغائب، تجليات التناص في الشعر العربي، د. محمد عزام، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٠١م ص١٤.

جـ -النص في النحو التقليدي:

وعلى الرغم من معرفة النحو العربي للجمل غير المستقلة بأنواعها المختلفة، إلا أنه لم تكن هناك نظرية نصية مكتملة بمعناها المعاصر عند النحويين خصوصًا، وبصفة عامة مطَّردة، وإن بدتْ معالمها عند البلاغيين والمفسرين.

ولا يعني ذلك غيابَ الفكرة النصية جملةً من النحو العربي، فما من شك في أن النحويين حين كانوا يتناولون الجملة بالتحليل - باعتبارها أكبر وحدة لغوية -كانوا يرون هذه الوحدات المتمثلة في الجمل، تترابط وتتجمع لتؤديَ أهدافًا ناتجة من هذا الالتئام والترابط بينها.

كما أن تناول الجمل مستقلة عن سياقها في الدرس النحوي كان نسبيًّا إلى حد ما، و«الاستقلال النسبي ربما يكون لمنطق الدراسة فقط؛ فهو إذن حكم مؤقت، لأن الجملة جزء من النسيج العام في بنية النص الكلية، ومن هنا يمكن تقسيم الجملة إلى نوعين:

١-جملة نظام: وهو شكل الجملة المجرد الذي يتولد عنه جميع أشكال الجمل الممكنة، وهو ما اتكأ عليه النحاة التوليديون التحويليون، وهذا التناول يعطي للجملة معنى استقلاليًا بعيدًا عن السياق.

٢-جملة نصية: وهي جملة تتسم بالتواصل مع جملة أخرى، حيث يحتويها نص ما، أو هي المنجزة فعلا في مقام، ولها مدلول داخل السياق نتيجة ملابسات لا يكمن حصرها، يترتب على هذه الملابسات الفهم والإفهام، وهذا النوع من الجمل لا يُفهم إلا بإدماجه نظامَ الجمل، فيعطي دلالته من الاتساق والانسجام»[1].

---

(١) انظر: (أ) نسيج النص بحث في ما يكون به الملفوظ نصًّا، الأزهر الزنَّاد، المركز الثقافي العربي ـ بيروت. ط.الأولى ١٩٩٣م، ص١٢. =

تعريفات النص في الدراسات الغربية والعربية:

ونحاول في هذه الصفحات أن نطوِّفَ ببعض المفهومات الـواردة للنص في الدراسات الغربية والعربية؛ بُغيةَ استكشاف منطلقاتها ومرتكزاتها الفكرية، وانعكاستها على عمليات التحليل.

بالإضافة إلى أن تتبع تعريفات النص عند اللسانيين العرب وغير العرب، يساعد على معرفة مدى تقارب الفكر العربي والغربي في رؤيته للنص، ومعرفة الأرضية المشتركة ونقاط التلاقي في النظرِ لنصيَّةِ النصوص، و مدى ما تليقيه هذه الرؤى من استراجيات في عمليات الإنتاج والتحليل.

يرى د.صبحي الفقي قبل الدخول في المفهوم الاصطلاحي أنه ينبغي التنبه إلى أن التعريفاتِ الواردةَ لا تخرج عن أحد المعايير التالية:

- كون النص منطوقًا أو مكتوبًا أو كليهما.
- مراعاة الجانب الدلالي.
- مراعاة التحديد الحجمي (طول النصي).
- مراعاة الجانب التداولي.
- مراعاة جانب السياق، وهو متعلق بالمعيار السابق.
- مراعاة جانب التماسك، وهو أهم المعايير التي يقوم عليها التحليل النصي.
- مراعاة الجانب الوظيفي للنص.
- مراعاة التواصل بين المنتج والمتلقي.

= (ب) نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، د.أحمد عفيفي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة. ط.الأولى ٢٠٠١م.

(جـ) دينامية النص تنظير وانجاز، د.محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، ص٣١.

-الربط بينه وبين مفاهيم تحويلية، مثل الكفاءة والأداء،..وغيرها[1].

فهذه أكثر الخلفيات المعرفية تأثيرًا في وضع تعريفات مقاربة للنص، لاستجلائها ورسم حدود تميزه عن المنتوجات اللغوية التي لا تتسم بالنصية.

«وبازدحام هذه المعاني وتشابكها كان من الضروري أن ننطلق من عمق التراث للبحث عن حدود هذا النسق اللغوي، بخاصة وأن هذا المصطلح سجَّل حضورًا مركزيًّا في الذخيرة اللغوية العربية والمعرفية أيضًا،..وربما هذا هو السبب الذي يجعلنا نقر مطمئنين أن الحضارة العربية نصية في مبدئها»[2].

أولًا: النص في الدراسات الغربية:

تعرض علماء نصيِّون غربيون، لتعريف النص، فتنوعت تعريفاتهم النابعة من اختلاف زاوية التصور، لتنوع الاتجاه الثقافي والعلمي الذي ينتمون إليه، فمن هذه التعريفات ما يلي:

١- حدد هارتمان النص بأنه: «أي قطعة ما ذات دلالة وذات وظيفة، وبالتالي هي قطعة مثمرة من الكلام».

ويحلل الدكتور سعيد بحيري هذا التعريف فيرى أنه: «قد فصل بعد ذلك كيفية التعامل مع النصوص في إطار هذا العلم؛ إذ إنه يذهب إلى أن علم الدلالة له دور جوهري فيه، و له وظيفة محورية، وتظهر هنا تصورات علم الدلالة ونظرياته توجهًا محدداوصريحًا إلى السياق،..ويرى أنه عند معالجة النص ينبغي تحليل الأسس الحاملة

(١) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، د. صبحي إبراهيم الفقي، ص٢٦، ٢٧.

(٢) المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب – دراسة معجمية، د.نعمان بوقرة، عالم الكتب الحديث، جدار للكتاب العالمي، ط. الأولى ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٩م، ص١١.

للمعلومات وتأثيراتها الداخلية، أي داخل النص، والانتقال من مضامينَ خارجَ النص، غير نصية إلى معلومات الأساس (يعني قضايا الموقف والسياق)،..بإيجاز يجب البحث عما جعل نصًا ما نصًا، أي وسائل بناء النص»[١].

٢- ويذهب برينكر إلى أن النص «تتابع مترابط من الجمل»، يعلق «شبلنر» على هذا التعريف بأنه دائري بمعنى أنه يوضح النص بالجملة من خلال النص، وأنه غير منهجي من الناحية العلمية لغموض الرمز والعلاقات التي يتضمنها واتساع الوصف..

يرى د. سعيد بحيري أن المهم أنه: «تتابع، وأن الجملة جزء منه، أي أن بنية النص بنية معقَّدة متشابكة، وأن ثمة علاقة بين الجزء (الجملة) والكل (النص) من خلال رمز الأول إلى الثاني»[٢].

وهذه حقيقة ماثلة في التحليل النصي تؤكد أن الجملة «جزء أصيل من الدرس اللغوي، ولاغنى عنها للباحث، كما أنها تشكل ركيزة من ركائز البناء النصي، ولكنها غير مستقلة بذاتها بل ترتبط بما جاورها من عناصرَ بنائية متعددة»[٣].

٣- يستعمل العالم اللساني(هيلمسليف) مصطلح «النص» بمعنى واسع؛ فيطلقه على أي ملفوظ؛ منفَّذ؛ قديما أو حديثا؛ مكتوبا أو محكيا؛ طويلا أو قصيرا، فكلمة: قِفْ؛ مثلا؛ هي في نظر هيلمسليف نص كامل، كما أنّ جماع المادة اللغوية لرواية بكاملها هي أيضا نص كامل»[٤].

(١) علم اللغة النصي المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد بحيري، ص ١٠٢.
(٢) المصدر نفسه، ص١٠٣.
(٣) علم اللغة النصي، رسائل الجاحظ نموذجًا، د. رانيا فوزي عيسى، ص٢١.
(٤) النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق، عدنان بن ذريل، اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٠، ص ١٥.

ونستطيع أن نلمح العمومية التي أطلقها هيلمسليف للمنطوقات مهما كان حجمها، أو كمها، أو صورتها الصوتية أو المكتوبة، أو حداثتها أو قِدمها، مادامت تحمل دلالة كاملة تستطيع أن تؤديها إلى المستقبِل، وهذا ما سنراه يتعارض مع تعريف طه عبد الرحمن للنص؛ حيث اشترط تكوِّنَه من جمل مرتبطة بعلاقات ما، ضمن نطاق النص.

وتجدر الإشارة إلى أن الاعتماد على الدلالة في عدِّ نصٍّ ما نصًا، دون النظر إلى حجمه وما اشتمل عليه من جمل – كما فعل هيلمسيف – يلتقي بما اعتمده الأصوليون في تعريفهم النصَّ.

فقد عرفوا النص بأنه «اللفظ الدال على معنى واحد بحيث لا يسوغ فيه احتمال غيره البتة كقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ (النساء:١٢)[١].

وقيل: «والنص في اصطلاح الفقهاء والأُصوليين هو الصرِيح في معناه، والصريح: الخالص من كل شيء، ومعنى كَوْن النص هو: «الصرِيح في معناه»: كونه خالصَ الدلالة عليه، لا يشوبه احتمال دلالة على غيره،وقيل: هو «ما أفاد بنفسه من غير احتمال»[٢].

وهذا يعنى أنه قد بلغ من الوضوح والبيان درجة ترفعه عن سائر النصوص، فهو مغلق الدلالة؛فلا يعتريه شك في دلالته، ولا تطاله يد التأويل، ولا ترجح غيره عليه.

(١) تقويم النظر في مسائل خلافية ذائعة، ونبذ مذهبية نافعة، أبو شجاع محمد بن علي بن شعيب بن الدهان، تحقيق د. ناصر بن ناصر الحزيم، مكتبة الرشد،السعودية، ط. أولى، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.

(٢) شرح مختصر الروضة، سليمان بن عبد القوي بن الكريم الطوفي، وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد، السعودية، ط الثانية ١٤١٩هـ– ١٩٩٨م، الجزء الأول، ص٥٥٤.

وهذه التعريفات وغيرها-كما رأينا- يدور مدارها على الكلام الذي يحمل معنًى قطعيًّا، لا يتطرق إليه الاحتمال، أي على وضوح الدلالة، وكذلك فرقوا بين النص والظاهر والمؤول والمجمل بنسبة ما تحمله من دلالة[1].

غير أن استعمال لفظة (نص) بمعنى أحادي الدلالة، أو ما لا يحتمل إلا وجهًا واحدًا من وجوه المعاني قد تغيرت دلالته واتسعت، فأصبح لفظ (نص) يطلق على النصوص ذات الطابع الإلزامي، سواء أكانت دينية أم قانونية، فكثيرًا ما نسمع النص الديني- بغض النظر كونه لا يحتمل إلا معنى واحدًا - ونص القانون، واللائحة تنص على كذا، مع تطرق الاحتمال إلى كثير من تلك النصوص.

---

(١) **النص**: ما لا يحتمل إلا معنًى واحدًا، أو ما يفيد بنفسه من غير احتمال.
مثاله: قوله تعالى: «لك عشرة كاملة»،
الظاهر: ما احتمل معنيين فأكثر، هو في أحدهما أو أحدها أرجح، أو ما تبادر عند الإطلاق معنى مع تجويز غيره.
مثاله: «الأسد» فإنه ظاهر في الحيوان المفترس، ويبعد أن يراد به الرجل الشجاع مع احتمال اللفظ له.
المؤول: للتأويل ثلاثة معانٍ:
الأول: الحقيقة التي يؤول إليها الأمر.
الثاني: التفسير والبيان، كقول بعض المفسرين: «القول في تأويل قول الله تعالى».
الثالث: وهو المشهور عند الأصوليين، فهو: صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح بدليل على ذلك.
ومثال النوع الثالث: تأويل قوله تعالى: «إذا قمتم إلى الصلاة» أي: إذا أردتم القيام، وهذا يسمى بالتأويل الصحيح والقريب.
المجمل: هو ما احتمل معنيين أو أكثر من غير ترجُّح لواحد منهما أو منها على غيره.
مثاله: القَرْء إذ هو متردد بين الحيض والطهر.
(معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة، محمد بن حسين بن بن حسن الجيزاني، دار ابن الجوزي، السعودية، ط.الثامنة ١٤٣٠هـ، ص٣٨٤: ٣٨٨ بتصرف).

٤- يرى رولان بارت أن النص: «هو جسم مدرك بالحاسة البصرية، وهو يرتبط بالكتابة، أي برسم الحروف»[١].

ينطلق رولان بارت من فلسفة ترى التلذذ بالأجسام النصية، ومعنى ذلك أنه لا ضامن لبقاء تلك اللذة المتولدة من قراءة تلك النصوص إلا الكتابة، فبوجودها تبقى النصوص، وما يترتب على قراءتها من لذة،فالكتابة هي الضمانة لتلك الحالة الشعورية،

وفي الحقيقة هناك نصوص تبعث تلك الحالة الشعورية في النفس، وليست مقرؤة - سواء أكانت قديمة أم مستحدثة - يتناقلها الناس دون أن تكون مدونة.

ثم إنه ليس شرطًا في النص أن يكون باعثًا للذة، فقد يكون على عكس ذلك، باعثًا للخوف أو الحزن أو الاشمئزاز.

بالإضافة إلى أن التعريف يكتنفه إطلاق وتقييد، كلاهما قد يجد نوعًا من التحفظ، أما الإطلاق فيتمثل في عدم تحديده لحجم النص، مادام أن له صورة مرئية، وأما القيد فيتمثل في اعتداده بالمظهر الكتابي فقط، مهملًا للنصوص الملفوظة أو المسموعة.

٥- ويعرف شميث النص: «بأنه جزء حدد موضوعيًا (محوريًا) من خلال حدث اتصالي ذي وظيفة اتصالية (إنجازية).

وعلى ذلك فالنص منطوق لغوي، يرتكز على عملية اتصال في الأساس، وعلاقة بين المرسل والمستقبل، ويدور حول موضوع وهدف واحد.

يقول د. بحيري:«وهو بذلك يشترط وحدة الموضوع الذي يدور حوله النص، ووحدة مقصده؛ إذ إنه قد تشكل لأداء هدف بعينه»[٢].

---

(١) لذة النص، روان بارت، ترجمة منذرعياشي، مركز الإنماء الحضاري، ط.أولى ١٩٩٢م، ص١٠، ١١.
(٢) علم اللغة النصي المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد حسن بحيري، ص ١٠٨.

وهذا ما يجعلنا نتساءل، هل يتعارض التنوع الموضوعي في نص ما مع تماسكه، أو أن الوحدة الموضوعية ضامنة لنصية النص بصورة أكبر؟

إن التنوع الموضوعي لا يعد قادحًا في النص؛ إذ النص بناء قد يكون مشتملًا على عدة أهدافٍ يريد تحقيقها، وهذا التنوع في الأهداف، قد يظهر في صورة تنوع موضوعي، إذ يعدُّ كل هدف موضعًا مستقلًا بذاته،ويبقى الشعور بتماسك النص ذي الأهداف المتعددة أو التنوع الموضوعي للقارئ المتلقي؛ فهو يستطيع - بمعايير ثقافية معينة- اكتشاف الانسجام أو التنافر بين وحدة ذلك النص.

وأكبر دليل على ذلك أن السورة الواحدة من القرآن قد كانت تعالج موضوعات متعددة، في العقيدة والأخلاق والمعاملات والأحكام، ومع ذلك لم تكن مفتقرة إلى التماسك والانسجام، بل على العكس فقد بلغت أقصى ما يكمن الوصول إليه من الانسجام والترابط الشكلي والمعنوي.

وليس بالوُسع أن ننكر أن وحدة الموضوع قد تزيد من تماسك النص وترابطه، أما أن يعدَّ ذلك شرطًا مشروطًا، فليس الأمر كذلك.

٦- عرفت جوليا كريستفيا النص: بأنه «جهاز عبر لساني يعيد توزيع نظام اللسان بواسطة الربط بين كلام تواصلي يهدف إلى الإخبار المباشر وبين أنماط عديدة من الملفوظات السابقة عليه، والمتزامنة معه، فالنص إذن إنتاجية، وهو ما يعني:

(أ) أن علاقته باللسان الذي يتموقع داخله هي علاقة إعادة توزيع(صادمة بنَّاءة) ولذلك فهو قابل للتناول عبر المقولات المنطقية، لا عبر المقولات اللسانية الخالصة.

(ب) أنه ترحال للنصوص وتداخل نصي، ففي فضاء نص معين تتقاطع وتتنافى ملفوظات عديدة مقتطعة من نصوص أخرى»[1].

وظاهرٌ اعتماد جوليا كريستفيا على أحد المعايير النصية لدى بوجراند، وانطلاقها منه، وهو معيار التناص، الذي يعني تعالق النص بنصوص أخرى سابقة عليه أو متزامنة معه، بحيث يعد تشكُّلًا جديدًا لنص أو لنصوص سابقة.

وبالإضافة إلى ذلك فقد اهتم التعريف بالعلاقات المتداخلة، والخصائص المتشابكة لتكوِّنِ النص، كما رفض النظر إلى ظاهر النص فقط.

ثانيًا: النص في الدراسات العربية:

شغل تعريف النص علماء النص العرب، فحاولوا صياغة تعريفات تكشف عن تصوراته وأبعاده المعرفية، وسنحاول تتبع بعض هذه التعريفات، بشيء من الموازنة والاستنطاق، محاولين الوقوف على الرؤى النصية العربية.

١ - يعرف طه عبد الرحمن النص بأنه: «كل بناء يتركب من عدد من الجمل السليمة مرتبطة فيما بينها بعدد من العلاقات»[2].

ولا يخفى أن الجملة محور ارتكاز التعريف، فبدون تواجد متكاثر ومتتابع لها، تربطه علاقات جامعة بينها لا يعد إنتاجٌ لغويٌّ ما نصا، ولا يخفى أن اشتراط سلامة الجمل يكتنفه قدر من الغموض، فلا يُدرى ما المقصود بالسلامة، أهي سلامة الألفاظ أو سلامة التركيب.

---

(١) **جوليا كريستيفا**: علم النص، ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال، الدار البيضاء، الطبعة الأولى،١٩٩١م، ص ٢١.

(٢) في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط. الثانية ٢٠٠٠م، ص٣٥ .

وتطبيق هذا التعريف يهدر كثيرًا من النصوص المكتملة في نصيتها، لكنها مفتقرة إلى التتابع الجملي ذي العلاقة الرابطة؛ لذلك ارتأ عبد الملك مرتاض أنه «لا ينبغي أن يُحَدَّد بمفهوم الجملة، ولا بمفهوم الفقرة التي هي وحدة كبرى لمجموعة من الجمل، فقد يتصادف أن تكون جملة واحدة من الكلام نصا قائما بذاته مستقلا بنفسه، وذلك ممكن الحدوث في التقاليد الأدبية كالأمثال الشعبية والألغاز والحكم السائرة والأحاديث النبوية التي تجري مجرى الأحكام وهلم جرا»[1].

٢- يعرف د.سعد مصلوح النص بأنه: «سلسلة من الجمل كل منها يفيد السامع فائدة يحسن السكوت عليها، وهو مجرد حاصل جمع جمل أو لنماذج الجمل، الداخلة في تشكيلته»[2].

وما قيل في تعريف طه عبد الرحمن، من الممكن أن يقال-أو كثير منه- في تعريف د.سعد المصلوح؛ إذ يرتكز على الحشد الجملي للنص في التعريف!!

وقد يكون النص جملة واحدة، كما أنه ينطوي على قدر من الدائرية؛ إذ يعرف النص بالتتابع الجملي، والتتابع الجملي بالنص.

ويعلق د. أحمد عفيفي على تعريف د.مصلوح قائلًا:«فقد فقدت الجمل داخل -هذا التعريف - خاصية الاتصال أو خاصية ارتباطها بسياق خطابي...وتلك الفائدة للجملة التي يحسن السكوت عليها -كما أشار الدكتور مصلوح - إنما في نحو الجملة؛ لأن النص -كما يقول فاينرش-، وحدة كلية مترابطة الأجزاء، فالجمل يتبع بعضها

(١) في نظرية النص الأدب، عبد المالك مرتاض، مجلة المجاهد، عدد ١٤٢٤، ص٥٧.
(٢) من نحو الجملة إلى نحو النص، د.سعد المصلوح، ص٤٠٧.

بعضًا وفقا لنظام سديد، بحيث تسهم كل جملة في فهم الجملة التي تليها فهما معقولًا، كما تسهم الجملة التالية من ناحية أخرى في فهم الجمل السابقة عليها فهما أفضل»[1].

٣- يذهب د. الزنَّاد إلى أن النص: «نسيج من الكلمات يترابط بعضها ببعض، وهذه الخيوط تجمع عناصره المختلفة والمتباعدة في كلٍّ واحدٍ هو ما نطلق عليه مصطلح النص»[2].

ونستطيع أن نلمح تأخرًا في تعريف النص إلى الكلمات التي تتكون منها الجمل، بمعنى أنه يقترب في تعريفه للنص من تعريف الجملة؛ فقد عُرِّفت الجملة بأنها « سلسلة من المفردات النحوية المختارة تُضمُّ في وحدة»[3].

فلا نستطيع أن نجد فرقًا بين المفردات والكلمات، لكن التعريف يَشترط تماسك النص، وارتباطه وانصهاره في كلٍّ واحد، مكونًا وحدة نصية، والذي عبرت عنه كلمات (النسيج، الترابط، الكل الواحد)، لكن الذي يبدو أيضًا أنه لم يشترط كونَ الكلمات مكتوبةً، فالظاهر أن كل ملفوظ يمكن أن يكون نصًّا سواء كُتِبَ أم لا، ويؤيد ذلك عنوان كتابه «نسيج النص بحثٌ في ما يكون به الملفوظ نصًّا».

---

(١) نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، د.أحمد عفيفي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط.الأولى ٢٠٠١م، ص٢٤.

(٢) نسيج النص بحث في ما يكون به الملفوظ نصًّا، الأزهر الزنَّاد، المركز الثقافي العربي-بيروت ط.الأولى ١٩٩٣م، ص ١٢.

(٣) نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية، د. مصطفى حميدة، مكتبة لونجمان، القاهرة ط،١٩٩٧م. ص ١٤٨.

٤- عرَّف الدكتور أحمد عفيفي قائلًا:«ينبغي أن يكون المفهوم الأساسي لأي نص أنه وسيلة لنقل الأفكار والمفاهيم إلى الآخرين، فهو ينقل شيئًا ما إلى المخاطب، وهو ليس هدفًا في حد ذاته، إنما هو طريق للخطاب»[١].

ينطلق د. عفيفي من منطلق تواصلي في تعريف النص، معتمدًا على أن اللغة وسيلة للتواصل ونقل الأفكار والتعبير عن المعاني المختلفة، وهي تعريف ينظر إلى غاية النص وهدفه فقط، مع إغفال النظر إلى كنهه، وشكله وحجمه.

٥-حاول د.جمعان عبدالكريم أن يعرف النص تعريفًا تنصهر فيه تعريفات النص السابقة؛ ليشتمل على أكبر قدر من الحدود الجامعة المانعة، الضامنة لتميُّز تصوره تميزًا صحيحًا - فعرَّفه بأنه: «وحدة كلامية مكونة من جملتين فأكثر تحقيقاً، أو تحقيقاً وتقديرًا، منطوقة أو مكتوبة، لها بداية ونهاية، تتحدد بها وتتداخل مع منتجها ولغتها في علاقة عضوية ثابتة، وهي تتجه إلى مخاطب معين أو مُفترَض، ويمكن أن تصاحب تلك الوحدة الكلامية بعض الإشارات السيمائية غير اللغوية التي قد تؤثر فيها»[٢].

وهذا التعريف من وجهة نظره يتوافق مع الفهم اللغوي (للنص) في العربية المعاصرة، وينسجم مع كل الاتجاهات الحديثة في التحليل النصي، إضافة إلى أنه يعطي كلَّ لغة نوعًا من الخصوصية في بنيان نصوصها، فالنص الإنجليزي -على سبيل المثال- لا يمكن أن يكون كالنص العربي مهما حاولت الترجمة التقريب بينهما؛ فلا يمكن المقاربة بين نصين مترجمين من لغتين مختلفتين إلا بإضافة حواشٍ وتعليقات إضافية؛ لأن النص

(١) نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، د.أحمد عفيفي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط.الأولى ٢٠٠١م، ص٢٠.

(٢) إشكاليات النص دراسة نصية، د.جمعان بن عبد الكريم،المركز الثقافي العربي، ط.الأولى ٢٠٠٩، ص٣٢.

علاوة على اختصاصه بروابط خاصة في كل لغة، فإنه يحمل رصيدًا ثقافيا مقصورًا على ناطقيه الأصليين، ثُمَّ إن علاقة النص بمنتجه علاقة عضوية تداولية، ولكل منتج للنص روابطه الخاصة به في نصه، وطريقته التي يمكن كشفها من خلال نصوصه الأخرى؛ فنص فلان من الناس يختلف عن نص آخر.

إضافة إلى إنه يمكن إدخال بعض الإشارات غير اللغوية المصاحبة للنص اللغوي في ضوء تأكيد العلاقة بين النص ومنتجه؛ إذ لا يخلو نص شفاهي -في الغالب- من مثل تلك الإشارات، ثُمَّ إنه لابد من أخذ متلقي النص في الاعتبار؛ فالنصوص تتأثر به، وتختلف باختلاف المخاطبين، فقد يؤدي وجود مخاطبين بصفة ما إلى إيجاد نصوص معينة بِسِمةٍ ما تناسب أحوال تلقيهم للنص[1].

«إذًا شغل تحديد النص مساحة واسعة من عناية اللسانيين، وعلى الرغم من التباين في مذاهبهم الفكرية التي ينطلقون منها، إلا أن هناك قاسمًا مشتركًا بين كل هذه التعريفات، وهو التأكيد على خاصية ترابط النص وضرورة النظر إليه على أنه وحدة لغوية مترابطة الأجزاء -شكلًا وضمونًا -وليس سلسلة من الجمل فقط»[2].

النص في علم لغة النص القائم على أساس النظام اللغوي و علم لغة النص الموجه على أساس نظرية التواصل.

ويمثل هذا الاتجاه علم اللغة البنيوي، والنحو التوليدي التحويلي « وفي داخل هذه الاتجاهات اللغوية التي لم تحدد معالمها هنا إلا بوجه عام للغاية، تعدُّ الجملة لعقود طويلة أعلى وحدة محورية لغوية.

(١) النص الأدبي طبيعته ووظيفته وطرق قراءته، د.صلاح منصور خاطر، ١٤٣٢هـ ،٢٠١١م، رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٢٠٩٠٢-٢٠٠٩، ص١٤،١٣.

(٢) السبك النصي في القرآن الكريم دراسة تطبيقية في سورة الأنعام، رسالة ماجستير، الجامعة المستنصرية – كلية الآداب – العراق، الطالب: أحمد حسين حيال ١٤٣٣هـ – ٢٠١١، ص ٢٦.

ولا يركز علم اللغة البنيوي تقريبا إلا على تحليل بنية الجملة ووصفها، ولاسيما على تجزئ وحدات لغوية وتصنيفها داخل مستوى الجملة (وهي أركان الجملة، والموريفمات والفوينيمات)، ويحدد علم اللغة التحويلي التوليدي موضوعه بأنه قدرة المتكلم المختص للغة ما على بناء عدد كبير غير محدد من الجمل وفهمه، ويفترض في ذلك الشكل ذاته لنظام قاعدي، أنه ينبغي أن «يُولِّد» كمًّا لا نهائيًا من جمل لغة ما»[1].

ومع نشوء علم اللغة النصي في الستينات تحوَّل النظرُ من الجملة إلى النص باعتباره الوحدة الكبرى التي يجب أن يتجه إليها التحليل اللغوي، لكنه ظلَّ يستند إلى حدٍّ بعيد إلى «تحديدات علم لغة الجملة ذات الأصل البنيوي أو التوليدي التحويلي، ويعبر عن هذا الترابط بوضوح خصوصًا في مفهوم النص، فيعرف «النص»، بأنه تتابع متماسك من الجمل، غير أن هذا يعني أن الجملة كما كانت الحال من قبل ينظر إليها على أنها «مَعْلَمَ رئيسي» في تدرج وحدات لغوية، أي تُعدُّ وحدةَ بناءِ النص»[2].

وفي هذا التعريف نرى حضور الجملة كأساس، تترابط فيما بينها بعلاقات نحوية دلالية، أو عناصر لغوية، وفي الحقيقة قد كان يؤخذ على هذا الاتجاه أنه لم يهتمَّ بالجانب التواصلي للنص.

وفي مطلع السبعينيات نشأ علم اللغة النصي الموجه على نظرية التواصل، فعاب على الاتجاه الأول أنه: «يعالج النصوص بوصفها موضوعات مستقلة ثابتة، ولا يراعي بشكل كافٍ أن النصوص متضمَّنة دائمًا في سياق التواصل، وأنها توجد دائما في سياق

(١) التحليل اللغوي للنص مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج، كلاوس برينكر، ترجمة وتعليق د. سعيد حسن بحيري، ص ٢٩.
(٢) المصدر نفسه، ص٣١.

التواصل، وأنها توجد دائمًا في عملية تواصل معينة، يمثل فيها المتكلم والسامع أو المؤلف والقارئ بشروطهم وعلاقتهم الاجتماعية والموقفية أهم العوامل»[١].

وقد ارتكز هذا الاتجاه على نظرية الفعل الكلامي، واتجه إلى وصف عملية التواصل وأركانها، والعوامل المؤثرة فيها.

«وفي إطار منظور برجماتي (خاص بنظرية الفعل الكلامي لم يعد يظهر النص على أنه تتابع جملي مترابط نحويًّا، بل على أنه فعل لغوي (معقَّد)«Sprachliche Handlung»، يحاول المتكلم أو الكاتب به أن ينشئ علاقة تواصلية معينة مع السامع أو القارئ»[٢].

ويرى برينكر أن التصورين متكاملان، وأنهم يتصلان اتصالًا وثيقًا، وأن عملية التحليل النصي يجب أن تكون قائمة على الاتجاهين البحثيين.

وعلى ذلك فالنص وحدة لغوية أساسها الجملة، وتواصلية براجماتية، تحاول أن تصف وتشرح شروط الفهم اللغوي الاجتماعي بين شركاء التواصل «ويطابق التعريف الآتي للنص ذلك الشرط: يَسِمُ المصطلح «النص» تتابعًا محدودًا من علامات لغوية متماسكة في ذاتها، وتشير بوصفها كلًّا إلى وظيفة تواصلية مدركة»[٣].

وإذا كان النص تتابعا جمليًّا مترابطًا شكلا ومضمونا، فإن الوظيفة التواصلية للنص هي التي تحافظ على ذلك التتابع في الموقف التواصلي.

---

(١) التحليل اللغوي للنص مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج، كلاوس برينكر، ترجمة وتعليق د. سعيد حسن بحيري، ص٣١.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٢.

(٣) التحليل اللغوي للنص مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج، كلاوس برينكر، ترجمة وتعليق د. سعيد حسن بحيري، ص٣٤.

«وفي ضوء ما تقدم نلحظ أن تعريفات النص لا تكاد تخرج عن مراعاة جوانب محددة، كالجانب الدلالي أو التداولي أو السياقي أو الوظيفي أو مراعاة التواصل بين المنتج والمتلقي، أو مراعاة التماسك بوصفه أهم المعايير النصية،أو مراعاة كون النص منطوقًا أو مكتوبًا، أو مراعاة التحديد المعجمي (طول النص)؛ إذ تشكل هذه المعايير كلُّها سماتٍ للنص الكامل، وإذا اختلت سمة من هذه السمات يمكن أن نطلق عليه نصًّا ناقصًا»[1].

كما نلاحظ أن تنوع التعريفات كما أنه ناتج عن الاختلافات في الاتجاه البحثي أو المناهج أو الخلفيات المعرفية، فإنه راجع كذلك إلى التداخل المعرفي الذي يتميز به علم اللغة النصي؛حيث أنه يستمد مبادئَ وإجراءاتٍ من حقول علمية متنوعة، وهذه الحقول المعرفية لا تزال تكتسب مساحاتٍ علمية كل يوم، وتدخل في ضمن تخصصها، وتقدم تصوراتٍ جديدةً للظواهر المختلفة، والتي منها اللغاتُ وآلياتها ووظائفها المتنوعة، وفي الحقيقة فإن هذه الخاصية باب مفتوح لمزيد من التعريفات للنص وتزداد تلك القضية وضوحًا، باستمرار عمليةِ الاستمداد التي يمارسها علم الغة النصي من روافدَ أخرى؛ فبما أنه باستمرار يستقي من علوم ومعارف جديدة، فهذا –بلا شك – سينتج لنا تعريفاتٍ كثيرة على مرور الزمان.

ويضيف د. منذر عياشي مبينًا صعوبةً أخرى في تحديد النص، هذه الصعوبة ترجع إلى ذاتية النص،فالنص: «دائم الأنتاج لأنه مستحدث، ودائم التخلق؛ لأنه دائمًا في شأن، ظهورًا وبيانًا، ويستمر في الصيرورة؛ لأنه متحرك وقابل لكل زمان ومكان؛ لأن فاعليته

(١) في مفهوم النص ومعايير نصية القرآن دراسة نظرية، أ.د بشرى حمدي البستاني، د. وسن عبد الغني المختار، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية –جامعة الموصل – المجلد ١١العدد ١.

متولدة من ذاتيته النصية، وهو إذا كان كذلك فإن وضع تعريف له يلغي الصيرورة فيه، ويعطل في النهاية فاعليته النصية»[1].

ولا الشك أن النص من حيث أنواعُه يتخذ أشكالًا متعددة، فهناك النص العسكري، وهناك النص الاقتصادي، وهناك النص التعليمي،.وهلم جرًا.

لكنَّ الذي يهمنا في الاتجاه البحثي هو نوع خاصٌّ من النصوص، ألا وهو النص الأدبي؛ ذلك أن النص الأدبي يعتبر فيه الجانب الإبداعي والخلق الفني، مما يحقق التواصلية في صورتها الجمالية، بالإضافة إلى أن موضوع الأطروحة هو نص أدبي،وهو القصيدة الجاهلية.

عرف د. محمد عزام النص الأدبي بأنه:«وحدات لغوية، ذات وظيفة تواصلية، تحكمها مبادئ أدبية، وتنتجها ذات فردية أو جماعية»[2].

وفي تفصيله لجزئيات التعريف يقول:

١- (الوحدات اللغوية) تُشكِّل متتاليةً من الجمل، تربط بينها علاقات، والجمل ليست إلا الوسيلة التي يتحقق بها النص الذي هو وحدة دلالية.

٢- (الوظيفة التواصلية) قد تكون إخبارًا مباشرًا، فلا حاجة عند ذلك بالمحسنات البديعية أو البيانية في الكلام الأدبي. أمَّا إذا كانت الوظيفة التواصلية أدبيةً فعند ذلك لابد من تفكيك الصور المجازية البلاغية من أجل الوصول إلى المعنى الباطن.

---

(١) النص ممارسته وتجلياته، د. منذر عياشي، مجلة الفكر العربي المعاصر،العدد ٩٦، ٩٧، ص٥٥.

(٢) النص الغائب، تجليات التناص في الشعر العربي، د. محمد عزام، اتحاد الكتاب العرب،دمشق ٢٠٠١م، ص٢٦.

٣- (الوظيفة الدلالية) هي أن النص (دليل) يستوعب (دالًا) و(مدلولًا)، ومن خلالهما يتضمن النص بنياتِه النصية: الصرفية، والنحوية،..إلخ، وكلها ينبغي وصفها وتحليلها في تعالقها بباقي البنيات.

٤- (تحكمها مبادئ أدبية) من مثل: الانسجام، والتماسك، والإخبار، وهذه المبادئ هي تعطي النص (أدبيته)، فانسجام النص هو التماسك الشديد بين الأجزاء المشكِّلة للنص، وهو نتيجة للعناصر اللغوية التي تصل بين أجزاء النص، والمتمثلة في الضمائر، وأسماء الإشارة، والأسماء الموصولة، وأسماء الشرط، ووسائل الربط كالعطف والجر،..إلخ.

ولسانيات النص هي التي تدرس النص وهو بنية مجردة، يتولد عنها جميع ما في النص، وذلك برصد العناصر القارَّة في النصوص وروابطها المختلفة.

٥- (تنتجها): العلاقاتُ بين هذه البنيات النصية، هي علاقات تفاعل وصراع، أي علاقات إنتاجية، كما أن تحقق البنيات يتم من خلال أفعال إنتاجية تقوم بها الذات إزاء الذات، وإزاء الموضوع، ومعنى الذات والموضوع هنا يأحذ بعد البنية المنتجة والمنتجة في صيرورة متواصلة.

ومن خلال تضافر عنصري: البنيوي، والإنتاجي، نجدنا أمام النص ودينمايته وتفاعله مع نصوص أخرى، وبنيات أخرى.

٦- (ذات فردية أو جماعية)، وهذه الذات هي: ذات المبدع،وذات الجماعة التي رسَّخت في ضميره قِيَمها، وذات القارئ الذي يعيد بناء النص في ذهنه، هكذا يمكن أن تتابع على إنتاج النص الواحد، ثلاث ذوات منتجة، لكلٍ منها (نصها) الخاص بها.

وإذا كانت ذات الكاتب الفردية تنتهي عمليةُ إنتاجها الدلالية بانتهاء الكتابة، فإن الذات القارئة غير محددة بزمان، وعملية إنتاجها تبدأ من النص لتضيف إليه من عندها خلفية ثقافية واجتماعية، تمَّ تشكيلها من خلال التفاعل من خلال نصوص سابقة، وفي مراحل متعددة.

وهذه الخلفية النصية يمكن تمثيلها بـ(النص)التابع في داخل كلٍ منَّا، فيوظفها الكاتب والقارئ في سعيه إلى إنتاج الدلالة[1].

(١) النص الغائب، تجليات التناص في الشعر العربي، د. محمد عزام، ص٢٦- ٢٧.

المبحث الثاني

الخصائص، الوظيفة، المعايير

من المهم قبل الحديث عن خصائص علم اللغة النصي ووظائفه، أن نتعرض لعلم لغة الجملة بشيء من المقارنة والتتبع، ومحاولة الوقوف على مقاربات جمعت بين الاتجاهين.

ولعل من المبررات لهذا الاتجاه في البحث أن نعلم أن «أن الصلة بين نحو الجملة ونحو النص وثيقة إلى الحد الذي لم تنجح معه كل محاولات التمييز بينهما، إلا أن ذلك لا يعني الأخفاق في وضع تصورات واضحة عن مهام نحو النص، ويرى فنديك Van Dijk مثلًا أن نحو الجملة Gs يشكل جزءًا (كمًّا) غير قليل من نحو النص Gr»[1].

فمن الواضح إذن أن انفصالًا لم يحدث بين علم اللغة النصي، وعلم لغة الجملة، فعلى الرغم من شمولية الأول وتنوع اتجاهاته، واعتماده على معارف متعددة – إلا أنه لم يحدث الاستغناء عن نحو الجملة.

وتلك هي الحقيقة، ولا يخالج د. سعيد بحيرى شكٌّ في أن علماء اللغة النصيين يعتمدون كل الاعتماد على التراث النحوي الضخم الذي اشتركت في صنعه مدارس مختلفة في معالجة مستويات صوتية وصرفية ونحوية.

والجملة قد تكتسب دلالة مستقلة داخل النص، لكنها لابد أن توجد متعاونة مع الجمل المتجاورة في انسجام تام أشبه ما يكون بالتمازج المؤدي إلى إيجاد كيان آخر يغاير صورة الأشياء في حال استقلالها.

(١) علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد بحيري، ص١٣٥.

«إن الجملة في النص ذات دلالة جزئية، ولا يمكن أن تتقرر بالتحديد الدلالةُ لكل جملة داخل ما يسمى بكلية النص Textganze إلا بمراعاة الدلالات السابقة واللاحقة في ذلك التسلسل، التتابع الجملي؛ إذ ينظر إلى النص مهما صغر حجمه على أنه وحدة كلية الأجزاء، فالاعتداد هنا ليس بالامتداد الطولي للنص، بل بالأبنية الكبرى المتلاحمة داخليًا التي يقدمها النص»[1].

وإذا كان علم لغة الجمل لا يتجاوز الجملة، ويراها أكبر وحدة لغوية، ويعتمد في دراستها على عناصر لغوية فحسب، فإن علم اللغة النص، بمجاوزته للجملة إلى النص يرى «أن العناصر غير اللغوية لا تقل أهمية عن العناصر غير اللغوية، وبالتالي يجب إدراجها في الوصف ولا يتوقف علم النص على ما يقدمه النحو من وصف دقيق للنظام اللغوي المجرد، بل يبحث عن كيفية اكتساب هذه النظام وتحديدِ القواعدِ والعملياتِ المعرفية التي يتم من خلالها، ويبحث أيضًا القواعد والاستراتيجياتِ التي تحكُمُ عملياتِ إنتاج النصوص وفهمها، ويراعي في دراسة الأشكال النصية جوانب اتصالية وتداولية وأسلوبية ودلالية ونحوية بصورة حتمية»[2].

١-خصائص علم لغة النص:

لكي يتمكن علم اللغة النصي من تحقيق أهدافه، لابد أن يتوفر فيه الخصائصُ التالية:

تجاوز الأنحاء التقليدية المقصورة على صحة المنطق إلى التعرف على وصف العلاقات التركيبية والنحوية داخل النص.أن يكون نحو النص قادرًا على الجمع بين البِنى الصغرى ثُمَّ البِنى الكبرى المتمثلة في الجمل والفقرات داخل تشكيل النص.

(١) انظر: علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، د.سعيد بحيري، ص١٣٩.
(٢) المصدر نفسه، ص١٤٨.

أن يعمد نحو النص بشكل رئيس إلى المقدرة على تحليل عناصر السبك والالتحام داخلَ النَّصِ.

أن يشمل نحو النص على وسائل قادرةٍ على وصف المضمون الشأني، أو البؤري «Thematic»وبذلك يكون بعيدًا عن التأثيرية والانطباعية، ومتَّسمًا بالموضوعية من أجل الوقوف على الخصائص الأسلوبية لأي نص.

يسعى نحو النص إلى دراسة النص من خلال سياقه والمقام المحيط به؛ مما يؤدي إلى الفهم الكامل لهذا النص، بالإضافة إلى وضع وسيلة النص في الاعتبار من حيث كونه مسموعًا أو مرئيًا أو كليهما معًا.

أن تعتبر فيه العوامل الراجعة إلى الإطار الثقافي واللغوي بمفهومه الواسع.

يتصف نحو النص بأنه علمٌ جامعٌ لمجالات واهتمامات معرفية مختلفة؛ لكونه يجمع بين معارفَ متعددةٍ؛ فتُسهم جميعها في مقاربة النص بتحليل مضامينه، والتعرِّفِ على مشروعية إنتاج هذه النصوص، وضبط نمط بنائها وأثرها في صيرورة الخطاب المنجز في مجتمع لغوي معين[1].

يهتم علم النص بالنصوص التي يظهر فيها درجة أعلى من التعقد سواء من الناحية النحوية أو من الناحية الموضوعية، وبذلك تشكل النصوص التي تتحقق بوصفها تتابعاتٍ من جمل، في الأساس مجالَ موضوع التحليل اللغوي للنصوص»[2].

---

(١) علم لغة النص والأسلوب بين النظر والتطبيق، د. نادية رمضان النجار، مؤسسة حورس الدولية للنشر القاهرة، ط.الأولى، ص٢٣.

(٢) التحليل اللغوي للنص مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج، كلاوس برينكر، ترجمة وتعليق د. سعيد حسن بحيري، ص٣٥.

ترتكز الدراسة النصية على الاهتمام بالخاصية التواصلية للنص، و العوامل المسهمة في إيجادها، وبذلك قد تكون الجملة نصًّا إذا حققت غرضًا اتصاليًّا.

فالنص:«سلسلة لسانية محكية أو مكتوبة وتشكل وحدة تواصلية»[1].

والبنى النصية وإن كانت قد أنجزتها كينونات لسانية، إلا أنها تكوِّن كينونات تواصلية: «ليس النص بنية مقطعية ملازمة، ولكنه وحدة وظيفية تنتمي إلى نظام تواصلي»[2].

٢-وظيفة علم لغة النص:

أولها: وصف النصِّ Text Description.

ثانيها: تحليل النصText Analysis [3].

ويُقصد بوصف النص: توضيح مكونات النص؛ وذلك بتعيين الجملة الأولى فيه، وتوضيح الموضوعات المتناولة في النص، مع بيان الروابط الشكلية والمعنوية الموجودة فيه، وما تؤدي إليه من انسجام وسبك بين متتابعات النص حتى تصير كأنها جملة واحدة، وعندئذٍ يبدأ تحليل النص الذي لا يقتصر على بيان الروابط الداخلية فقط بل يهدف إلى توضيح الروابط الخارجية أيضًا؛ ومن ثَمَّ يظهر دور السياق في تأليف أشتات النص التي تبدو متفرقة فتصبح متجاذبة.

ثالثها: يراعي دور النص في التواصل؛ وذلك من خلال الوقوف على أحوال المنتج والمتلقي للنص.

---

(١) العلاماتية وعلم النص، إعداد وترجمة د، منذر عياشي، ص١١٩.

(٢)ا لمصدر نفسه، ص ١١٩-١٢٠.

(٣) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، د. صبحي إبراهيم الفقي، ص٥١.

رابعها: كما أن من الأهداف التي يسعى إليها علم لغة النص، والتي لا تقتصر على وصف النصوص وتحليلها، فهو ذو هدف أكثر عمومية وشمولًا، فمن ناحية يشير إلى جميع أنواع النصوص وأنماطها في السياقات المختلفة، كما أنه من ناحية أخرى يتضمن الإجراءات النظرية والوصفية والتطبيقية ذات الطابع العلمي المحدد

خامسها: كذلك يتطلب تفسير الخطاب، وتأويله والوقوف على المستوى النحوي التركيبي، والمستوى المعجمي، والمستوى الدلالي، والمستوى الصوتي، والمستوى التنغيمي،..هذا بالإضافة إلى المستوى الاستراتيجي المتمثل في اختيار استراتيجية معينة للخطاب، ومن ذلك طرائق استراتيجيات معالجة وفهم النصوص، ا هـ[١].

سادسًا:وصف الشروط والقواعد العامة لتكوين النص، التي تُعدُّ أساس النصوص الفعلية، وصفًا منظمًا، وأن يوضح أهميتها لتلقي النص[٢].

سابعًا: وصف العلاقات الرابطة بين النص وبنيته، فيصف العلاقاتِ المنظمةَ التي يحددها نظام الفعل اللغوي، وشروطًا مهمة يحتمها النظام لتلك العمليات[٣].

ثامنًا: وصف العلاقات الداخلية والخارجية للأبنية النصية بمستوياتها المختلفة، وشرح أشكال التواصل واستخدام اللغة[٤].

تاسعًا: إذا كانت وظيفة النصوص هي تحقيق التواصل؛ فإن تداولية النصوص تفرض شروطًا لتحقيق تلك العملية واكتمالها؛ لتحقيق نصية النص.

(١) انظر علم لغة النص والأسلوب بين النظر والتطبيق، د. نادية رمضان النجار، ص٢٤ ـ ٢٥.
(٢) انظر إلى التحليل اللغوي للنص مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج، كلاوس برينكر، ترجمة وتعليق د. سعيد حسن بحيري، ص٢١.
(٣) انظر المصدر السابق، ص٢٢.
(٤) المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب – دراسة معجمية ، د.نعمان بوقرة، ص٤٤.

٣- المعايير النصية:

ذكرنا في مفتَتَح المبحث السابق وقوعَ الاختلاف في تعريف «علم اللغة النصي»، ومن قبله «النص»، وأن ثَمَّةَ صعوبةً بالغةً، واجهت محاولات العلماء لتحقيق ذلك،

ولم تكن المعايير النصية بمعزل عن تلك الصعوبة، فقد «امتدت الصعوبة كذلك إلى المعايير التي تتحقق بها النصية؛ فالبعض يذكر معايير معينة، والبعض الآخر يذكر معايير أخرى، وكذلك تمثلت الصعوبة في المنهج النصي نفسه،..»[١].

فالمعايير نقاط مركزية، تسعى النظرية النصية لمعالجة النصوص من خلالها، مع ضرورة النظر إلى أن أهم وظائف النصية هي حل القضايا، فإن»، بوجراند و دريسلر «يعرفان النصية بوصفها نشاطًا لحل القضايا»[٢].

وتعتمد المعايير المستعملة في دراسة النص وتقويمه على عواملَ أربعة: لغوي، ونفسي واجتماعي وذهني (معالجة الإنسان للمعطيات)[٣].

وهذه المعايير هي التي تسِم أي تتابعًا جمليا بالنصية أو عدمها، على حسَب توفرها فيه، أو خلوها منه، وهي بمثابة الحدود الضامنة لسلامة النص من اختلال نصيته، وهي أيضًا محققة لتماسكه وانسجامه.

وهي نقاط مركزية، ووسائل إجرائية، تتوصل بها النظرية النصية لمعالجة النصوص وتحليلها، وهي في صورتها النهائية تقارب إلى حدٍّ ما المرتكزات العربية في التحليل النصي، وتتلاقى معها.

---

(١) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، د. صبحي إبراهيم الفقي، ص٢٤.

(٢) العلاماتية وعلم النص، إعداد وترجمة د، منذر عياشي، ص١٣١.

(٣) مدخل إلى علم لغة النص، روبرت دي بوجراند، وولفالج دريسلر، د. إلهام أبو غزالة، علي خليل حمد، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ط.الثانية ١٩٩٩، ص١١.

«ولا شك أن إعمال تلك المعايير السبعة في تحديد ما به يكون الكلام نصًّا، إنما يعدل من نظرتنا إلى التقابل المفترض بين مفهومي الجملة والنص.

من ثم يكون معيار التميز بين ما صدَقات المفهومين بعيدًا من أن ينحصر في الكمِّ أو مطلق البنية النحوية، وتكون الجملة النحوية، التي تتوافر لها هذه المعايير السبعة نصًّا، أما سلسلة الجمل التي يختلف عنها أحد المعايير المذكورة فلا تعد نصًّا حتى وإن تحققت لها سلامة التركيب النحوي»[1].

وتنقسم المعايير التي تتحقق بها نصية النص إلى قسمين:

١- معايير تأسيسية: بمعنى أنها تعد الأساس لتحقق النصية في نصٍّ ما، ويعد دريسلر وبوجراند واضعي هذه المعايير، المتمثلة في سبعة معايير، هي:

١ – السبك (cohesion).

٢ – الحبك (coherence).

٣– القصدية (Intentionality).

٤ – المقبولية (Acceptability).

٥ – الإعلامية (Informativity).

٦ – الموقفية (Situationality).

٧– التناص (Intertextuality).

وينبغي هنا التنبيه إلى أن دريسلر وبوجراند لا يعنيان ضرورة تحقق هذه المعايير السبعة في كل نص، وإنما يتحقق الاكتمال النصي بوجودها، وأحيانًا تشكل النصوص بأقل قدر منها.

(١) في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية آفاق جديدة، د. سعد المصلوح، ص ٢٢٦.

وقد عرَّفا النصَّ -استنادًا إلى هذه المعايير -بأنه - «حدث اتصالي تتحقق نصيته إذا اجتمعت له سبعة معايير، وهي الربط والتماسك والقصدية والمقبولية والإخبارية والموقفية والتناص»[1].

٢- معايير تنظيمية:

يُطلق على المعاير آنفة الذكر المعاييرَ التأسيسية، بينما هناك نوع آخر من المعايير تُسمى بالمعابيير التنظيمية، وهي معايير«تستعمل لتعيين نوعية النص وتقويمه»[2].

ويندرج تحت هذا القسم ثلاثة معايير:

١-الجودة *Efficiency*:

وتنجم جودة النص عن استغلاله في الاتصال، مع تحقيق أكبر مردود وأقل جهد، بحيث تتوافر سهولة معالجة النص.

٢-الفعالية *Effectivity*:

أي شدة وقع النص وتأثيره في المستقبل بحيث يتوافر عمق المعالجة والإسهام القوي في تحقيق هذا المنتج.

٣-الملاءمة *Appropriateness*:

يقصد بها تناسب مقتضيات الموقف مع درجة انطباق معايير النصية على النص المدروس[3].

---

(١) علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، د.سعيد بحيري، ص١٤٦.

(٢) مدخل إلى علم لغة النص، روبرت دي بوجراند، وولفالج دريسلر، د. إلهام أبو غزالة، علي خليل حمد، ص١٢.

(٣) المصدر نفسه، ص١٢.

ويبدو لنا بالنظر لهذه المعايير التنظيمية عدةُ أمور، منها:

وثاقةُ الصلة بين هذه المعايير والمعاييرِ التأسيسية، بحيث تعد الأولى امتدادًا للثانية، وتبئيرًا للهدف المحصَّلِ منها، فالجودة تقترب من الإعلامية، بحيث تضمن تحققها بدرجة عالية، وهي ما يسمى بالكفاءة الإعلامية، أو الإعلامية العالية.

والفعالية الضامنة لتحقيق هدف المنتج، تقترب من المقبولية والقصدية بما تؤكد عليه من التأثير في المستقبل وتحقيق هدف المنتج.

أما الملاءمة فهي ظلُّ الموقفية المراعية لمقتضايات الموقف وتناسبه مع النص.

والفرق بين المعايير التأسيسية والمعايير التنظيمية، أن الأولى «تقدم تعريفًا وتكوينًا لشكل السلوك الذي يعد اتصالًا خلال النصوص»[1].

بينما المعايير التنظيمية «مهمتها ضبط الاتصال من خلال النصوص وليس تقديم تعريف له»[2].

(١) مدخل إلى علم لغة النص، روبرت دي بوجراند، وولفالج دريسلر، د. إلهام أبو غزالة، علي خليل حمد، ص٣٦ .

(٢) المصدر نفسه، ص٣٦.

المبحث الثالث

فهم النصوص قضايا وإشكاليات

إن قراءة النص ومحاولة فهمه بعثٌ له من جديد، وإحياءٌ له من عالم الركود والسكون إلى عالم الحياة والحركة، فالقارئ الفاعل هو الذي يعيد بناء ما خلَّفه النص من تصورات في شبكة منسجمة الخيوط»[١].

«وينبغي التنبيه هنا، على الفهم والإعلاء من شأنه، في إطار الكلام على إنتاج النص وقراءته، وقد تبدو قضية الفهم ميسورة في غير حاجة لحديث عنها، غير أن ربط الفهم بتصور تقدّم للنص وللقراءة، يجعل تحققه نتيجة لمسار مركب معقّد من عمليات التفكيك والتركيب المتعاقبة والمتزامنة في آنٍ معا»[٢].

ويقصد بفهم النص «عمليات امتلاك النص الذي يشترك فيه كل شركاء التواصل، أي المرسل والمستقبل»[٣].

ويرتبط فهم النص بعلمية تحليل النصوص ارتباطًا، يجعل الأولَ غرضًا للثاني، وهدفًا يسعى لتحقيقه، فـ «الغاية من التحليل النصي،.. محاولةُ فهم النص، وتفسيره من خلال مكوناته»[٤].

---

(١) علم اللغة النصي المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد بحيري، ص٣٥.

(٢) آفاق اللسانيات – دراسات – مراجعات – شهادات، تكريما للأستذ الدكتور نهاد الموسى، مركز دراسات الوحدة العربية، ط.أولى ٢٠١١، ص٢٥٩.

(٣) مدخل إلى علم النص مشكلات بناء النص، زتيسسلاف وأورزنياك، ترجمة وتعليق د.سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، القاهرة الطبعة الأولى١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣م، ص٨٣.

(٤) العلاقات النصية في القرآن الكريم، د. أحمد عزت يونس ، دار الآفاق العربية – القاهرة، ط. الأولى ١٤٣٥هـ – ٢٠١٤م، ص١٢٢.

تعدُّ قضية فهم النصوص إحدى وظائف علم اللغة النصي، فالنصوص غير المتماسكة هي أبعد النصوص عن إيصال الرسالة المقصودة من إنتاج النص، فهي نصوص غير مفهومة، أو ناقصة في حمولتها المفهومية.

وترجع مسؤلية فهم النص وتحليليه إلى القارئ، عبر وسائل ذاتية وخارجية، تمكنه من تفكيك بِنى النص، والوصول إلى أعلى درجة ممكنة لتحقيق الفهم.

ويختلف فهم موضوع النص باختلاف الخلفية المعرفية والثقافية للمتلقي، حيث تتفاوت درجة الاستيعاب من فرد لآخرَ، داخلَ المحيط اللغوي الواحد، والنص ليس منصبًا على موضوع واحدٍ، فقد يتضمن النص الواحد عددًا من الأفكار والموضوعات الرئيسة[1] «لكل منها في واقع الأمر أهمية موضوعية متباينة، بحيث ينشأ نظام متدرج للموضوعات»[2].

وفي الحقيقة فـ«إن فهم النص هو المدخل الحقيقي الذي يحقق التواصل بين المنتج والمتلقي، ويعدُّ فهم النصِّ عمليةً معقدةً متداخلةَ الأبعاد؛ لأنه يشترك فيها المنتج والنص والمتلقي، وقد وضع اللغويون عدة مصادرَ يمكن من خلالها فهم النص وهي:

١- المصدر الأول: المادة اللغوية: وهي توضح موضوع النص وتتكون من الكلمات، والمكونات النحوية والأجهزة العلاماتية التي تظهر بوضوح عبر النص، كما تتضمن المعلومات اللغوية التي يجب أن يمتلكها الفاهم Comprehender عن مستويات التحليل اللغوي.

---

(١) علم اللغة النصي،رسائل الجاحظ نموذجًا، د. رانيا فوزي عيسى، ص٥٣.

(٢) التحليل اللغوي للنص مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج، كلاوس برينكر، ترجمة وتعليق د. سعيد حسن بحيري، ص٨٥.

٢-المصدر الثاني: يتعلق بعالم المعرفة World Knowledge: والمبني على ذاكرة المدى البعيدة، المخزنة لدى الفاهم، والتي تُبنى على الخلفية المعرفية والنوعية للفاهم،

٣- المصدر الثالث: يختص بالهدف الذي يريد الفاهم استخلاصه من قراءة النص، ويختلف معنى النص تبعًا لا ختلاف غرضه.

٤-المصدر الرابع: السياق التداولي للنص pragmatic context: ويتعلق بالعوامل التداولية والاجتماعية والمقامية التي تساعد على فهم النصوص»[١].

«ثار جدل كبير بين الباحثين حول قراءة النص وتفسيره وفهمه في إطار الاتجاهات التي نادت بالتركيز على النص في حد ذاته بوصفه تكوينًا موحَّدًا مستقلًا، وطرحت عدَّة مقولات مهمة، مثل استخراج معنى النص من بنية النص ذاتها دون النظر إلى خارج النص، وعدم وجود معنى واحد للنص، والقارئ شريك للمؤلف في تشكيل المعنى؛ وقصد المنتج متحقق في النص، وهناك فاعل القول المتضمَّن في النص ذاته، وهل المؤلف هو منبع المعنى في النص أم أن القارئ له دور فعَّال في عملية إنتاج النص ذاتها، أم أنها عملية متبادلة، يكون المؤلف هو المنتج الأول فيها، والقارئ هو المنتج الثاني، وغير ذلك من المقولات التي عُني بها علم النص بوجه عام عناية شديدة»[٢].

وقد نتج عن ذلك قضايا وإشكاليات تعلقت بعملية فهم النص وآلياتها ونتائجها، والعوامل المؤثرة فيها، وسوف نعرض لبعض من هذه القضايا من خلال هذا الفصل.

---

(١) علم اللغة النصي،رسائل الجاحظ نموذجًا، د. رانيا فوزي عيسى، نقلًا عن:
Automatic indexing.Moens.p.27-9.

(٢) علم اللغة النصي المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد بحيري، ص١٦٢.

١-القارئ والنص:

ولاشك أن النصوص لا تتوافق في الدرجة التي تتطلبها عملية تفهمها؛ لأن لنصوص غير العادية «تطلب قراءة خاصة، بل قراءات تبين طاقات نصوصها، إن التفسير عملية معقدة اقتحمها علم لغة النص مستندًا إلى مقولات لغوية في المقام الأول، بالإضافة إلى مقولات وتصورات غير لغوية،..وصولًا إلى الفهم الذي هو غاية التفسير، بل تتمثل الغاية من عملية التفسير في حل المشكلة المعرفية للفهم»[١].

وهذه القراءات الخاصة ذات الكفاءة العالية هي آلية القارئ المتميز ذي المؤهلات والقدرات العالية، وواضح أن أن مقومات القراءة تتفاوت من قارئ لقارئ، وهذا ما نبه إليه د. سعيد بحيري بقوله:«وينبغي أن نضع في الاعتبار هنا أنه تتباين كفاءة القرَّاء كما تتباين طاقات النصوص»[٢].

والنص يُعالج باعتباره وحدة لغوية فاعلة في عملية الاتصال الإنساني، وعليه تتم معالجة النص على أساس أنه يشكِّل سلسلة من عمليات ذهنية لغوية في حالة صيرورة تأخذ في اعتبارها ما سبقها من عمليات، وما هي متوجهة إليه في عملية الاتصال الإنساني، كما أن هذه العمليات لا تتم بمعزل عن الموقف الذي تتم فيه[٣].

---

(١) علم اللغة النصي المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد بحيري، ص١٦٤.

(٢) المصدر نفسه، ص١٦٥.

(٣) مدخل إلى علم لغة النص، روبرت دي بوجراند، وولفالج دريسلر، د. إلهام أبو غزالة، علي خليل حمد، ص٢٠٩.

ليس هناك شك في أن القارئ حين يتناول كتابًا، أو يجذبه عنوان مكتوبٍ ما أو مقدمته، يكون أول ما ينقدح في ذاته من دافعية للقراءة، هي معرفة مراد الكاتب ومقصده[1]، بغض

---

(١) «أولت المناهج الحديثة والمعاصرة، في نظريات القراءة، وسيميائيات النص، وجماليات التلقي، أهميةً كبيرة لعنوان النص ومقدمته، واعتبرتهما مكوِّنين أساسيين، ودالَّين؛ فقد جعلهما جيراد جينيت (Gerard Genette) من النصوص الموازية paratextes الدالة التي ترافق النصوص الرئيسة والتي لا يمكن الاستغناء أو التغاضي عنها

وتكمن أهمية هذين المكونين (العنوان والمقدمة) في كونهما أول المؤشرات التي تتحاور مع المتلقي، فتثير فيه نوعا من الإغراء، والفضول العلمي والمعرفي، وإليهما توكل مهمة نجاح الكتاب، في إثارة استجابة القارئ بالإقبال عليه وتداوله، أو النفور منه واستهجانه».

العنوان:

العنوان مكون نصي لا يقل أهمية عن المكونات النصية الأخرى، إنه سلطة النص وواجهته الإعلامية، وهذه السلطة تمارس على المتلقي «إكراها أدبيًّا، كما أنه الجزء الدال من النص».

وهذا ما يؤهله «للكشف عن طبيعة النص والإسهام في فك غموضه»، بل يعيِّن مجموع النص ويظهر معناه، وهذا يعني أن العنوان هو مرآة النسيج النصي، وهو الدافع للقراءة، وهو الشرَك الذي يُنصب لاقتناص المتلقي، ومن ثم فإن الأهمية التي يحظى بها العنوان نابعة من اعتباره مفتاحا في التعامل مع النص في بعديه الدلالي والرمزي؛ بحيث لا يمكن لأي قارئ أن يلج عوالم النص أو الكتاب، وتفكيك بنياته التركيبية والدلالية، واستكشاف مدلولاته ومقاصدها التداولية، دون امتلاك المفتاح؛ أعني العنوان، وبناء عليه عليه فالعنوان هو الثريا التي تضئ فضاء النص، وتقود إلى استكشاف أغواره، فيكون بذلك ضرورة كتابية، تساعد على اقتحام عوالم النص؛ لأن المتلقي «يدخل إلى العمل من بوابة العنوان، مؤولا له، وموظفا خلفيته المعرفية في استنطاق دواله الفقيرة، عددا وقواعدَ تركيبٍ وسياقا، وكثيرا ما كانت دلالية العمل هي نتاج تأويل عنوانه، أو يمكن اعتبارها كذلك دون إطلاق، كما يستمد العنوان أهميته من كونه علامة كاملة تحمل دالا ومدلولا.

ولا تخضع العناوين لِبنية تركيبية متماثلة إلا في حالات نادرة، وتتوزع بين الطول والقصر والتوسط، وتتألف من كلمة واحدة أو كلمتين أو أكثر، وقد تكون عنونا رئيسا فقط، وقد تجمع بين عنوان رئيس وعنوان فرع، وقد تكون غير هذا.

ويقسم ج. جينيت (G.Genette) العنوان إلى «العنوان الأساس أو الرئيس – العنوان الفرعي – التعيين الجنسي». =

النظر عمَّا قد يتبين له بعد ذلك من دلالات أو معانٍ قد يشتمل عليها النص، هذه الحقيقة تجيب عن سؤال مفاده «عند قيامنا بقراءة نص شعري ما، ما الذي نسعى إليه من خلال هذه القراءة؟ هل نسعى لمعرفة ماذا يريد الشاعر، أم ماذا يقول النص؟»[1].

والسؤال يشير إلى ما يمكن أن يكون حادثًا، من اشتمال النصوص على هاتين القضيتين المتعارضتين، وهما قول الكاتب، وقول النص، كما يحمل في طياته إطلاقًا لوجودها في النصوص كلها.

والقول باشتمال بعض النصوص على القضيتين لا يجافي الحقيقة والواقع، لكنَّ الذي يجافي الحقيقة والواقع هو الإطراد والتعميم.

وهذه المسألة بما تثيره من لبس أحيانًا على القارئ، وبما تمثله كمعوِّق للفهم، تحتاج وقفة مع قضيتين مهمتين هما قضية معوقات الفهم، وقضية تعددية المعنى.

= **المقدمة:**

المتلقي هو الغائب الحاضر في كل عملية تأليف، والمقدمة هي الصورة المثالية التي يتطلع الكاتب إلى إنجازها؛ إذ عليها يترتب نجاح المتلقي أو فشله، وإليها توكل مهمة «توجيه القراءة وتنظيمها، وبالتالي تهيئ القارئ لاستقبال مشروع قيد الإنجاز، وسيكون مجاله – لا محالة – متن الكتاب، وهذا يعني أن المقدمة هي نوع من التعاقد بين المؤلف والقارئ».

ولم تكن أهمية المقدمة لتخفى على النقاد العرب القدامى، فهي قديمة أصيلة في الثقافة العربية، فقد حددها ابن منظور لغةً بقوله: «من قدم بمعنى تقدم، وقد اسعير لكل شيء، فقيل مقدمة الكتاب، ومقدمة الكلام بكسر الدال، أما اصطلاحا فهي ما تتوقف عليه المباحث الآتية، مباحث الكتاب طبعا.

للمقدمة إذن، وظيفة إقام الاتصال (phatique) التي قال بها مالينوفسكي، وتبناها رومان جاكبسون، حيث اعتبرها من الرسائل التي تؤدي إلى ربط التواصل أو إطالته أو قطعه، وبذلك تكون المقدمة بمثابة العتبة أو المدخل أو البهو الذي يلج منه المتلقي إلى دهاليز النص أو الكتاب ليمسك بخيوطه الأولية والأساسية ليتحاور معه» انظر اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة – دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته، د. حافظ إسماعيلي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط. أولى ٢٠٠٩م، ص ٩٩-١٠١ بتصرف.

(١) النص وإشكالية المعنى بين الشاعر والقارئ، د. عبد الله بن محمد العضيبي، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدبها ، جـ١٨، عدد ٣٠، جمادى الأولى ١٤٢٥هـ.

٢- معوقات فهم النصوص:

١- لغة النص:

سبق بنا الحديث إلى المصادر التي يمكن من خلالها فهم النص، وكان إحدى هذه المصادر هو المادة اللغوية بكل ما تشتمل عليه من أبعاد داخلية وخارجية ضامنة لتحقق فهم النص.

إلا إننا في هذه الجزئية سنتناول بُعدًا واحدًا فقط هو لغة النص المقروء ذاته، مع الأخذ في الاعتبار أن النص المقروء، موضوع بلغة القارئ، وليس بلغة أجنبية عنه.

فاللغة هي أنجع وسائل الاتصال بين الباث والمتلقي، سواء أكانت مسموعة أم مرئية، وهي أساس نجاح عملية التواصل.

لكنها على الرغم من ذلك قد تكون هي سببًا مؤديًّا لصعوبة الفهم والتواصل، وذلك إذا كانت لغة النص تحتوي على قدر من الإبهام والغموض و التعقيد، أو كان النص مشحونًا بإشارت مجازية، أو تباعدَ زمنُ الإرسال والاستقبال تباعدًا، اكتسبت فيه الالفاظ دلالاتٍ جديدة، أو تغيرت مساحة دلالاتها سعة أو ضِيقًا، أو انسحبت بالكلية من خارطة الاستخدام بعامل التطور، أو كانت ذه الكلمات ذاتَ خلفية اجتماعية وبيئية معينة، بحيث تخفى دلالاتها بتغير هذه الحياة الاجتماعية، أو بانتقالها إلى بيئة مغايرة.

فالعامل الجتماعي يتمثل في كون لغة ما مضبوطة بضوابط اجتماعية ملزمة للأفراد بأنماط لغوية محددة تتلائم مع التواصل في المواقف المعينة، ومن ثَمَّ تكون محدِّدة وموجِّهة للفهم، «ولا يختص التحديد الاجتماعي للفهم بفهم نصوص لغوية فقط، بل فهم ظواهر تواصلية غير لغوية أيضًا (النظرات وحركات اليدين وتعبيرات الوجه) وكذلك

فهم أعمال فنية غير لغوية (الرسم والنحت والفيلم والصامت،..إلخ) وفهم ما تسمى الأفعال العملية»[1].

وهذه القضايا تنقلنا للعلاقة بين المنتج للنص والمتلقي.

هناك رأي يرى أن القارئ «يقف في حافظة المنشئ وذاكرته؛ ليمليَ عليه سبلَ الصياغة، والظواهرَ الأسلوبية التي يقبلها ويفهمها ويتأثر بها»[2].

«ولا شكَّ أن ذلك إنما يكون مع القارئ المعاصر للشاعر (أو الناثر)، غير أن النص قد يقع بين يدي قارئ منفصل عن الشاعر زمانيًّا ومكانيًّا، ولا يشترك معه في شبكة واحدة من المرجعية»[3].

ومن هنا يستحسن بعض الدارسين أن يتناول القارئ أو المحلل النص من زاوية علاقة النص بمنشئه، وتستهدف القراءة من هذه الزاوية «مقاصد المؤلف ونواياه، أو التعرف على شخصيته، من خلال الآثار والعلامات التي أودعها في نصه.

سلك القُرَّاء الذين نظروا إلى النص من هذه الزاوية طرقا عديدة، واستخدموا أدواتٍ متنوعة، فمنهم من استعان بالتاريخ أي بالمعلومات المتعلقة بحياة المؤلف وبيئته وتربيته وثقافته، والظروف السياسية والاجتماعية التي نشأ في ظلها، والزمان والمكان الذيْن كتب فيهما النص، ومنهم من استعان بعلم النفس لا كتشاف المحتوى النفسي

---

(١) مدخل إلى علم النص مشكلات بناء النص، زتيسسلاف وأورزنياك، ترجمة وتعليق، د.سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، القاهرة الطبعة الأولى١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م ، ص٨٣-٨٤.

(٢) صناعة المعنى وتأويل النص، محمد عبد العظيم - منشورات كلية الآداب بمنوبة ١٩٩٢م، ص٢٢٢.

(٣) النص وإشكالية المعنى بين الشاعر والقارئ، د. عبد الله بن محمد العضيبي، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدبها، جـ١٨، عدد ٣٠.

للمؤلف، ومنهم استعان بعلم الاجتماع، باعتبار النص أحد وسائل التوصيل أو التواصل الجتماعي»[1].

«وحين تشكل البيئة (زمانية ومكانية) مرجعية رافدة، يستوحيها الأديب أو الكاتب فيما تجود به قريحته؛ فإن الأقرب إلى المعقول حينئذ أن يكون مفهوم التلقي قائمًا على أساس المناهج التي يهتم بحياة صاحب النص ومدى علاقتها بأدبه، ولعل الوقوف على روافد المدِّ الأدبي لدى أديب أو شاعر يستروح أنفاس البيئة والعصر، يعين المتلقي – ناقدًا أو قارئًا – على كشف غوامض النص وفهم أسراره»[2].

وبالإضافة إلى الإبهام والغموض الذين يعوقان الفهم، فإن هناك شيئًا على الضدِّ، وهو إلف المعنى، أو وقوع المعاني المشهورة لأول الخاطر للقارئ عند قراءة النص، وتكمن خطورته في كونها مضللا عن المعاني المقصودة، مؤديا إلى فهم معانٍ غير مقصودة، بل قد تكون متناقضة.

وهذا ما عناه شاكر، «وحين نذكر»الألفاظ، «في معرض الكلام عن الشعر عامة، وفي كل لسان، فغير مراد بها مجرد وجودها في اللغة وكتبها، بمعانيها التي درج عليها أهل كل لسان في التعبير عن فحوى ما يريدون،..لأنهم (الشعراء) يُلبسونها بالإسباغ، ويخلعون عنها بالتعرية، ما يكاد ينقل اللفظ عن مستقره في اللغة وفي كتبها، إلى مدارج تسيل باللفظ وقرنائه من الألفاظ إلى غاية غير غاية المتكلم المبين عن نفسه لسامعه»[3].

---

(١) قراءة النص..تأصيل نظري وقراءات تطبيقية، د.عبد الرحيم الكردي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، الأولى ٢٠١٣م، ص٢٥- ٢٦.

(٢) قراءة النص وجماليات التلقي بين المذاهب الغربية الحديثة وتراثنا النقدي دراسة مقارنة، د. محمود عباس عبد الواحد، دار الفكر العربي – القاهرة، ط.الأولى ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م، ص٦.

(٣) نمط صعب، ونمط مخيف، محمود شاكر، ص١٣٣.

ويقول أيضًا: «فإن اللغة، هي قمة البراعات الإنسانية وأشرفها، وهي أبعد منالا مما يتصوره المرء بأول خاطر، فما ظنك إذا كانت اللغة عندئذ لغةَ» شعر أو «كلامَ مُبين! عندئذ تعيى الألسنة عن الإبانة عن مكنون أسرارها»[1].

٢- رموز النص:

وهي شيء زائد على لغة النص، باعتبارها نوعًا من التعمية ذات الدلالة المقصودة، فقد يُضمِّن الباثُّ نصه بعضَ الرموز، يهدف بها إلى أمرٍ ما، وتكون مهمة القارئ حينئذ هي فتحَ مغاليق هذه الرموز للوقوف على المقاصد والدلالات المحتواة ضمنها.

وهذه العملية تتأرجح بين الصعوبة والسهولة، على حسب ما يمتلكه كل متلقٍ من مؤهلات فك التشفير، التي لا تكون دائما في متناول يدِ كلِّ القارئ.

ويزداد الأمر صعوبة إذا كانت هذه الرموز تحتمل عددا من التأويلات، وتزداد الصعوبة أكثر وأكثر، إن افتقرت من القرائن المرجحة لإحداها.

٣- اختلال قدرة القرائية:

ويُقصد به الطبيعة الفطرية القارئة، وتحصيل القدر المُمكِّن لمهارة القراءة، بالإضافة إلى التعرض لمثل تجربة صاحب النص، والتمرس بهذا النوع من النصوص « فالخبرة التي يمتلكها القارئ في التعامل مع النصوص، تشكل دورًا آخر مهمًّا، إن ثمةَ فروقًا بين قارئ وآخر في قدرته على استنطاق النص وسبر أغواره؛ إذ كلما زادت خبرة القارئ عبر الممارسة، استطاع أن يكشف في النص أبعادًا قد لا يتوصل إليها غيره»[2].

---

(١) نمط صعب، ونمط مخيف، ص١٦٩.

(٢) النص وإشكالية المعنى بين الشاعر والقارئ، د. عبد الله بن محمد العضيبي، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدبها، جـ١٨، عدد ٣٠.

«يذهب «فان ديك» إلى أن فهم التتابع الجملي في نصٍّ ما يجب أن يتضمن نوعًا من الدائرية المستقبلة لسلسلة من القضايا المتداخلة في شكل دوائر متقاطعة ضمن فضاء دائري أوسع، تمثله قضية كبرى، هي الإطار المعرفي للخطاب، كما أن هذه القضية الكبرى التي يقوم عليها النص، تتحدد من خلال مجموعة من القواعد النحوية النصية، تحقق في تناسقها عملية التلخيص التي تتحكم عموما في عملية الفهم،..وتعمل هذه القواعد في مستوى النص بحُريَّة وديناميةٍ، ذلك أن القارئ بمعرفته الخلفية في استطاعته تقديمُ التأويل المناسب للبنية الدلالية الكبرى، على أن هذه البنية فيما يصفها من طبيعة مجردة وحدسية، بها تتجلى كلية الخطاب ووحدته»[1].

٤- مشتَّات الطاقة الذهنية:

وهي هي أمور من شأنها أن تشوش العقل، وتضعف التركيزَ والحضورَ مع النص، في أثناء عملية التلقي، وتتمثل في الضغوط النفسية، أو عدم التوازن الشعوري، أو عدم ملائمة بيئة القراءة، زمانًا مكانًا، أو سلوكات للمحيطين.

فهذه الأمور وغيرها يشكل معوقًا، حائلًا بين القارئ وبين تحقيق الفهم، أو تحقيقه لكن بنسبة منخفضة.

٣- تعددية المعاني للنص الواحد[2]:

إن الحديث عن فهم النص ومعوقاته يقودنا إلى قضيةِ تعددية المعنى للنص الواحد، وهل القارئ له القدرة على كشف وقراءة المعاني المتعددة والخفية في النص وإظهارها،

(١) المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب ـ دراسة معجمية، د.نعمان بوقرة، ص٣٥، ٣٦ .

(٢) تكمن خطورة تصحيح كل المعاني المحتملة في النص، في أنها قد تُلغي المعاني المقصودة لمنتج النص وتهدرها، وتهتم بمعانٍ أخرى غير مقصودة ولا مرادة، وأخطر من ذلك أنها تفتح باب التأويل غير المنضبط الذي يتعارض مع العقل والمنطق ويهدم الثوابت، ويظهر الأمر جليًا في الحركات الباطنية التي اجتاحت =

أو بمعنى آخر هل النص- أي نص- يُقرأ قراءات متعددة وتُنتج كل قراءة معانيَ[1]، جديدة كلها صحيحة، ولو كانت متعارضة، أو تتعارض مع مفهومات تقع خارج حدود النص؟!

يذهب إلى هذا كثير من علماء اللغة النصيين، منهم على سبيل المثال د. سعيد بحيري إذ يقول: «إنه ليس هناك ما يسمى بالتفسير النهائي، ويرتبط بقاء النص واستمراره بما يقدمه من تفسيرات متعددة، من خلال قُرَّاء تختلف قدراتهم، فتختلف نتاجاتهم، ويحتفظ النص بجزء من كينونته في كل تفسير، يمثل هو في ذاته جزءًا من واضعه»[2].

ويتجاوز «بارت» حدًّا أوسع حين صرَّح بموت المؤلف، ومنح القارئ حرية لا محدودة، «رافضًا النظرة التقليدية التي ترى أن المؤلف هو منبع المعنى في النص، وصاحب النفوذ الأوحد في تفسيره»[3].

إن إطلاق القول بهذه القضية ينطوي على نوع من المجازفة والتساهل، ويؤدي إلى نوع من التضارب وعدم الإحكام، كما أنه يعطي سلطة مطلقة للقارئ، ويمنحه صلاحية إنتاجية جديدة للنص، توازي صلاحية المنتج الأصلي، مع ما قد تؤدي هذا

= العالم الإسلامي؛ فزعمت أن نصوص الكتاب والسنة لها معانٍ ظاهرة، ومعانٍ باطنة، وأن المعانيَ الباطنة لا يُهدى إليها إلا الخاصة، وأنها أعظم قيمة وتوافقًا مع مقصود الشريعة من المعاني الظاهرة المبذولة للعامة فنتج عن ذلك شرٌّ عظيم وانقسام للأمة، كما أن إطلاق القول بذلك مع النصوص ذات الطابع العلمي، أو الإلزامي كالنصوص القانونية، يفتح باب التلاعب بها وتعطيلها وعدم الثقة بنتائجها.

(١) ليس من نافلة القول أن نذكر أن بعض النصوص ذات المعاني المتعددة، قد تكتسب قيمتها من تعدد معانيها كالنصوص البليغة، لكن المشكلة تكمن في إطلاق القول بتعدد معاني النصوص، وأشد منه إطلاق القول بتصحيح هذه المعاني كلها.

(٢) علم اللغة النصي المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد بحيري، ص١٦٥.

(٣) انظر المصدر نفسه، ص١٦٥.

الصلاحية الثانية من إيجاد معانٍ ومفهومات، تتصادم مع مردات المؤلف، والمفهومات المحمولة في النص.

ومن حقنا نتسأل، هل مقصدية المنتج الأصلي مثلا – التي هي إحدى معايير التماسك – ستبقى كما هي موجِّهًا للنص وبنياته الكبرى والصغرى؟؟ أم أنه من صلاحية القارئ أن يوجه مقصدية النص توجيهًا جديدة؛ فتعدلها ضيقًا أو سعة حسب ما يرى؟ وما ضوابط ذلك؟

هذه الأسئلة تحتاج إلى إجابات واضحة وحاسمة، تضع أطرًا وحدودًا محددة تمنع تسرب الخلل إلى تفسيرات النصوص وتحليلها، أو ما يُسمَّى «فوضى التفسير».

إن كل نص يشتمل على معانٍ كلية –لا يُختلف عليها في الأغلب – هي بنيته الكبرى هذا بالطبع إذا استبعدنا النص بمعناه الأصولي، وهو ما لا يحتمل إلا وجهًا واحدًا من وجوه التأويل، وهناك دلالات صغرى تترابط وتتشابك مع الدلالة الكبرى، تَكونُ مكملة وخادمةً لوحدتها واتساقها، وهذه الدلالات الصغرى هي التي قد يقع فيها نوع لتعدد المعاني، في الأغلب.

وبالنظر إلى تعدد المعاني المحمولة في بعض الدلالات الصغرى، فإن السؤالَ الطارحَ نفسَه هو، هل كل نص تعدد معناه، أو تعددت معاني جزئياته، تُعدُّ معانيه تلك المتعددة صحيحة؟

وللإجابة عن هذا السؤال لابد لنا من الحديث عن العام من النصوص ومخصصاته، وهو مبحث أصولي له قيمة علمية،أولاه الأصوليون عناية كبيرة ولم يُسبقوا فيه.

والنص العام – بغض النظر عن حجمه – ذو دلالة واسعة تضم في حيزها معانيَ كثيرة، وتكون كل تلك المعاني من حيث هي، ودون اعتبارات أخرى محتملةً.

وهذه المعاني من جهة التصور لها حالتان من حالات الإدراك:

الأولى: إما أن تكون كلها صحيحة وغير متصادمة، بحيث لا يترجح بعضها على بعض، أو يترجح بصورة لا تنفى احتمالية غيرها، لقيام قرائنَ على كلٍّ منها[1].

الثانية: أن يكون أحد هذه المعاني أو بعضها هو المقصود وباقيها مهمل مهدر غير معتبر.

وفي هذه القضية يظهر ما كان للأصوليين السبق فيه، من خلال قضية ترجيح المعاني أو تخصيص العام،أو تقييد المطلق، فقد تكلموا عن الإجراءات التي يمكن من خلالها الكشف عن مقاصد النصوص بتخصيصها وإلغاء عموميتها الظاهرة.

تخصيص العموم:

وهو تضييق المعنى أو تخصيص الدلالة، وهو أن تقتصر الدلالة العامة أو المتحملة لجملة المعاني على بعض ما تدل عليه، بحيث يصبح مدلول النص مقصورا على معانٍ أقل مما كان عليه في الأصل.

(١) ومن هنا نلمح أهمية القرائن سواء أكانت لغوية أم سياقية أم موقفية، ودور كل منها في إثبات المعاني المحتملة أو نفيها، كما أن لها دورًا أساسيًّا في التفريق بين اللبس، وتعدد وجوه المعاني للنص الواحد، فـ«المقصود باللبس تعدد احتمالات المعنى دون مرجح؛ إذ لا يستطيع من يتلقى الكلام أن يقطع بأن مقصود الكلام واحد بعينه من هذه المعاني المحتملة»انظر اجتهادات لغوية، تمام حسان،عالم الكتب، ط. أولى ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٧م، ص١٨٥.

وهذا التضييق الدلالي الذي يحدث للنصوص يخضع لقواعد وإجراءات ضابطة، تكون اللغة إحدى عناصره، فهناك ضوابط عرفية وعقلية وسياقية موقفية، ومسلمات حوارية[1]، تستطيع أن تحد من سطوة النص وتمدده المعنوي.

ولا يتعارض هذا مع كون القارئ قد يتنبه في كل قراءة للنص إلى معانٍ لم يتنبه إليها في قراءته السابقة، فهذا أمر وارد مقبول، بشرط أن تكون المعاني الجديدة مستقيمة مع حقيقة النص ومقصديته، ولا تصادمه، و تكون مكملة لمحتواه المعنوي، منضبطة بضوابط تمنع التفسير والتأويل غير المستقيم.

ولا يُعدُّ ضبط التأويل والفهم نوعًا من تضيق المساحة الدلالية للنص، ولا نوعًا من اختزاليتها، لأن النصوص ينبغي أن تُضبط أولًا بمقاصد قائليها، بغض النظر عمَّا يمكن أن تحتمله هذه النصوص من معانٍ أخرى.

وإذا كان التأويل مجالا عقليا، يسعى إلى الانتحاء بالنصوص أو المفردات المغلقة منتحى يمكنه من إيجاد معنى ملائم، يكشف معناها ويحقق فهمها. فإن ذلك لا يتيح إطلاق القول بأن النصوص تكتسب قيمتها من تعدد المعاني التي يمكن أن تفسر

---

(١) **استلزام حواري:**

يُعدُّ الاستلزام الحواري من أهم الجوانب التي يهتم بها البحث التداولي، حيث ترجع نشأته إلى المحاضرات التي دعا «غرايس» Griceإلى إلقائها في جامعة (هار فارد) سنة ١٩٦٧، وأهم الأسس التي يقوم عليها، حيث سعى «غرايس» لتوضيح الاختلاف بين ما يقال وما يُقصد، فالاستلزام الحواري متغير بتغير السياقات التي يرد فيها».

الاستلزام العرفي: هو أحد أنواع الاستلزام التي حددها «غرايس» وهو قائم على ما تعارف عليه أصحاب اللغة، من استلزام بعض الألفاظ بعينها لا تنفك عنها، مهما اختلفت بها السياقات وتغيرت التراكيب «انظر المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب – دراسة معجمية، د.نعمان بوقرة، عالم الكتب الحديث، جدار للكتاب العالمي، ط. الأولى ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٩م، ص٨٣ـ ٨٤.

بها،بحيث ينفتح لها باب التأويل على مصرعيه!! مع إغفال النظر عن حقية هذا المعنى، أو موافقتها لمقصد صاحب النص، أو مطابقتها للواقع، أو حتى احتمال الخيال لها. بحيث لا يكون ثمة بأس – مطلقًا – من تصارع التأويلات المتضاربة، ما دامت قد فتحت عالم الدلالة!!

وليست قضيتنا الآن هي محاكمة هذا القول بقدر ما هي تساءل عن جدوى هذا التعدد للقارئ، وعن حقية اطلاق هذا القول؟ وهل هذا التعدد المتضارب يساعد القارئ ليفهم النصوص؟

يرى البعض أن الكلام حين «يحتمل عدة قراءات وتأويلات، خاصة إذا استخدم استخدامًا مجازيا، حيث تتوالد الدلالات المختلفة المتضاربة فيما بينها، وتشكل معًا لغةً مجازية تساعد على فهم اللغة، ومنه فهم الذات المؤولة»(١).

ولا تنحصر مهمة القارئ في أن يستخرج أكبرَ قدر من المعاني سواء أكانت مقصودة أم غيرَ مقصودة، وسواء أكانت ذاتَ قيمة أم مهدرة.

وهذه القضية تقودنا إلى قضية تعدد وجوه التفسير في القرآن الكريم، وهو بابٌ عظيمةٌ سعتُه، لكن أقول وبإيجاز: (إن تفسير القرآن منضبط بضوابطَ كثيرة، إلا أن أهمَّها، هو التفسير بالأدلة الشرعية، ثم بما قام عليه الدليل اللغوي من غيرأن يتعارض مع أدلة الشريعة ومن ثَمَّ فلا حرج من توالد المعاني وتكاثرها، إن كانت من باب التنوع غير المتعارض(٢).

(١) هرمينوطيقا النص عند بو ريكور من خلال كتابه «من النص إلى الفعل»مقاربة تأويلية، رسالة ماجستير للباحثة جويدة علاوة، كلية الآداب واللغة – جامعة فرحات عباس – الجزائر، ص٩٠.

(٢) ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الصافات:٢٨]، يقول الماوردي: في قوله: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ ثمانيةُ تأويلات: =

أو من باب التلازم[1].

أما ما كان محتملًا في الاستعمال اللغوي، وتعارض مع دليل الشرع فهو مردود مُهدر، سواء أكانت المخالفة في أصل أم فرع.

= أحدها: تقهروننا بالقوة، قاله: «ابن عباس»، واليمين القوة، ومنه قول الشاعر:

إذا ما رايةٌ رُفعتْ لمجدٍ تلقاها عَرابةُ باليمين

أي بالقوة والقدرة.

الثاني: يعني من قبل ميامنكم، قاله: «ابن خصيف».

الثالث: من قبل الخير فتصدوننا عنه وتمنعوننا منه، قاله:«الحسن».

الرابع: من حيث نأمنكم، قاله: «عكرمة».

الخامس: من قبل الدين أنه معكم، وهو معنى قول: «الكلبي».

السادس: من قبل النصيحة واليمين، والعرب تتيمن بما جاء عن اليمين ويجعلونه من دلائل الخير ويسمونه السانح، وتتطير بما جاء عن الشمال ويجعلونه من دلائل الشر ويسمونه البارح وهو معنى قول: «علي بن عيسى».

السابع: من قبل الحق أنه معكم، قاله: «مجاهد».

الثامن: من قبل الأموال ترغبون فيها أنها تنال بما تدعون إليه فتتبعون عليه، وهو معنى قول:«الحسن». انظر تفسير الماوردي المسمَّى بـ«النُّكت والعيون «تحقيق خضر محمد خضر، دار الصفوة، القاهرة، ط.الأولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، جـ.الثالث، ص٤٦٣- ٤٦٤.

(١) ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

قال ابن عاشور: الآية لم تقتضِ أن أكثر أهل الأرض مضلون؛ لأن معظم أهل الأرض غير متصدين لإضلال النّاس، بل هم في ضلالهم قانعون بأنفسهم، مقبلون على شأنهم؛ وإنما اقتضت أن أكثرهم يُضل، إن قَبِل المسلم قولهم، لم يقولوا له إلا ما هو تضليل؛ لأنهم لا يلقون عليه إلا ضلالهم. فالآية تقتضي أن أكثر أهل الأرض ضالون بطريق الالتزام؛ لأن المهتدي لا يُضِل مُتبعه». انظر التحرير والتنوير م٤، جـ٩ ص٢٥.

وفي قوله تعالى: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم:٩٧].

رُوي عن ابن عباس تفسير (اللُّد) بـ(الظَّلَمَة)، ورُوي عن مجاهد تفسيره بـ(الفُجَّار)، وعن الحسن تفسيره بـ(الصُّم)، وعن أبي صالح تفسيره بـ(العوج)، قال الآلوسي: وكل ذلك تفسير باللازم، انظر «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني» م ١٦، ص١٤٤.

أما بالنسبة للنصوص غير المقدسة، والشعر منها على وجه الخصوص، فالمسألة تختلف اختلافًا كبيرًا؛ إذ أن النصوص الشعرية تنطوي على قدر كبير من الإبهام ومن المجاز أيضًا؛ لذلك يتسع لها من التأويل واحتمال المعاني ما لا يتسع لغيره.

فـ «إن وفرة التأويلات في الشعر لا تنفك عن طبيعة لغته المفعمة بالإشارات المجازية، إنها تبدو مبهمة أكثرَ منها واضحة المعالم»[1].

و«الأثر الأدبي ليس ذا معنى واحد تقتصر القراءة على اكتشافه، كما أنه ليس منفتحًا مطلقًا لشتى القراءات بحيث يقبل أي تأويل يوضع له»[2].

٤-العلوم غير اللغوية ودورها في فهم النص:

تسهم في فهم النصوص علوم لغوية وغير لغوية، وإذا كان علم اللغة النص يوفر متسعًا رحبا لتلاقي علوم مختلفة؛ فإن هذه السمة تبدو أكثر وضوحًا في تشكيل الفهم النصي لدى القارئ.

فعلى الرغم من أن اللغة هي أساس الانطلاق، وهي المشكِّلة للدلالة التي يقوم عليها فهم النص – على الرغم من ذلك؛ فإن هناك دورًا –لا يمكن إغفاله– لعلوم غير لغوية فاعلة في تحقق الفهم والإدراك لمحتوى النصوص.

ومن هذه العلوم، علم اللغة النفسي، الذي يدخل في ضمن اختصاصاته واجراءات بحثِه الذاكرةُ، بعدِّها لها دور مهم، في إعادة إنتاجية النصوص عن طريق تخزينها،

(١) النص الشعري ومشكلات التفسير، عاطف جودة نصر، مكتبة لونجمان، مصر، ط. الأولى ١٩٩٦م.
(٢) نظرية التوصيل وقراءة النص الأدبي، د.عبد الناصر حسن محمد، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة ١٩٩٩م، ص٦٧.

واسترجاعها،«فإنه عند فهم تتابعات جملية يدور الأمر أساسًا حول قدرة مستخدم اللغة على التحكم في العلاقات الضرورية بين القضايا»[1].

ومن هنا يأتي دور الذاكرة، في تحديد العلاقات وتقديمها، اعتمادًا على الاحتزان السابق لها،أو لنماذج متشابهة، «وهي تتعلق بمسائل تُعالَج خارج الإطار اللغوي؛ لأنها تتصل بعلوم النفس والاجتماع والمعرفة والحاسوب والذكاء الصناعي وغيرها، وهي مسائل لا تزال موضع بحوث مستمرة، وتستقي المعالجةُ النصيةُ باستمرار ما تُسفر عنه هذه البحوث من نتائجَ، وقديتضح قيمة ذلك بالنسبة لعلم النص في قول فندايك:

و«فيما يتصل بعلم النص، من المهم أن يكون لدينا شرح لكيفية امتلاك المتحدثين لكفاءة قراءة وسماع المظاهر اللغوية المعقَّدة المتمثلة في النصوص وفهمها واستخلاص معلومات محددة منها، والتخزين – الجزئي على الأقل – لهذه البيانات في الذهن، وإعادة إنتاجها طبقًا للمهام أو الأغراض أو المشكلات التي تثار من أجلها،..لأن مجرد كون المتكلم العادي لا يستطيع أن يحفظ أو يتذكر في ذهنه كلَّ البيانات والأبنية والمضامين التي يحتويها نص ما، يمثل إحدى المشكلات المهمة؛ إذ يترتب عليها قيام الشخص بعمليات انتقاء وإجراءات أخرى لخفض البيانات بالضرورة، مما يطرح القضية التالية:

ما هي تلك الإجراءات، وما الشرط والمواصفات التي تتم في إطارها؟ فعندما نعرف أيةَ معلومة ينتزعها المتكلمون من النصوص، ويقومون بتخزينها في أذهانهم، طبقًا للمحتوى أو لبنية النص ذاتها، وتبعًا للمعلومات والاهتمامات والشواغل السابقة في المهام

(١) علم النص مدخل متداخل الاختصاصات، تون أ. فان دايك، ترجمة وتعليق د.سعيد بحيري، دار القاهرة للكتاب الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ص٢٧٦.

والمواقف المحددة،..عندئذ يكون بوسعنا – أيضًا – أن ندرك أبنية المعارف التي يمتلكها المتكلم كي نستطيع بحثَ كيفيةِ تعديلها طبقًا لبيانات جديدة تتيحها النصوص»[1].

ويُعدُّ فهمُ النصوص ذات العلاقة بالنص المقروء أحدَ الأمور الرئيسة في اكتساب معارف من النصوص الجديدة، وهذا يتطلب استحضارًا لمفهومات النصوص السابقة في أثناء قراءة النصوص الجديدة أو بعده، للعبور منها إلى مفهومات النص الحالي، وإلى هذا أشار»فندايك» حين تكلم عن عمليات فقدٍ تتم لبعض النصوص من الذاكرة، «وتكمن المشكلة في معرفة أنماط البيانات التي يُحتفظ بها في الذاكرة، وكيف ترتبط هذه العملية بفهم النص، ماذا يحدث في المعلومات المختزنة في الذاكرة؟ لا شك أنه بعد قليل من الوقت «ننسى»جزءًا كبيرًا من المعلومات، في حين يظل جزء آخر حاضرًا لدينا؛ ولهذا ينبغي أن نتساءل عن هذه المعلومات التي يتم نسيانها قبل غيرها، وعن تلك التي نحتفظ بها، كما أن علينا أن نعرف ما يلي: إذا كان صحيحًا أن بعض المعلومات تظل مخزونة في الذاكرة، فكيف يكون بوسعنا أن نعثر عليها مرة ثانية بطريقة فعالة كي نستخدمها في مهام أخرى، مثل فهم نصوص أخرى»[2].

(١) علم اللغة النصي المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد بحيري، ص١٧١.
(٢) علم اللغة النصي المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد بحيري، ص١٧٤.

الفصل الثاني

منهج محمود شاكر

ملامحه وأصوله

الفصل الثاني
منهج محمود شاكر، ملامحُه وأصولُه

المنهج لغة:

«النهج: الطريق الواضح، وكذلك المنهج والمنهاج. وأنهج الطريق، أي استبان وصار نهجا واضحا بينا.

قال يزيد بن الخذاق العبدى: «ولقد أضاء لك الطريق وأنهجت سبل المسالك والهدى تعدى أي تعين وتقوى. ونهجت الطريق، إذا أبنته وأو ضحته. يقال: اعمل على ما نهجته لك. ونهجت الطريق أيضا، إذا سلكته. وفلان يستنهج سبيل فلان، أي يسلك مسلكه».

و «النَّهْجُ، الطّريقُ. ونَهَج لي الأمْرَ: أوضَحَه. وهو مُستقيم المِنْهاج. والمَنْهج: الطَّريق أيضاً، والجمع المناهج»[1].

وفي أبسط معانيه الاصطلاحية هو «طريقة يصل بها الإنسان إلى حقيقة»[2].

وفي أدق معانيه: «هو مجموع العمليات العقلية، والخطوات العملية التي يقوم بها الباحث، بهدف الكشف عن الحقيقة أو البرهنة عليها، بطريقة واضحة وبديهية، تجعل المتلقي يستوعب الخطاب، دون أن يضطر إلى تبنيه»[3].

---

(١) معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد ابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩جـ، ٥ ص٣٦١.

(٢) منهج البحث الأدبي، د. علي جواد الظاهر، مكتبة العاني - بغداد ط. ١٩٧٠م، ص١٣.

(٣) مناهج البحث في الجغرافيا، مقاربة ابستمولوجية، العربي السليماني، مركز تكوين المفتشين، الرباط، ١٩٩٧.

فهو: «البرنامج الذي يحدد لنا السبيل للوصول إلى الحقيقة، أو الطريق المؤدي للكشف عن الحقيقة في العلوم»[1].

والمنهج ضرورة إنسانية مُلِّحة، وُلدتْ بميلاد الإنسان، وتطورت بتطوره، وتشكلت وتنوعت بحسب حاجاته، واتجاهاته الفكرية، وخلفياته الثقافية والبيئية.

«ولابد من أن يكون الإنسان قد اكتشف المنهج مبكرا بحكم ما له من ذكاء، وما يجتاز من صعاب، وما يحمله على الوصول إلى نتائج، ويعينه على ادخار خبراته، واستغلال هذه الخبرات فيما يجدُّ من مواقف،.. إن المنهج يوفر عليه كثيرا من الجهد والعناء، ويسهل مهمته في العيش»[2].

إن حديثنا عن كتاب «نمط صعب ونمط مخيف»، يقودنا إلى الحديث عن المنهج الشاكري، من حيث نشاء أو لا نشاء، فهو كتاب منهجٍ ذي رؤية عربية خالصة، متحدرة من التراث.

وتكمن قيمته بالإضافة لذلك، في كونه منهجًا تطبقيًا، أودعه الأستاذ، خلاصة تجربة ثقافية واسعة، وضاربة بجذور ممتدة، من لدنُه إلى أن ابتدأت تباشير الحضارة الإسلامية.

وقد كانت قضية المنهج قضية شاغلة للأستاذ، وهي أحد أسباب خلافه القديم بينه وبين الدكتور طه حسين، وبين كل مستحدث جاء بعده ولم يكن له منهج علمي مقبول في التناول، أو لم يكن منهجه قائمًا على أسس علمية صحيحة.

---

(١) مناهج البحث العلمي، عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات – الكويت، ط.ثالثة ١٩٧٧م، ص٦.
(٢) منهج البحث الأدبي، د. علي جواد الظاهر، مكتبة العاني – بغداد ط١٩٧٠م، ص١٣.

وغموض المنهج وعدم وضوحه، وما أدَّاه من خلط، من أشد القضايا التي أرَّقته فأنكرها، وناضل من أجلها -على مرِّ عمره- كلَّ من تلبس بها أو أسهم في وجودها، يقول الأستاذ شاكر:«زادتني معالجة نقده -يقصد طه حسين- يقينًا في أن الغموض إذا أحاط بلفظ «المنهج»، أدَّى إلى خلط كثير في فهم الآداب، وفي تفسيرها وفي شرحها، ثم في تصوير أحداث العصر وأفكاره ورجالاته وأحواله، بوجه عام»[1].

وفي شأن لويس عوض يقول:«حتى عجبتُ وتخوفتُ إذا كانت كلمة «المنهج» لم تزل محفوفة بكل هذا القدر العجيب من الغموض والظلمة في عيني الدكتور لويس عوض أستاذ الأدب الإنجليزي»[2].

إذن لم تكن القضية وجودَ المنهج ولو محفوفًا بالغموض؛ لأن غموض المناهج يوقع في التخليط، والانحراف، ويؤدي إلى فساد في التصور وضلال في النتائج. ومن ثَمَّ كان بيان المنهج واستيضاحه محورًا أساسًا لدى شاكر، لا يقل أهمية عن المنهج ذاته.

وليس مقصد شاكر أن يبين المفكر أو الأديب عن منهجه بنفسه، وأن يذكر مبادئه واجراءاته للقارئ، إنما القضية أن يكون واضحًا مستبينًا له هو، لا يعتريه غموض، أو يكتنفه إبهام. وسيأتي بيانُ كيف تُستَشفُّ المناهج بعد قليل.

عالجت مقالات «نمط صعب ونمط مخيف» قضيتين أساسيتين، كان على محمود شاكر أن يتناولهما،موضحًا من خلالهما منهجه استجابة لطلب صديقه «يحي حقي» في سؤاله عن المنهج في دراسة الشعر الجاهلي- وعند النظر الدقيق، نجد أنهما قضيتان متلازمتان، فتحتا أمامه طريقين لبيان المنهج:

(١) أباطيل وأسمار، محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي - القاهرة ط. الثالثة ١٤٢٦هـ،٢٠٠٥م ، ص١٩.
(٢) أباطيل وأسمار، محمود محمد شاكر ، ص١٨.

القضية الأولى: قضية الفصل في صحة نسبة القصيدة إلى الجاهلية، أو وبطلانِ تلك النسبة، والإقرار بأنها مما صنع خلف الأحمر في الإسلام، ونسبها إلى شاعر جاهليٍّ.

وتلك قضية قديمة، في شأنها يقول شاكر:»بيد أن الفصل فيها كان خليقًا ان يردني إلى «محنة الشعر الجاهلي»، ثم يُفضي بي إلى أكبر قضية أثيرت في زماننا، وهي دعوى من ادعى أن الشعر الجاهلي، أو أكثره «منحول»، أي مصنوع موضوع في الإسلام، ثم نسبَه الرواة عمدًا إلى الجاهلية، لأسباب فصَّلها أصحاب هذه الدعوى»[1].

وثانيةُ القضيتين: هي الفصل في ترتيب قصيدة ابن أخت تأبط شرًّا، وعلى الرغم من الاختلاف الحادث في ترتيب أبيات القصائد الجاهلية، وكونِ هذا الأمرِ كان معروفًا مألوفًا –يقول شاكرٌ:«لكن نشأ لهذه القضية الحديثة ذيلٌ سابغٌ تسحبه حيث سارت فتثير عجاجةً، يسمونها «وحدة القصيدة» وتكون دليلًا على افتقار شعر الجاهلية، وغير شعر الجاهلية أيضًا إلى هذه «الوحدة».

وهذا الرأي بطبيعته حريٌّ أن يقذف بي في مرة أخرى في «محنة الشعر الجاهلي»[2].

وفي حقية الأمر،لم يختر شاكرٌ إحدهما معرضًا عن الأخرى، لكن حازت ثانيةُ القضيتين النصيب الأكبر من مقالاته، ومع ذلك فقد أشار في المقالات الأولى إلى بعضٍ من قواعد المنهج المتعلقة بالقضية الأولى.

فهما إذن قضيتان متلازمتان، أُولاهما كانت سببًا دافعًا في تكوِّن منهج الشاكري في دراسة الشعر الجاهلي وتذوقه، والثانية كانت سببًا داعيًّا لتطبيق المنهج الذي تكوَّن عن الأولى، وتفرع منها.

---

(١) نمط صعب ونمط مخيف، محمود أحمد شاكر، ص٢٩٢.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٩٣.

فعاد الأمر في كلا الحالين إلى المنهج تكوُّنًا وتطبيقًا.

ومن ثَمَّ انتفتح للأستاذ طريقان للأجابة عن سؤال «يحي حقي» عن المنهج العلمي في دراسة الشعر الجاهلي[1]:

الطريق الأولى: طريق نظري، يقتضي شاكرًا أن يكشف عن أصول منهجه المخبوء في ضميره، وهو عمل لم يكن مقيدًا مكتوبًا، وكان هذا الطريق محفوفًا بأنواع من المشقة في خطوات تقييده كمنهج نظري، يقول شاكر:«فإذا أردتُ أن أقيده أو أكتبه، كان لزامًا علي عندئذ أن أراجع ما قضيتُ عمري كله فيه منذ»محنة الشعر الجاهلي، وأن أستقصيَ كلَّ شاردة وواردة مما وقفتُ عليه يومًا ما، أو تنبهتُ له، وأن أتتبع كلَّ ما كان عونًا على استخلاص منهجي في دراسة الشعر، وأن أعيد مرة أخرى مناقشتي للأسباب (ولا أقول للحجج والبراهين)التي بُنيت عليها دعوى من ادعى أن الشعر الجاهليَ كله أو أكثرُه مصنوع في الإسلام،..ثم أنظرُ مرة أخرى في كل قصيدة من شعر الجاهلية، وكل قصيدة من شعر الإسلام إلى عهد الرواة في القرن الثاني أو الثالث، فأستخرج فرقَ ما بينهما جميعًا في أساليب الشعر، وفي الخصائص التي يكون بها الشاعر شاعرًا،..فإذا ما تم ذلك عدتُ فاستخلصت أصول المنهج وقواعده، فجعلتُها أبوابًا محمكة، وفصولًا معقودة، مشفوعة بالحجة والبرهان والمثال والشاهد...فإذا سولت نفسي أني قادرٌ على أن أكتبه في مجلة، كان لزامًا علي أن أختصره اختصارًا، فأطرح أكثر براهينه وحججه وأمثلته وشواهده، ليكون قواعدَ عاريةً مجردة، ولو فعلتُ ذلك لم يكن لكل ما أقوله قيمةٌ يُعتدُّ بها، فيما أرى، لأن

(١) نقصد بالمنهج ما صرح هو به «المنهج العلمي في دراسة الشعر الجاهلي»، فهذا الذي نعتمد عليه بالدراسة، وليس غيرَه، كمنهجه العلمي في التحقيق مثلًا، كما أننا نتعرض لما يتوافق مع لغة النص خصوصًا، في المعايير والوظيفة والخصائص.

الأمر كله صار تحكُّمًا صِرفًا، وافتياتًا محضًا، ليس لأحد فيه نفع، ولا ينبغي لعاقل أن يأخذ عن أحد شيئًا إلا بحجة يجب التسليم بها»[1].

لكل هذه الأسباب وللعناء المضني؛ أعرض شاكرٌ عن هذا الطريق،ولم يختره.

الطريق الثاني: ويكون بأن يتخذ هذه القصيدة-والتي يعدُّها شاهدًا واحدًا للمنهج- مثالًا لتطبيق منهجه، في تحقيق نسبة الشعر الجاهلي، وفي دراسته بعد ذلك.

يقول شاكر:«فلما اخترتُ هذا الطريق الثاني، طريقَ تطبيق المنهج، حرصتُ بعضَ الحرص على تقرير نبذٍ من قواعد المنهج وأصوله في خلال التطبيق، وأغضيتُ عن بعض العيب والنقص الذي يلحق بهذا التقرير. وذلك أن بعض هذه القواعد والأصول لا يُتبين وجهه، ولا ينقشع غموضُه إلا بترادف الشواهد المختلفة وتفسيرها وشرحها، وأنا هنا مقتصر على شاهدٍ واحدٍ لم أتجاوزه،وهو هذه القصيدة»[2].

ومن هنا كان من اللازم أن نتتبع المنهج، أسبابَ تكوِّنه، طبيعتَه، سماته ذات العلاقة بعلم اللغة النصي.

(١) نمط صعب ونمط مخيف، محمود أحمد شاكر، ص٢٩٣- ٢٩٤.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٩٥.

المبحث الأول
محنة الشعر الجاهلي وأثرها في تشكُّل المنهج

قضية محنة الشعر الجاهلي كما سماها الأستاذ – أحاطت به إحاطة مطبقة، وتملكت ذاته ظاهرًا وباطنًا، وكانت من وراء كتابات كثيرة تجرد لها قلمه[1]، وهي إحدى الدوافع لكتاب «نمط صعب، ونمط مخيف».

«ولو كان الأمرُ أمرَ جيلٍ مضى أكثرُهُ،وبقي أقلُّه مسرعًا إلى غاية كل حيٍّ، لهان الأمر، ولكنه جيل ألقى في حياة الأجيال التي جاءت بعده كل ما تمزقت به حياته ـ وتبعثرت به خطواته، منذ كانت محنة الشعر الجاهلي، فتسرب التمزق والتبعثر خفيًّا وظاهرًا، في جيل بعد جيل...ورأيتني ظالمًا إن أنا أغفلتُ حقَّ ناشئة الأجيال العربية عامة، وحقَّ ناشئة النقاد الشعراء منهم خاصة،..فهم الورثة، وكل ما نملك نحن ميراثٌ آيلٌ إليهم غدًا أو بعد غدٍ»[2].

١-المحنة بدايتها، حقيقتها، آثارها:

والكلام عن هذه المحنة يُعدُّ تأريخًا لمنهج محمود شاكر بالأساس؛ لأنها القضية الكبرى في حياته التي دفعت إلى تكوّن المنهج وتشكُّله، وقد صرّح شاكر بهذا الأمر،

---

(١) يقول شاكر: «وهي قضية أكثرتُ من ترديد ذكرها في مواضعَ مختلفات في أكثر ما أكتب، لأنها القضية التي أحدثت في حياتي، وفي طلبي للعلم تغييرًا حاسمًا، فيما بعد سنة ١٩٢٦، وأنا يومئذ في السابعةَ عشرةَ من عمري، وهي بلا شكٍّ، مرتبطة ارتباطا ما بالدكتور طه حسين وبسماعي محاضراتِه في الشعر الجاهلي «جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر، جمع وتقديم د. عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي ط. الثالثة ٢٠١٣م جـ٢، ص ١٠٩٨، من مقال بعنوان: «المتنبي ليتني ما عرَفتُه»، نُشر عام ١٩٧٨م بمجلة «الثقافة» العدد ٦٠.

(٢) نمط صعب ونمط مخيف، محمود أحمد شاكر، ص٢٩١- ٢٩٢.

في قوله: «وإن كان ما أكتبه الآن ليس تاريخًا للأدب، بل تاريخًا لمنهجي في دراسة الشعر الجاهلي، أي تاريخًا لنجاتي من «محنة الشعر الجاهلي»[1].

ولا يسَعُنا أن نوافق شاكرًا، في كونها تاريخًا لمنهجه فقط، نعم قد أراد هو أن يكون كذلك، لكنَّ الحديثَ عن تلك القضية، من حيث أراد الأستاذ شاكر أو لم يُرد، يعدُّ تاريخًا لمرحلة مهمة من مراحل الأدب في العصر الحديث؛ ترتبت عليها آثارٌ بالغة الخطورة على حياتنا الأدبية.

تعرض شاكر في بداية حياته لمحنة، سمَّاها هو «محنة الشعر الجاهلي»، تتلخص دعواها في أن الشعر الجاهلي موضوع مصنوع، صنعه رواة في الإسلام، ونسبوه إلى الجاهلية.

تعرف شاكر لأول مرة هذه المقولة سنة ١٩٢٥م، على يد محمود تيمور باشا، عندما أهدى إليه مجلة إنجليزية تشتمل على مقال لـ«مارجليوث»، يشكك فيها في الشعر الجاهلي، ويزعم أنه موضوع منحول. كانت هذه هي المرة الأولى التي تعرض فيها لهذه الدعوى، ولم يستشعر منها خطورة تُذكر؛ لأن من تولى كِبَرَها رجل من المستشرقين، وكفى بهذا الوصف تهمةً في عدم الالتفات لقوله[2].

---

(١) نمط صعب، ونمط مخيف، ص٣٣٠.

(٢) يقول شاكر:

(أ) «لم أُلقِ بالًا إلى هذا الذي قرأتُ، وعندي الذي عندي من هذا الفرق الواضح بين الشعر الجاهلي والشعر الإسلامي «انظر» المتنبي «محمود محمد شاكر، شركة القدس، مصورة من طبعة مكتبة الخانجي – القاهرة، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧م، ص١٢.

(ب) «لم يكن لمثل هذه الآراء في الشعر الجاهلي وغيره وَقْعٌ في نفسي يثيرني، اللهم إلا ما يثير تقززي، فما أسرعَ ما أُسقط ما أقرأ من كلامهم جملةً واحدةً في يمِّ النسيان».

لكنَّ الأمر اختلف تمامًا عندما تعرض لها في المرة الثانية، كانت هذه المرة، خلف أسوار الجامعة، في قاعة الدراسة، حين كان طالبًا في كلية الآداب في سنة ١٩٢٦م،على يد أستاذه طه حسين[١]، ولم تكن تعرض هذه المرة مستنكَرة مأبيةً، إنما كانت تعرض لتُقرَّ ووليُسلَّمَ به[٢]، يقول شاكر: «دخلتُها (الجامعة) ومعي فورة الشباب وأحلامه وتهاويله،

(١) يقول شاكر:«كنتُ في سنة ١٩٢٣، وسنة ١٩٢٤، أقرأ على شيخي سيد بن علي المرصفي إمام العربية في زماننا، وهو شيخ الدكتور طه أيضًا، وكنتُ في ذلك الوقت أقرأ ما كان يكتبه الدكتور طه في صحيفة السياسة، وهو» حديث الأربعاء «فجاء يوما على لساني وأنا عند الشيخ ذكرُ الدكتور طه، فعرفت من الشيخ أنه كان يقرأ عليه بعضَ ما كنَّا نقرأه عليه، وبهذا النسب القريب، كما يقول أبو تمام، تاقت نفسي إلى معرفة الدكتور طه، فسعيتُ إليه سعيًّا، وعرفتُه من يومئذ عن قرب، كنتُ صغيرًا وكان هو في نحو الخامسة والثلاثين من عمره، ومع هذا التفاوت في السن: فقد قربني الرجلُ إليه حتى اطمأنَّ قلبي وانطلق لساني، فبجرأة الشباب كنت أخالفه أحيانًا كثيرة فيما يكتب، وبجهل الشباب أيضًا أحاوره وأجادله بقليل علمي،..وهكذا كان الأمر بيني وبينه قبل دخولي الجامعة وقبل إنشائها، والدكتور طه يومئذ لم يكن سوى كاتب أديب يكتب في الصحف والمجلات، وأنا يومئذ قارئ لما يكتبه، أقرؤه في البيت والشارع وعلى ظهور المقاهي «انظر مقال» المتنبي ليتني ما عرَفته»، مجلة « الثقافة» العدد ٦٠.

(٢) لابد من الإشارة إلى أن شاكرًا حين صدمته قضية الشعر الجاهلي، في مرتيها الأولى والثانية،لم يكن خلوًا فارغًا من التمييز بين الشعر الجاهلي والشعر الإسلامي، فبفضل دراسته على يد الشيخ المرصفي، وقد كان رجلًا «ذواقة « للشعر يطرب ويهتز له، بفضل هذه الدراسة والتأثر بالشيخ وإقباله على الشعر الجاهلي، وهو السابعةَ عشْرةَ من عمره، أصبح يستشعر فرقًا بين الجاهلي وغير الجاهلي من الشعر، لكنه لا يستطيع أن يقف على حقيقة ذلك الفرق، يقول هو عن نفسه: «بدأتُ أجد في هذا الشعر الجاهلي شيئًا مباينا مباينة سافرة لما في الشعر العباسي كله، بل أكثر من ذلك: أني افتقدتُ هذا الشيء أيضًا في أكثر ما قرأتُ من الشعر الأموي، الذي لا يفصل بينه وبين الجاهلية إلا المئة الأولى من التارخ الهجري، وهو زمن قليل لا يعتد به، ثم لم يكن الأمر راجعًا إلى ألفاظ الشعر من حيث غرابتُها عندي وألفتها، ولا إلى تغاير أوزان الشعر وقوافيه، ولا إلى اختلافٍ في المعاني والأغراض أيضًا، فكل ذلك بلا شك قريب من قريب، ثم هو بلا ريب، غير راجع إلى الحداثة والقدم، كما تُوهم لجاجةُ عصرنا في شأن «القديم» و«الحديث» لأن الذي بيني وبين الجاهلية خمسةَ عشَرَ قرنًا تقريبًا، والذي بيني وبين الشعر الأموي والعباسي جميعًا ثلاثة عشرَ قرنًا تقريبًا، والبعدُ بيني وبين جملة هذا الشعر، في الثلاثةَ عشرَ قرنًا والخمسةَ عشرَ قرنا، بُعدٌ واحدٌ أو شبيه بالواحد، فكلُّ هذا عندي قديم مُعرِق في القدم، وكان غيرَ معقول عندي أن يكون هذا الفرقُ الساطع الذي وجدتُه في نفسي بين الشعر الجاهلي والشعرالأموي، مردودًا إلى فطرتي اللغوية أو إلى قريحتي، =

دخلتها ومعي كل ما قرأته وسمعته من أدب أمتي وتاريخها وأخلاق علمائها وعظمة رجالها،..دخلتها ومعي أيضًا «متن مارجليوث» في «مسألة الشعر الجاهلي» مطروحًا في قرارة يمِّ النسيان،..ألقيتُ بكل سمعي مصغيا إلى أستاذنا الدكتور طه، وهيبة الأستاذية تملأ قلبي وهو يردد كلماته، وأنا واقع في أسر كلماته،..وبغتةً، ومن قرارة يمِّ النسيان، طفا «متن مارجليوث» كتابًا مفتوحًا، أقرأ «المتن» بعيني، وأسمع الحاشية بأذني، وأخذني ما أخذني من الحيرة والدهشة والارتياع»[1].

تمر الأيام وتتابع المحاضرات، وهو يكاتم ما يعتمل في نفسه من الضيق والحنق لما يرى ويسمع، ويمنعه أدب الطالب مع الأستاذ من المكاشفة الجارحة، حتى جاء اليوم الذي غُلبَ فيه على ما كان يمتنع منه، وقام ليناقش الأستاذَ في قضيتي الشك والمنهج –لا قضية الشعر الجاهلي والسطو على مقال «مارجليوث» –، الذي كان الدكتور طه يؤسس لهما في محاضراته.

«ومن يومئذ لم أكُفَّ عن مناقشة الدكتور في المحاضرات أحيانا بغير هيبة، ولم يكُفَّ هو عن استدعائي بعد المحاضرات، فيأخذني يمينًا وشمالًا في المحاورة، وأنا ملتزم في كل

= لأننا في زماننا هذا لا نحتكم إلى سليقة في العربية فاشية في مجتمعنا اللغوي،..وإذن، فأنا لا أستطيع أن أجد هذا الفرق يلوح جهرةً في نفسي(وأنا يومئذ على رأس السابعةَ عشرَ من عمري وعلى حداثة عهدي بطلب الأدب، إلا إذا كان الشعر الجاهلي نفسُه يتلفَّع على هذا الفرق المتوهج في ثناياه، وإن كنت لا أستطيع عجزًا أن أضع يدي عليه وأقول: هنا يكمن الفرق،..ولكني بالمقارنة وجدتُ ترجيع الشعر الجاهلي ورنينه ودندنته، مباينة كلها مباينةً ظاهرةً لما أجده في أكثر الشعر الأموي والشعر العباسي من الترجيع والدندنة،..بمثل هذا كنتُ أُفاوض الشيوخ الكبار ممَّن عرفتهم ولقيتهم « المتنبي ص٩-١١، وكان من آثار ذلك التفريق الذي يدركه، لكنه يعجز عن الوقوف على حقيقته، أنه لم ينخدع بمقالة «مارجليوث»، ولم تُثر عنده إلا التقزز.

(١) «المتنبي ليتني ما عرَفتُه»، محمود محمد شاكر عام ١٩٧٨م بمجلة «الثقافة» العدد ٦٠.

ذلك بالإعراض عن ذكر سطوه على مقالة «مارجليوث»، صارفًا همِّي كله إلى موضوع» المنهج و «الشك»[1].

ودارت الأيام على هذا المناول، و لم يزد دورانُها الجامعةَ ومعناها، في نفس شاكر إلا تصدُّعًا، ثم انهارت من نفسه، فخرج من أنقاضها وركامها محمَّلًا بقضية الشعر الجاهلي، مُقرِّرًا قرارينِ، الأول: مغادرة الجامعة بغير رجعة[2]، والثاني: العزلة حتي يتبين له وجه الحقِّ في «قضية الشعر الجاهلي».

---

(١) «المتنبي»، محمود محمد شاكر، ص١٧.

(٢) وفي نبأ مفارقته للجامعة، والمشاهد الأخيرة منها، ما يدلُّ على توطد مكانته بين أستاذة الجامعة وبين طه حسين نفسه، وعلى أن هذا القرار كان قرارًا مرجفًا وحدثًا جللًا، على كل من أحاط به، يقول:«انقطعتُ عن الذهاب إلى الجامعة فجأةً، لم أرَ أحدًا من زملائي البتة، وعزمتُ على أن أسافر إلى مكة والمدينة طلبًا للعزلة، ولم أخبر أحدًا فقط بعزيمتي إلا رجلًا واحدًا، كان قد أطال المقام في مصر، وصار بعدُ سفيرًا للسعودية، وهو الشيخ»، فوزان السابق، ـ رحمه الله ـ. كان صديقًا لأبي وإخوتي، وكان يعرفني أوثق معرفة،استمع الرجل إلي، وكان وديعًا طيبَ النفس، فبعد لأيْ قَبِل أن يُعينني، وأخذتُ عليه العهدَ أن لا يخبر أحدًا من أهلي بما عزمتُ عليه، ورحتُ أسعى سعيًا حثيثًا حتى استخرجتُ شهادة الإعفاء من الخدمة العسكرية، بعد دفع رسوم «البدلية»، كما كانوا يسمونها، وأعانني الشيخ فوزان حتى استخرجت جواز السفر بعد جهد جهيد، فلما وضعتُ الجواز في جيبي واطمأنَّ قلبي، ذهبت إلى أبي ـ رحمه الله ـ فكاشفتُه بجلية أمري، لم تأخذه دهشةُ المُنكِر، خُيِّل إليَ أنه كان يعرف!! ظللت أيامًا بين يديه، يحاورني ويحاول أن يقنعني بالإقلاع عمَّا عزمت عليه، لا هو يقتنع بما أقول وبما أُمَنِّي النفسَ به مختالًا، ولا أنا أقتنع بما يقول، وأخيرًا ذكر لي بيتَ النابغة الذي مرَّ آنفًا:

ولا تذهب بحِلْمِكَ طامِياتٌ من الخُيلاءِ ليس لهنَّ بابُ

وقال: «ستجد الأبواب مغلقةً دون أمانيك بالضبة والمفتاح، وستعود إلينا بعد أن تضيق كما ذهبتَ، فافعل ما تشاء، وألقى حبْلي على غاربي، ووافق على سفري، وبدأتُ أعدُّ العدةَ، وجمعتُ جميع كتبي وعبأَّتها، ولكن من الطريف أني أقصيتُ منها جميعَ كتب الدكتور طه حسين، وهبتُها لصديق لي رحمه الله، فلم أكد أستقرَّ في مدينة جدة بالحجاز، وهدأت نفسي، حتى عُدتُ فاشتريتها جميعًا من مكاتب جدة، كان سخفًا مني ولكن هكذا كان!! =

= وذات يوم في الصباح الباكر دخل عليَّ زميلي وصديقي الأستاذ محمد الخضيري، يستطلع أمرَ غيْبتي عن الجامعة، وكان قد سأل عنِّي مرات بالهاتف ولم يجدني، فلما جلس، أفضيتُ إليه بالأمر كله، ففزع قائمًا، وكاد يبكي.

فلما أخبرتُه بجميع ما في نفسي، أطرق وسكن، وبقي قليلًا ثم انصرف، وفي العشية فوجئتُ بمَقدِم الأستاذ نلينو، ولكن هدؤه وبشاشته وهو يسألني عن أبي كعادته كلما جاء يزوره نفت الشك عن قلبي، فأخبرت أبي بمجيئه، فلما التقيا وجلسًا، فوجئتُ بالأستاذ يتكلم ويذكرني وصوته يتهدج ويتقطع من الغضب والأسف، فرجف قلبي وقمتُ من فوري ذاهبًا على وجهي أحثُّ الخطى، من دارنا في الحلمية الجديدة، ولم أنتبه إلا والمؤذن يؤذن لصلاة المغرب، من مسجد قريب في منطقة الدقي فصليت المغرب ثم انقلبتُ راجعًا إلى البيت بعد صلاة العشاء، أخبرني أبي أن الأستاذ نلينو جاء نائبًا عن الدكتور طه حسين، وأن الدكتور طه استحسن ذلك لأنه كان أستاذه وهو اليوم أستاذي أيضًا، قال: إنه دعا الأستاذ نلينو والأستاذ جويدي على الغداء عندنا بعد غد، جاء هذا الغد، وعدت إلى البيت بعد الظهر، لأجدَ الأستاذين نلينو وجويدي ومعهما أكثر من عشرين ضيفًا، كلهم يعرفني، وهم من الأساتذة في دار العلوم، ومدرسة القضاء الشرعي، وفي الأزهر، وآخرين من أساتذتنا الكبار في ذلك العهد، وبعد الغداء وقعت بين المطرقة والسندان، كلٌّ يتكلم مسفِّهًا لي ضِمنًا أو علانية، وأنا أردُّ مرة وأسكتُ مرات حتى بلغ مني الجهد، وأخيرًا وقف الأستاذ نلينو فجأة، ووجَّه الحديث إلى أبي وقال: إن واجبه ديانة(غريبة)! أن يمنع ولدَه من السفر، فقال له أبي رحمه الله: «لا آمرُ ولدي في شيء، وقد حاولتُ أن أقنعه بالحجة بعد الحجة فلم يقتنع، وها هو ذا بين يديك، فإن استطعتَ أن تبلغ في إقناعه ما لم أبلغ، فقد شفيتَ صدري وأرحتني، أما القسرُ، فلا قسرَ عندي يا أستاذ نلينو، فالتفتَ إليَّ نلينو، وأطبقَ عليَّ خانقًا، فلم أجد لي مخلصا من قبضته إلا المصارحة، فقلتُ له: نعم أنا مقتنع بكل ما تقوله عنِّي وعن تسرعي وتهوري ومخاطرتي بمستقبلي، ولكني لم أكن كما وصفتَ إلا لشيء واحد، هو أن معنى «الجامعة» في نفسي قد أصبح أنقاضًا وركامًا، فإن استطعت أن تعيد لي البناء كما كان، فأنا أولُ ساكنٍ يدخله لا يفارقه. قال: ماهذا، ماذا تعني؟

قلتُ: أنت تعلم أني بقيتُ معك في الجامعة سنتين لم أبرح، وتعلم ما كنتُ أقوله عن «مسألة الشعر الجاهلي» التي نسمعها في محاضرات الدكتور طه، وأن هذا الذي نسمعه ليس إلا سطوًا» مجردًا على مقالة «مارجليوث»، وأنت وجميع الأساتذة تعلمون صحة ذلك، وفي خلال السنة الماضية، نُشِرت كتبٌ ومقالات في الصحف تكشف ذلك أبينَ كشف – ولكن لم يكن لهذا الكشف عندكم في الجامعة صدًى إلا الصمت، فهذا الصمت إقرار من الجامعة وأساتذتها بهذا المبدإ، مبدإ «السطو» قد مضتْ عليَّ سنتان صابرًا، أما الآن، فلم أعد قادرًا على التوفيق بين معنى «الجامعة» في نفسي، وبين هذا المبدإ الذي أقررتموه، فتقوض معنى «الجامعة» في نفسي، وأصبح حطامًا، فكيف تطالبونني بأن أعيش سنواتٍ أخرى بين الحطام والأنقاض؟ وأي خير أرجوه، أو ترجونه منِّي؟ إذا أنا فعلتُ ذلك راضيًا أو غيرَ راضٍ؟ =

خرج محمود شاكر من الجامعة، بعد أن باءت كل محاولات إرجاعه بالفشل، إلى عزلة ضربها على نفسه، عاكفًا على قراءة المورث الشعري،طالبًا اليقينَ في «قضية الشعر الجاهلي»، التى قد رأى آثارها، كما رأى ميلادَها، وما أثارته من غبار على التراث الأدبي العربي نثرِه وشعرِه،وما أدته من «إعراض الناشئة من الشعراء والنقاد عن الشعر القديم كلِّه، ثم نظرهم إليه نظرة استخفافٍ وازدراءٍ واستهانة، ثم ما أعقب ذلك من زوال كل اهتمام بدراسة هذا الشعر القديم، وبإعادة النظر فيما قيل فيه، ثم كان ما هو أخطر من ذلك، وهوو زوالُه من برامج التعليم الابتدائي والثانوي زوالًا تامًّا، إلا بقية قليلة تُعرض إبراءً للذمَّة، مع فساد البيان عن هذا القليل المزدَرى»[1].

فهذا ما خلفته هذه القضية على الأمة، وعلى تراثها الأدبي، ولم يكن وقتٌ طويل لتبدوَ، هذه الآثار، بل ظهرت آثارها ظهورًا سريعًا؛ ليشهد مَنْ نفخَ فيها الروح والداعي إليها ما خلَّفته من عواقب وخيمة.

= شيءٌ واحدٌ: أن يعلن الدكتور طه حسين أن الذي يقوله في «مسألة الشعر الجاهلي»، هو قول مارجليوث بنصه، وليقل بعد ذلك أنه يؤيده ويناصره ويحتجُّ له، أو لا يقل، فإذا فعل، فستجدني غدًا أولَ طالبٍ يُرابط في فناء الجامعة قبل أن تشرقَ الشمس، أمَّا مع هذا الصمت، فإن نفسي لا تطيق أن تسكن الديار الخربةَ !

وَجِمَ نلينو، وأحسستُ بنظرات العيون تنفذ كالسهام في جميع أعضائي، وبغتة قال الشيخ عبد الوهاب النجار رحمه الله: «إن هذا الفتى كان في رأسه أربعة وعشرون برجًا، فطارت ولم يبقَ إلا برج واحدٌ، عسى أن ينتفع به يومًا ما، فيستردَّ الأبراج التي طارت ! وسكتَ، وحيرتني كلماته، ولم أدرِ ما عناه، أهُوَ راضٍ عمَّا قلتُ أم غير راضٍ؟ ثم بدأ نلينو يتكلم مرة أخرى هادئًا معرضًا عنِّي، وعرض على والدي حلًّا آخر لإنقاذي ولكني لم أستجب لهذا الحلِّ، وبعد يومينِ كنتُ على ظهر الباخرة التي تُقلُّني إلى مدينة جدة، فنزلتُها، وشددتُ الرحال إلى بيتِ الله الحرام، فقضيت عمرتي، ثم عدتُّ إلى جدة بعد أيام، فأجد أولَ رسالة تلقيتُها من أبي وفي آخرها، يقول: «زارني في عصر اليوم الذي سافرتَ فيه إلى السويس، الأستاذ نلينو والدكتور طه حسين»، ولم يزد على ذلك وختم الرسالة، «انظر»المتنبي ليتني ما عرَفتُه «مجلة الثقافة» السنة الخامسة – العدد ٦٠ سبتمبر ١٩٧٨.

(١) نمط صعب ونمط مخيف، محمود أحمد شاكر، ص٣١٨.

«لم تكد تمضي عشر سنوات على ظهور كتاب «في الشعر الجاهلي» أي في سنة ١٩٣٥ حتى أدرك «طه حسين» إدراكًا واضحًا جدًّا أن اللسان العربي قد صار في محنة، لا في نفسه، بل في هذه الأعداد الهائلة من المثقفين الذين رفضوا الأدب العربي كله، ورفضوا القديم كله شعرَه ونثرَه، لا في مصر وحدها، بل في كثير من البلاد العربية، وأن عددهم تكاثر كلما تقدمت الأيام، فأخذ يعبر عن ذلك بألفاظ محزنة باكية، وحاول أن يتألَّف هؤلاء النافرين ويردَّهم إلى الطريق القديم[1]، وإلى أدبهم القديم «لكي يظل قوامًا

(١) (أ) يقول شاكر:«ومعنى ذلك أن: طه حسين» في تلك السنوات، قد فزِع فزعًا شديدًا لانصراف الناس عنه وعن عربيته التي كان يحبها، وعن لغته التي يحرص على سلامتها، وعن بيانها الذي يعتز به، ومعنى ذلك أيضًا أن «الدكتور، طه حسين» في سنة ١٩٩٣٥، علِم عِلم اليقين أن الذي أثاره بألفاظه المفزعة سنة ١٩٢٥،قد خرب البنيان الذي كان يظن يومئذ أنه سوف يبنيه بعد أعوام قلائل،.. أدرك «طه حسين» أن الذي قاله في سنة ١٩٢٥ مفض إلى ضعف اللغة العربية «انظر مقال» كانت الجامعة هي طه حسين»، نُشر عام ١٩٧٥م بمجلة «الكاتب» العدد ١٦٨.

(ب) «ومع ذلك، فقد حاول الدكتور من يناير١٩٣٥إلى٢٢مايو١٩٣٥، أن يردَّ هؤلاء الذين كرهوا الأدب القديم أشدَّ الكره، كما قال، فجعل يكفكف من غُلوائهم، ويُظهرهم في مقالاته على روائع «الشعر الجاهلي»، من شاعر بعد شاعر، وبذل من الجهد ما بذل، ولكن ذهب كلُّ هذا هباءً وهدرًا، لقد أفلت الزمام، انظر: «نمط صعب، ونمط مخيف»ص ٣٧٨.

(جـ) ويقول أيضًا:«ولعل الدكتور طه، أو هكذا ينبغي أن أتكلم: لعل الدكتور طه، حين ألقى محاضراته ونشرها كتابًا يتداوله الناسُ، كان مريدًا أن يستحثَّ همَ الشباب إلى بعث الآداب قديمها وحديثها، مهما كان فيما أتى من الشذوذ على ما توارثه الناس، ومن الغرابة على عما أَلِفوا ولهِجوا بترديده، لعله كان يرجو ذلك، ولكنَّ رجاءه ضاع أيضًا فيما ضاع انظر: «نمط صعب، ونمط مخيف» ص٣٧٦.

(د) «لقد لقي طه حسين يومئذ ما لقي، ونُسب إليه ما أقطع بأنه برئ منه، والدليل على براءته عندي هو أنه منذ عرَفته في سنة ١٩٢٤، إلى أن تُوفي ٢٨ أكتوبر١٩٧٣، كان كما وصفته في أول حديثي، محبا للسانه العربي أشدَّ الحب، حريصًا على سلامتها أشدَّ الحرص، متذوقا لروائعه أحسنَ التذوق، فهو لم يكن يريد قط باللسان العربي شرًّا، بل كان من أكبر المدافعين عنه، المنافحين عن تراثه كله إلى آخر حياته، ومحال أن يحشر في مَن هذه خصاله في زمرة الخبثاء ذوي الأحقاد من ضِعاف العقول والنفوس، الذين ظهروا في الحياة العربية لذلك العهد: «انظر كانت الجامعة هي طه حسين»، نُشر عام ١٩٧٥م بمجلة «الكاتب» العدد ١٦٨.

للثقافة، وغذاء للعقول، لأنه أساس الثقافة العربية، فهو إذن مقوم لشخصيتنا محقق لقوميتنا، عاصم: «لنا من الفناء في الأجنبي، معين لنا على أن نعرف أنفسنا»[1].

قد كان ما كان، وبرز إلى الحياة الأدبية «قضية الشعر الجاهلي»، وقد كانت حدثًا مروعًا مخيفًا، على نفوس الغيورين من أبناء هذه الأمة، وعلى نفس محمود محمد شاكر، لا من حيث هي بذاتها فقط، ولكن من حيث ما جرته واستتبعته من قضايا ذات خطر، وُلدتْ بميلادها وقارنتها في مسيرها، تَبيتُ معها حيث باتت وتَقيل معها حيث قالت.

ومن هذه القضايا، قضيتان مهمتان، الأولى منهما عامة في حقيقتها وصورتها، والثانية خاصة في صورتها، وعند التفحص والتدقيق، هي كأختها في بُعديها الحقيقي والصوري.

أما القضية الأولى، فهي قضية الوحدة العضوية، التي وُلدتْ مع « قضية الشعر الجاهلي « أو تكاد، التي أثمرت ثمار الإعراض عن الشعر الجاهلي وغير الجاهلي، والنظرَ إليه على أنه أكوام مفككة، لا تحمل على تكاثرها واجتماعها معانيَ تترابط، وتتواشج وتتسق جميعًا داخل إطار معنوي ودلالي متماسك.

يقول شاكرٌ، مُبِينًا ما أورثته من سوء الظن بعلماء الأمة، وإعراضٍ عما تركوه من ميراث شعري:«وإذا تلقى الناشئ عمن يعلمه صدقَ هذه القضية الغريبة، أليس أولَ معنى يقع في نفسه بعد أن يشتدَّ عوده: أن أكثر من خمسةَ عشَرَ قرنًا، كل قرنٍ مئةُ سنةٍ، كل سنة ثلاثُمئةِ يومٍ وأربعةُ وخمسون يومًا، مضت على أمة تتكاثر قرنًا بعد قرن، وشعراؤها

(١) جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر، جمع وتقديم د. عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي ط. الثالثة ٢٠١٣م جـ ٢، ص١٠٥٠، من مقال بعنوان: «كانت الجامعة هي طه حسين»، نُشر عام ١٩٧٥م بمجلة «الكاتب» العدد ١٦٨.

المُبيِّنون عن تجاربها وحكمتها وعقلها وحضارتها، وعن إحساسها بالجمال، وعن كل ما يكون به الحيُّ حيًّا له معاناة يعانيها في هذه الحياة، فيتغنَّى ويترنم شعراؤها، هؤلاء ظلوا هذه القرون الطوال، بأيامها ولياليها وساعاتها، يتكلمون بكلام مفككٍ معبثر لا يربط بعضه ببعض شيء؟»[1].

وأمَّا القضية الثانية، فهي قضية «إعجاز القرآن»

فلم تكن قضية الشعر الجاهلي من حيث هي بذاتها، سببًا للمحنة التي أحاطت بشاكر، إنما كان مكمن خطورتها من حيث ارتباطها، بإعجاز القرآن، وكونه حقًّا منزَّلًا من عند الله.

«كانت محنة»، وكان عليَّ أن أنجو أو أهلِك فيمن هلك، تناهشني الشكوك والريب، ووجدتني يومئذ مخذولا لا معين لي من داخل نفسي ولا من خارج نفسي، لا علمَ عندي ينصرني، ولا متاب أعرفه يغيثني،غدرت بي نفسي، نكثت عهدَها الكتبُ، وأحاطت بي الشكوك القواصم، وأطبقت على ظلمات بعضها فوق بعض، أخرج يدي فلا أكاد أراها، وكدت ساعة أن أنفض كل شيء نفضةً واحدة، ضنا بنفسي على الهلاك، وطلبًا للنجاة»[2].

وهذا الذي عناه شاكر بقوله:«حسبنا هذا القدر من المسير في الطريق الموحش المهجور الذي رمت بي فيه، كما قلتُ «محنة الشعر الجاهلي»، حين أخذتني قديمًا فقذفتني قذفًا في الأمر المخوف المهوب، الذي تنخلع عنده القلوب، وهو إعادة النظر في شأن «إعجاز القرآن»[3].

---

(١) نمط صعب ونمط مخيف، محمود أحمد شاكر، ص٣١٩.

(٢) «المتنبي ليتني ما عرَفتُه «محمود محمد شاكر مجلة «الثقافة» العدد ٦١أكتوبر ١٩٧٨.

(٣) «المتنبي ليتني ما عرفته «مجلةالثقافة» السنة السادسة، العدد ٦٣، سنة ١٩٧٩.

فكانت قضية «الإعجاز» من وراء المحنة، ومن وراء تَكوِّنِ المنهج أصالةً، وكانت مستترة بـ«قضية الشعر الجاهلي»، ومرتبطة به، ومتداخلةً معه، تدخلًا تامًّا.

ويتضح ذلك من أن «إثبات دليل النبوة، وتصديق دليل الوحي، وأن القرآن تنزيل من عند الله، كما نزلت التوراة والإنجيل والزبور وغيرها من كتب الله سبحانه، لايكون منها شيء يدل على أن القرآن معجز، ولا أظن أن قائلًا يستطيع أن يقول إن التوراة والإنجيل والزبور كتب معجزة، بالمعنى المعروف في شأن إعجاز القرآن، من أجل أنها كتب منزلة من عند الله، ومن البين أن العرب طُولبوا بأن يعرفوا دليل نبوة رسول الله، ودليل صدق الوحي الذي يأتيه، بمجرد سماع القرآن نفسه، لا بما يجادلهم به حتى يلزمهم الحجة في توحيد الله، أو تصديق نبوته، ولا بمعجزة كمعجزات إخوانه من الأنبياء مما آمن على مثله البشر، وقد بين الله في غير آية من كتابه أن سماع القرآن يقتضيهم إدراكَ مباينته لكلامهم، وأنه ليس كلامَ البشر، بل هو كلام رب العالمين، وبهذا جاء الأمر في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾[التوبة:٦-٩].

فالقرآن المعجز هو البرهان القاطع على صحة النبوة، أما صحة النبوة فليست برهانًا على إعجاز القرآن»[1].

ومن ذلك يتضح أيضًا أن الرصيد الشعري الجاهلي، دليل على إعجاز القرآن، الذي أعيَ السليقة العربية المستوية آنذاك،أن تأتيَ بمثله، في الوقت الذي دعاهم فيه القرآن إلى إحدى خطتين: الإيمان به، أو معارضته بمثله لكشف زيفه وبطلانِه الذي زعموه فيه، فاختار بعضهم الإيمانَ، واختار البعضُ الآخر التكذيب، العاريَ عن المعارضة.

(١) الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م، ص٢٥.

فقضية الإعجاز إذن، مرتكزةً ارتكازًا على وجود الشعر الجاهلي، وليس هذا فحسب، ومرتكزة أيضًا على تميزه، وبلوغه أعلى درجات الإبداع، بما تمَّ للقريحة العربية من غاية الاستواء والنضج في البيان والفصاحة والبلاغة والتذوق.

وهو خلاصة البيان العربي، والصورة المرئية الشاهدة على العبقرية العربية، فإذا انهار، انهار معه ما طُولِبوا أن يقيسوا ما أنتجوه به، ويضيع ما قام عليه التحدي في أدنى صوره وأعلاها.

«وهو تحدٍّ بلفظ القرآن ونظمه وبيانه، لا بشيء خارج عن ذلك. فما هو بتحدٍّ بالإخبار بالغيب المكنون، ولا بالغيب الذي يأتي تصديقه بعد دهر من تنزيله، ولا بعلم ما لا يدركه علمُ المخاطبين به من العرب، ولا بشيء من المعاني مما لا يتصل بالنظم والبيان»[1].

«وبيانُ ذلك، أن الله سبحانه حين اصطفى من البشر محمدًا ﷺ وابتعثه من العرب رسولًا نبيًّا، لم يجعل له سبحانه آيةً على نبوته، كآيات الأنبياء من قبله بل آتاه آيةً واحدةً، كتابًا عربيًّا منجمَ التنزيل على مدِّ ثلاث وعشرين سنة، يقرأه على مُكْث، وطالبَ السامعيه أن يُقرُّوا أن هذا الكلام العربيَ المنزل هو كلام الله سبحانه، وأنه وإن كان جاريًا على أساليب لغتهم، فإنه مُفارق لكلام البشر، بدليلٍ ظاهرٍ قاهرٍ هم قادرون على تبيُّنِه واستظهاره، فإذا تبينوا ذلك، فالتاليهِ عليهم، وهو رجل من أنفسهم، نبيٌّ مرسل مبلِّغ عن ربِّه كلامَ ربِّ العالمين، وبيِّنٌ أنه لم يطالبهم بذلك التمييز بين نظمه وبيانه، ونظم كلام البشر وبيانهم، إلا وهم قادرون على ذلك التمييز[2].

---

(١) الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م، ص٢٥.

(٢) قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلاَّم، محمود محمد شاكر، مطبعة المدني – مصر، ط. الأولى ١٤١٨هـ ١٩٩٧م، ص٩٤.

«فكيف، إذن، تسنَّى لأصحاب هذا الشعر الجاهلي أن يحكموا لهذا القرآن بأنه آية دالة على صدق التاليه عليهم؟

وطلب الجواب عن هذا السؤال، هو الذي قادني إلى أن أنغمس في قراءة تراث هذه الأمة، من تفسير لهذا القرآن، ومن علوم كثيرة تتعلَّق به وبلغته، من النحو والصرف والبلاغة والأصول والفقه، والحديث النبوي وما يتصل به من علم رجاله ورواته، ثم علم التاريخ، تاريخ الأمة، وتاريخ رجالها، وما وقع من الاختلاف بينهم في ذلك كله،سوى الشعر والأدب على تنوعه، وفي خلال ذلك لم يكن لي مطلبٌ سوى مطلبٌ واحدٌ! أن أجدَ برد اليقين في نفسي، في شأن «الشعر الجاهلي»، وفي شأن ما نسميه «إعجاز القرآن»[1].

«ولقد شغلني «إعجاز القرآن» كما شغل العقلَ الحديث، ولكني شغلني أيضًا هذا «الشعر الجاهلي» وشغلني أصحابه، فأداني طولُ الاختبار والامتحان والمدارسة إلى المذهب الذي ذهبتُ إليه (التذوق)، حتى صار عندي دليلًا كافيًا على صحته وثبوته، فأصحابُه الذين ذهبوا ودرجوا وتبددت في الثرى أعيانُهم، رأيتُهم في هذا الشعر أحياءً يغدون ويرحون، رأيتُ شابَّهم ينزو به جهلُه، وشيخهم تُدلِف به حكمته، ورأيتُ راضيَهم يستنير وجهه حتى يشرق، وغاضبَهم تربد سحنتُه حتى تُظلم، ورأيتُ الرجلَ وصديقَه، والرجل وصاحبتَه، والرجلَ الطريدَ ليس معه أحد، ورأيتُ الفارسَ على جواده، والعاديَ على رجليْهِ، ورأيتُ الجماعاتِ في مبداهم ومحضرهم، فسمعتُ غزلَ عُشَّاقهم، ودلال فتياتِهم، ولاحتْ لي نيرانُهم وهم يصطلون، وسمعتُ أنينَ باكيهم، وهم للفراق مزمعون،.كل ذلك رأيتُه وسمعتُه من خلال ألفاظ هذا الشعر، حتى سمعتُ في

(١) المتنبي، محمود محمد شاكر ، ص٣٦.

لفظ الشعر همس الهامس، وبحة المستكين، وزفرة الواجد، وصرخة الفزِع، وحتى مثلوا بشعرهم نصب عيني، كأني لم أفقدهم طرفةَ عينٍ، ولم أفقد منازلَهم ومعاهدهم، ولم تغب مذاهبُهم في الأرض، ولا شيء مما أحسوا ووجدوا، ولا مما سمعوا وأدركوا، ولا مما قاسوا وعانوا، ولا خفِيَ عنِّي شيء مما يكون به الحيُّ حيًّا على هذه الأرض التي بقيتْ في التاريخ معروفةً باسم: جزيرة العرب»[1].

وبمثل هذا التذوق الكاشف، تهدَّى شاكر إلى دفع ما أثارته «محنة الشعر الجاهلي» من شكوك، وتبين له كيف يكون الربط بين الشعر الجاهلي وإعجاز القرآن، وكيف أن القرآن طالب العرب أن يميزوا بين هذا الكلام، والكلام الإلهي، بهداية من التذوق المستقرِّ في سليقتهم.

ذلك أن المشركين لما كذبوا القرآن تحداهم الله أن يأتوا: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾[هود:١٣]، ثم ﴿بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾[يونس:٣٨]، ثم قضى غاية التحدي فقال لهم: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[الإسراء:٨٨]، ثم لم ينصب لهم حكَمًا يحتكمون إليه سوى أنفسهم، فالأمر كله مفوَّضٌ إليهم، وذلك أيضًا دليل على أنهم كانوا قادرين على هذا التمييز، وأنهم مؤتمنون على هذا الحكم، وإذن، فالأمر في الحالينِ: في طلب إقرارهم بأن هذا القرآن المنزَّلَ مباينٌ بنظمه وبيانه لكلام البشر، وفي الحُكم المفوَّض إليهم في التمييز بين القرآن، وبين ما عسى أن يعارض به المعارضون استجابةً للتحدي، كلاهما دالٌّ على أن المخاطبين بالقرآن كانوا يملكون قدْرًا لا يمكن تحديده من القدرة على تذوق البيان والنظم، تتيح لهم الفصل الواضح بين ما هو كلام البشر، والذي هو مباين لكلام البشر،

(١) مقدمة شاكر لكتاب «الظاهرة القرآنية» لصديقه مالك بن نبي، ص ٣٥، ٣٦.

وتمنحهم اليقين القاطعَ بأن هذا القرآن العربي المنزل بلسانهم، هو كلام ربِّ العالمين، وهو دالٌّ أيضًا على أن هذا القدر من التذوق كان عامًّا فيهم، يستغرق جميع المخاطبين بهذا القرآن، وأنه كان كائنًا فيهم قبل أن ينزل القرآن.

وهذا التذوق العام الذي كان فيهم حين نُزِّل القرآن، يهدينا كونُه إلى أصليْنِ عظيمين لا انفكاك له منهما، أولهما: أنه غير ممكنٍ أن يكون نشأ فيهم ابتداءً عند تنزيل القرآن، بل هو نتيجةُ دهور متطاولة من تذوق البيان في أوسع نطاق التنوع وأشمله، وعلى أعلى درجةٍ من دقَّةِ الإحساس بالأبنية في أوسع نطاق من التنوع وأشمله، وعلى أعلى درجة من دقِّة الإحساس بالأبنية اللغوية المختلفة التي أتيحت للبيان الصادر عن الإنسان في جميع لغات البشر.

وثانيها: أنه لا يمكن أن يكون كان الأمر على هذا الوجه عند تنزيل القرآن، إلا وفي أيدي الناس وفي نفوسهم أمثلةٌ حيَّةٌ كثيرة متنوعة عتيقة جدًّا متداولة بينهم، وأمثلةٌ أخرى محدثة عتيدةٌ ذائعة بين الناس، على اختلاف درجاتهم، لا يكفُّون عن تتبعها وتذوقها، وعن المقارنة بين قديمها ومُحدثها، باهتمام وحرصٍ وشغفٍ غالبٍ، يَصقلُ التذوق صقلًا حتى تبلغ هذه الغاية»[1].

«فإذا كان هذا التذوق المصقولُ المُرهف البالغ أقصى غاية الدقة، والنفاذ في الإحساس بروعة البيان الإنساني، لا يمكن أن يكون قد نشأ ابتداءً حين نُزِّل القرآن وكان غير ممكن أيضًا أن يبلغ هذا المبلغ إلا بعد دهور متطاولة من التذوق النبيل الحُرِّ وكان غير ممكن أيضًا أن ينفُذ هذا النفاذَ إلا وفي أيدي الناس وفي نفوسهم وعلى ألسنتهم، أمثلةٌ وافرةٌ بالغة الوفرة، متنوعة كل التنوع، يمارسون عليها تذوَّقهم ممارسة متأنية متطاولة،

(١) قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلاَّم، محمود محمد شاكر، ص٩٤ـ ٩٥.

حتى يصقل هذا الصقلَ، وحتى ينتهي إلى أقصى حدٍّ من الرَّهَف واللُّطف، وهذه الأمثلة الحية الوافرة المتنوعة، لم تكن إلا من الشعر وحده.

ومعنى هذا أن العرب في العصر الذي نُزِّل فيه القرآنُ العظيم، كان عندهم من الشعر القديم المُعْرِق، ومن الشعر المحدَث في زمانهم وقُبيْل زمانهم بقليل، وقدرٌ لا يمكن تحديده أو حصرُه من هذا الشعر، وكان هذا القدر الوافر البليغ الوفرة، ذائعًا على الألسنة في هذه الجزيرة العربية، من أقصى شمالها إلى أقصى جنوبها، ومن أبعد شرقها إلى أبعد غربها، وأن هذا الشعر كان ملءَ أيامهم ولياليهم وساعاتهم، يتناشدونه في كلِّ منزلٍ، ويتمثَّلونه عند كل موقف ومَسير، ويتذوقونه تذوقًا بصيرا مرهفا، ويفضلون بعضه على بعض، بما اكتسبوا من القدرة على هذا التذوق الفاصل بين أدقِّ درجات البيان على اختلافها وتنوعها»[1].

فبجامع التذوق استكنه شاكر الشعر الجاهلي وسبره، ووقف على حقِّيته وما يرتبط بها من حقية القرآن وإعجازه، وبه أيضًا طولب المشركون أن يختبروا هذا الوحيَ المتلوَّ، وأن يميزوا بينه وبين غيره من كلام البشر، مهما بلغ من درجات البلاغة، ومن ثم يَبينُ لهم صدق المُوحَى إليه به،الداعيهم إلى الإيمان به، والانقياد له.

قد كان ما كان، وتولدت القضية وما تفرع عنها ما تفرع، و نشب في الأمة من آثارها ما توارثته متزايدًا جيلًا بعد جيل، وبقي من آثارها على محمود شاكر – بعد الهداية –أثر إيجابي،..!!

(١) قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلاَّم، محمود محمد شاكر، ص٩٧، ٩٨.

تولُّدُ المنهج وتشكُّلُه،على ما أورثه من الهموم والتلذُّعِ على الأمة وتراثها.

٢-تشكُّل المنهجِ:

بغض النظر عن المكونات الثقافية لمحمود شاكر، المتمثلة في نشأته في أسرة وبيئة علميتين، وما تضلع به قراءة وسماعًا، وما أثر في نفسه من رؤية نماذج علمية من داخل أسرته وخارجها، بالإضافة إلى ما حباه الله به من اتِّقاد الذهن، وصفاء العقل وقوة النفس وعلو الهمة، وما التقى به من الأدباء في مقتبل عمره – بغض النظر عن كل ذلك، فإن قضية «الشعر الجاهلي» كانت هي العامل الأساسي و المفجر الرئيس لينبوع المنهج وتدفقه، وإنما كانت العوامل الأخرى روافدَ لهذا التشكل المنهجي ورسوخه ونمائه،

فالحيرة التي أورثتها «قضية الشعر الجاهلي» شاكرًا دفعت به، للاطلاع على التراث الشعري العربي، جاهليِّه وإسلامه.

يقول شاكر:«لأني أقبلتُ من يومئذ على قراءة الشعر الجاهلي، وغير الشعر الجاهلي، غيرَ مبالٍ بأن يكون مصنوعًا أو غيرَ مصنوعٍ، وغيرَ مبالٍ بما يقول القدماء ولا بما يقوله المحدَثون، إنما أنا طالب «شعر» لا أبالي من قاله، ولا ما قيل فيه، وينبغي أيضًا، أن يكون الأمرُ كلُّه مردودًا إلى نفسي، وإلى ما أعالج منها، وأنا منغمس في بحار «الشعر»»[١].

وكان نتاج هذا الاطلاعِ النَّهِمِ، الذي استمر ثماني سنوات[٢]، أن تكون للأستاذ ملَكةٌ وحِسٌّ عالٍ في أمر الشعر، على اختلاف أزمانه وقائليه، وهو ما سمَّاه «منهج في التذوق».

---

(١) نمط صعب ونمط مخيف، محمود أحمد شاكر، ص٣٣٤.

(٢) استمرت هذه الفترة من ١٣٤٤هـ حتى ١٣٥٢هـ/ ١٩٢٦م -١٩٣٤م.

يقول شكر:«وهذه القراءة الجامحة، هي التي قذفتْ بي على أوَّل طريق «المنهج» كما عرفتُه فيما بعد، دون أن أكون يومئذ طالبًا لمنهج أتَّبعه، وقد كان ذلك لأنَّ لهيب «محنة الشعر الجاهلي» لم يكن قد انطفأ بعدُ في نفسي،..وشيئًا فشيئًا بدأتُ أرى مدبَّ الطريق يلمع من بعيد، ثم كشف لي طول الصحبة لشاعر بعد شاعر، عن أهمِّ شيءٍ دلَّني على الطريق الذي ينبغي أن أسلكه، ذلك أني بدأتُ أحسُّ بفرقٍ غريب بيِّنٍ، بين شعرِ شاعرينِ جاهليين متعاصرين مثلًا، لا فيما يعالجان من موضوع الشعر، بل في طبيعة تركيب الكلام ونغمه، وكان أمرًا غامضًا لا أستطيع الإبانةَ عنه، ولكنني أصبحتُ أحسُّ نبضَه في قرارة نفسي، وأعانني على أن أتبين وقعه في نفسي تبيُّنًا واضحًا، اختلافُ ألفاظ الرواة في رواية الشعر، فكنتُ أجد متاعًا لا يوصف وأنا أحاول أن أدوار البيت أو الأبياتَ على لساني، وفي سمعي، وفي نفسي، برواية بعد رواية، لكي أحاول أن أقطع لنفسي: أي هذه الألفاظ المختلفة أشبه بشعر هذا الشاعر ؟وكانت تجربة من أعذب التجارب، أي تجربة، وأي لذة؟»[1].

«وهذا المنهج التذوقي قاد الشيخ إلى آفاق جمالية، ومناطق جديدة في التعرف على أسرار النص الشعري، التي يعز على الكثيرين من أهل الاختصاص إدراكها..، يقول: «إن تذوق الجمال، والاستغراق في مجاله، والإحساس الشامل بالحي من نبضاته، والنفاذ الخفي إلى أسراره العميقة المتشابكة المشتبهة، بلذة وأريحية واهتزاز، شيء مختلف عن معاناة الإبانة عن ذلك الذي تجد باللفظ المكتوب»[2].

(١) نمط صعب ونمط مخيف، محمود أحمد شاكر، ص٣٣٥.

(٢) العلامة محمود شاكر في مواجهة النص، رؤية ومنهج «مقال إلكتروني بقلم د. صابر عبد الدايم رابط المقال: http://alarabnews.com/alshaab/GIF/02-08-2002/Shaker.htm.

ولدَّتْ الهداية إلى المنهج –أولَ نتاجِها – نموذجًا تطبقيًّا، أفرغ فيه شاكر ما أهتدى إليه من منهجه، تمثل في صدور كتاب «المتنبي» سنة ١٩٣٥م، والذي نُشر بمجلة «المقتطف» بتكليف من صاحبها فؤاد صروف، احتفالًا بمرور ألف سنة على وفاة المتنبي، فكان الكتاب أُولى روائع شاكر الأدبية، وفاتحةَ الروائع، توصل في هذا الكتاب إلى نتائج لم يكن فيه مسبوقًا، كترتيب شعره، وحقيقة نسبِه ومذهبه العَقَدي، وسبب تلقيبه بـ«المتنبي»، وحبه لخولةَ أختِ سيف الدولة، وغيرها من القضايا.

أخذ هذا الكتابُ بيد شاكر من عزلته الأولى – التي دامت ثماني سنوات تقريبًا – وقدمتْه إلى الناس، وأذاع اسمه في الأدباء، وطار عاليًا في سماء الأدب والنقد طيرانًا بلغ به الآفاق، وأزال عنه حجبَه التي ضربها على نفسه.

وتجدر الإشارة إلى أن هناك عزلتين ضربهما شاكر على نفسه على مدى حياته الأدبية، ولا ينفي ذلك وجود عزلات أخرى، كمُن فيها شاكر وامتنع عن الكتابة، لكنها كانت قصيرة الأمد.

لكنَّ العزلتين الكبريين كانتا معلمًا كبيرًا في إنتاجه الأدبي، و أطولَ أمدًا وأعمق أثرًا، أمَّا أولى العزلتين، فامتدت من سنة ١٩٢٨ إلى سنة ١٩٣٦،كانت هذه العزلة بمثابة هدنة للتزود والاطلاع على التراث العربي على تنوع فنونه واتجاهاته، فاكتمل فيها بناؤه الثقافي، واتسعت آفاقه العلمية، وتضلع من علوم السابقين، ووضع فيها أقدامه على طريق المنهج، واستبان له وجه الحق في قضية الجاهلي، وخرج منها بكتابه « المتنبي»، وقد سبقت الإشارة إليه[1].

(١) بيد أن ذلك لم يكن حائلاً بينه وبين الكتابة في المنابر الثقافية، فكتب في صفحات «المقتطف» عددًا وافرًا، من المقالات التي كان معظمها مراجعاتٍ نقدية، لما كان يصدر في تلك المرحلة من كتب، وما يستجدُّ =

أما العزلة الثانية: امتدت أكثرَ من ثلاث عشْرةَ سنةً تقريبًا (كما يقول شاكر في كتابه «أباطيل وأسمار»)، توارى فيها عن الكتابة للناس، فكانت مرحلة استفراغ للمحصول الثقافي، وانعكاسه أعمالًا، تمحيصًا وتحقيقًا لإحياء التراث وبعثه من جديد، «أما خارج نطاق التحقيق، فلم يكتب سوى مقالتين، الأولى بعنوان «أحمد محمد شاكر أمام المحدثين»، كتبها عُقيبَ وفاة شقيقه الأكبر، ترجم له فيها، وتحدث عن مناقبه وجهوده العلمية، والثانيةِ بعنوان «فصل في إعجاز القرآن»، قدَّم بها كتاب «الظاهرة القرآنية» لصديقه المفكر الجزائري الإسلامي مالك بن نبي»[1].

ثم تأتي مقالات لويس عوض التي نشرها بجريدة الأهرام سنة ١٩٦٤- وكان وقتئذ مستشارًا ثقافيًّا لجريدة الأهرام !!- عن «رسالة الغفران»للمعري، سمَّى مقالاته هذه «على هامش الغفران: شيء من التاريخ «خلط فيها خلطًا شديدًا لقضايا تاريخية وأدبية ومنهجية،- تأتي لتخرج شاكرًا من عزلته الثانية؛ فقد أتى هذا «لويس» بعجائبَ جعلت المحيطين بشاكر يلحُّون عليه في الكتابة، ردًّا على أكاذيبه وأخطائه، وذودًا عن العربية أدبًا وتاريخًا ومنهجًا وعقيدةً، فخرج شاكر من عزلته فارسًا وثّابًا متوقدًا، واتخذ من هذه المقالات سبيلًا للرد على لويس وشيعته وما أثاروه على تراث الأمة من غبار، فكان شاكر عليهم نارًا تُحرق، وبحرًا يُغرق، وتكون من مجموع مقالاته في الردِّ عليهم كتابه الرائع «أباطيل وأسمار»، الذي يعد وثيقة كاشفةً عن الحياة الأدبية وفسادها في ذلك الحين، ومبينةً عن حقيقة الصراع، عاد شاكر إلى الكتابة بعد أن اعتزلها، عزوفا عن الفساد

= من أحداث، كما ترجم قصائدَ من الشعري الإنجليزي، وظل الأمر كذلك حتى انتدبه «المقتطف» لكتابة كلمة ! عن المتنبي «انظر محمود محمد شاكر، الرجل والمنهج » ص٤٩.

(١) محمود محمد شاكر،.. سيرته الأدبية ومنهجه النقدي، د. إبراهيم الكوفحي، مؤسسة الرسالة، دار البشير، ط. أولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

الضارب بأطنابه على الحياة الأدبية، وقد كان في عزلته يراقب ما يدور، وما تموج به الحياة الأدبية من حوادث ويبدي فيها رأيه في مجالسه وبين تلاميذه.

٣- كيفية استشفاف المناهج:

إذا كان هذا هو منهج شاكر، المنهج التذوقي، الذي ولدته محنة الشعر الجاهلي، وكوَّنه الاطلاع النهِم على التراث، على اختلاف أنواعه ومجالاته واتجاهاته ومذاهبه، وإذا كان مزيجًا متنوعًا بتنوع التراث العربي وامتدادًا له، فأين نجده، وهل كان يلزم الأستاذ أن يسجله في مدونة، فيقول إليكم منهجيَ فخذوه ؟! [١].

في الحقيقية قد أفرغ شاكر منهجَه المخبوء في أعماقه في كتاباته، ولم يرى أنه يلزم الكاتب أن يعرض منهجًا في أول كتاباته شارحًا شرحًا نظريًّا، بل المنهج المبثوث في إنتاجه، تستخرجه وتقف على معالمه العقولُ التي تطلع عليه وتتبعه وتفتش عن أصوله وقواعده. هذا من حيث الأصل.

يقول شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وببديهة العقل لم يكن من عمل أي كاتب مُبين عن نفسه، أن يبدأ أول كل شيءٍ فيُفيضُ في شرح منهجه في القراءة والكتابة، وإلا يفعلْ، كان مقصِّرًا تقصيرًا لا يُقبلُ منه بل يُردُّ عليه، ثُمَّ يكتب بعد ذلك ما يكتب ليقول للناس هذا هو منهجي، وها أنذا طبقتُه، هذا سخْفٌ مريضٌ غير معقول، بل عكسه هو الصحيح المعقول، وهو أن يكتب الكاتب مطبِّقًا منهجَه، وعلى القارئ والناقد أن يستشِفَّ المنهجَ ويتبيَّنَه، مُحاولًا استقصاءَ وجوهِهِ الظاهرةِ والخفية فيما كتب الكاتبُ»[٢].

---

(١) اشترط البعض أن يكون المنهج مصوغًا، فقد عرَّفه عبد الرحمن بدوي بأنه «طائفة من القواعد المصوغة من أجل الوصول إلى الحقيقة في العلم»، والذي يبدو أنه ليس بلازم إلا في العلوم البحتة، انظر: مناهج في البحث العلمي، ص٣.

(٢) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي ١٤٠٧/ ١٩٨٧م «ضمن كتاب المتنبي»، ص٢٢.

ومع ذلك، لم يمنع هذا النهجُ شاكرًا من الأبانة عن منهجه؛ إذ سُئِلها سؤالًا صريحًا، ذلك أن «يحيى حقي» قد ضمَّن أسألته سؤالًا عن المنهج، فقال: «كيف إذا صح أنها فُتاتٌ، أمدت جوته بخيط استطاع بفضله أن يسلك على أبياتها في ترتيب منطقي؟ أفتكون قصيدة تأبَّط شرًّا وصلتنا مختلة الترتيب؟ هل في القصائد الأخرى التي بين أيدينا، لو أحسن المرءُ قراءتها وفهما، دلائل على جناية الرواية عليها؟ كيف نظفر، والقصائد مبعثرة أجزاؤها في مراجعَ عديدةٍ، بنصها الأصلي؟ ما هو المنهج العلمي الواجب اتباعه في هذا البحث ؟ وستبقى هذه الأسئلة تنتظر الجواب عنها»[1].

وعلى الرغم من أن الأستاذ قد أراد أن يبينَ عن منهجه من خلال معالجته لقضايا هذا القصيدة، والإجابة عن أسئلة «يحي حقي» – على الرغم من ذلك، فقد رأى أن القصيدةَ ليست بِهيَ التي من خلالها يستطيع الإبانة عن منهجه، فهي «ليست بأمثلَ القصائد المفردة التي تعين على بيان قدر كاف مما أشرتُ إليه آنفًا، لكنها حسبنا في الدلالة على الطريق والمنهج»[2].

وقد كانت أسئلة «حقي» مُلجئة للتطبيق على هذا القصيدة دون غيرها، فلم يجد الأستاذ متَّسعًا من خيار، ليتخذ غيرها نموذجًا يوضح من خلاله معالم المنهج.

وسببُ ذلك، أنه منهج رحْبٌ متشعب، والقصيدة لا يتسنَّى لها أن تستوعبه، فدروبه أوسع من قضاياها تلك، وأبعاده أبعد من أبعادها،فهو منهج له أبواب عدَّة، والقصيدة بمثابة شاهد على بعض أبوابه، وهذا ما يؤكده بقوله: «أظنني فرغتُ،...من بيان باب من أبواب منهجي الذي أتبعه في مدارسة قصيدة من الشعر الجاهلي»[3].

(١) نمط صعب ونمط مخيف، محمود أحمد شاكر، ص٣٧ .
(٢) المصدر نفسه، ص٤٦.
(٣) المصدر نفسه، ص١١٩.

وقوله: «فعسى أن تقف على قدر صالح من منهجي خلال المقالة في قصيدتنا هذه»[١].

وبقوله – مستقلا لتبيينِه –:«وأظنني أبنتُ بعض الإبانة عن بعضِ مدارج المنهج في هذا الباب»[٢].

ولسبب آخر، ما جعل الأستاذَ يتمنى أن لو استطاع أن يتخذ غيرها ليطبق عليه المنهج، هذا السبب هو المشقة التي اعترتْ معالجةَ القصيدة وتحليلها.

يقول شاكر: «ولعلي أستطيع أن أوضح بما أكتب، كيف يكون المنهج، العلمي الواجب اتباعه في الشعر الجاهلي،.. ولو خُيِّرتُ لاخترتُ غير هذه القصيدة لتطبيق المنهج؛ لما سوف تراه من المشقة التي يتعرض لها دارسُها»[٣].

وتجدر الإشارة إلى أن محمود شاكر لم يُودع منهجه غيرَ هذه المقالات، بل هو مبثوث في كل ما كتب، يقول شاكر: «وهو مطبَّق تطبيقً بيِّنًا في كل ما كتبه هذا القلم الذي أكتب به الآن إليك، مطبقٌ هذا المنهجُ في مقالاتي التي نشرتُها في الصُّحف والمجلات قديمًا وحديثًا، سواء كان ما كتبتُه بحثًا أونقدًا أو تعبيرًا عن ذات نفسي في كل منحًى من مناحي القول والبيان، أو تعليقًا على أصول الكتب القديمة التي نشرتُها وخرجتْ للناسِ»[٤].

(١) نمط صعب ونمط مخيف، محمود أحمد شاكر، ص١٢١.
(٢) لمصدر نفسه، ص١٢٤.
(٣) المصدر نفسه، ص٤٥.
(٤) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود محمد شاكر، ص ١٨.

المبحث الثاني

أهم سمات المنهج وعلاقتها بالدراسة النصية

١- المنهج، طبيعته..ومبادئه..ووسائله:

إن الكلام عن طبيعة المنهج يتطلب منا الوقوف فيه على التراث الثقافي العربي بصفة عامة، والمبادئ النقدية والبلاغية التراثية بصفة خاصة، بالإضافة الاتجاهات النقدية واللسانية المعاصرة.

فالمنهج ذو طبيعة امتزاجية شمولية، ممتدة ومتعلقة بعلوم تراثية ومعاصرة مختلفة ومتنوعة، لكننا في الحقيقة نريد أن نجتزأ شريحة من المنهج، نخضعها للفحص والتحليل، للوقوف على دلائل الامتزاج والتداخل.

وهذه الشريحة المنهجية، تبرز فيها أهم السمات النصية للمنهج، ووجود سمات نصية في المناهج التراثية، لا سيما البلاغية، أمر ليس بمستغرب؛ فالبلاغة القديمة – على سبيل المثال – تضم الأفكار الجوهرية التي عُنيت الدراسات النصية بالتوسع فيها، وبالتالي توجد جوانب اتفاق عدة بينهما إلى حد يصعب معه إغفال الأثر[1]، حتى تكون درجة خفائه مرتفعة، وليست محاولة علم النص في جوهرها إلا السعي المستمر لضم

(١) هناك نقاط اتفاق بين البلاغة وعلم اللغة النصي يمكن إجمالها فيما يلي:
١- من الممكن أن يخضع التوصل إلى الأفكار، وترتيبها لضبط المنهجي
٢- أن الانتقال بين الأفكار والتعبيرات غير مستعص على التدريب الواعي.
٣- أن بين النصوص المختلفة التي تعبر عن تشكيلة معينة من الأفكار نصوصًا أرقى من سواها،
٤- من الممكن تقييم النصوص بدلالة ما تحدثه من تأثير عى جمهور المستقبلين.
٥- تعد النصوص وسائط نقل تفاعلي. انظر «مدخل إلى علم لغة النص»، روبرت دي بوجراند، وولفالج دريسلر، د. إلهام أبو غزالة، علي خليل حمد، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ط.الثانية ١٩٩٩، ص٣٩.

هذه العمليات في إطار موحَّد بعد أن تبعثرت بين عدة علوم، ركز كلٌ منها على جانب بعينه مهملًا الجوانب الأخرى»[1].

كما أن الوقوف على السمات النصية على وجه الخصوص، والجهود اللسانية على وجه العموم، في التراث العربي، يبين حيوية المناهج العربية وسبقها، وقدرتها على المواكبة والمعاصرة.

٢- تجذُّر المنهج في التراث العربي:

لا نستطيع أن ننكر أن النحويين كانوا يهتمون بالجملة ولا يتجاوزونها، لكن هذا لا يعني أن الملامح النصية كانت غائبة عن التراث، أو أننا لا نستطيع أن نعثر على دراسات نصية تراثية ذات قيمة،ولا يعني اهتمام اللغويين بالجملة، وعدم مجاوزتها إلى غيرها أن هذا كان موقفًا علميًّا عامًّا.

فلو أخذنا عيِّنةً من الرصيد التراثي البلاغي والتفسيري على سبيل المثال فسنجد رصيدًا لدراسات نصية لا يُستهان به، وهو يمثل تجذُّرًا وامتدادًا لعلم اللغة النصي في التراث العربي.

يقول د.صبحي الفقي: «والواقع أن موقف البلاغيين كان غير موقف اللغويين،فقدانطلقت مباحث عديدة في علم البلاغة من منطلق المعالجة النصية مثل الإيجاز والفصل والوصل وغيرهما بل نظرية النظم نفسها أكدت على التضام والاتساق بين الكلمة الأولى والثانية والثالثة،..»[2].

---

(١) علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد بحيري، ص١٦٧.

(٢) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، د. صبحي إبراهيم الفقي، ص٤٦.

يشير بعض الباحثين إلى أن هناك إشاراتٍ نصيةً فيما كتبه الجرجاني عن نظرية النظم، لكننا نستطيع من خلال كلام الجرجاني أن نتوصل إلى جذورٍ أبعد من ذلك في الدلالة على وعي القدماء -ولو في الجملة- بالتماسك النصي، وانتباههم إلى بعضٍ من معاييره وأهدافه ووظائفه وخصائصه، وإن كانت تلك الدراسات مفتقرةً إلى مزيد من التنظير والتفصيل.

يقول الجرجاني: «وهل تجدُ أحداً يقولُ: هذه اللفظةُ فصيحةٌ إلاَّ وهو يعتبرُ مكانَها منَ النظم وحسنَ مُلائمةِ معناها لمعنى جاراتِها وفضلَ مؤانَستها لأخواتها وهل قالوا: لفظةٌ متمكِّنةٌ ومقبولةٌ وفي خلافهِ: قلقةٌ ونابيةٌ ومستكرهةٌ إلا وغرضُهم أن يُعبروا بالتمكُّن عن حسنِ الاتفاقِ بينَ هذه وتلك من جهةِ معناهُما وبالقلقِ والنُبُوِّ عن سوء التلاؤم، وأنَّ الأولى لم تَلِقْ بالثانية في مَعناها وأن السابقَةَ لم تصلُحْ أن تكونَ لِفقاً للتالية في مُؤدَّاها»[1].

فالجرجاني قد «تجاوز فيها مفهوم الجملة إلى مفهوم النص أو إلى منظومة الجمل التي تتفاعل و تترابط فيما بينها مكونة سياقا أعم منها وأشمل وأكمل، فلا وجود - موضوعيًّا - للجملة المستقلة»[2].

لكنَّ سؤالًا يلح علينا، هل كان الجرجاني سابقا إلى ذلك، أو كانت هذه رؤية سابقةً للجرجاني ومركوزة في بديهة اللغة والمتحدثين بها، متلقين ومستقبلين.

---

(١) دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر الجرجاني، تحقيق وتعليق أ.محمود شاكر، مكتبة الخانجي - مطبعة المدني ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م، ص٤٤، ٤٥.

(٢) علم لغة النص والأسلوب، د. نادية النجار، ص٢٦.

نستطيع من النص السابق أن نقف من كلام الجرجاني على دلالات تؤكد وعْيَ السالفين من العلماء للتماسك النصي ومظاهره، وأسبابه، ففي قول الجرجاني: «وهل قالوا: لفظةٌ متمكِّنةٌ ومقبولةٌ وفي خلافهِ: قلقةٌ ونابيةٌ ومستكرهةٌ إلا وغرضُهم أن يُعبروا بالتمكُّن عن حسنِ الاتفاق....إلخ»، فمقصوده العلماء والنقاد السابقون له، فهم الذين «قالوا،.. وغرضهم أن يعبروا»، ومعلوم أنهم اعتبروا ذلك لما عقَلوه من منطق العربية وبداهتها.

فهذا النص نفسه دليل على أن الفهم للتماسك كان محسوسا لدى القوم ومنسربا في سليقتهم اللغوية، ويبقى إلا أنهم لم يسجلوه ويدونه مطابقا تطابقًا كاملا لإجراءات علم اللغة النصي ومساراته.

فقد «أدرك علماء العرب القدماء الخصائص المحددة للنص إدراكًا تامًّا، ضمنَ الحقيقة اللغوية»[1].

فإن «نحو النص قد كان قابعًا في ذهن هؤلاء العلماء الأفاضل – رغم أنهم لم يصرحوا بذلك، وبخاصة في فكرة الربط الدلالي، ولم تنتفِ فكرة التماسك النحوي من أذهانهم»[2].

حاول الدكتور عمر أبو خرمة أن يتتبع أبرز جهود علماء العرب في النص وملامح علم اللغة النصي في التراث العربي، فتمثلت فيما يلي:

١ – اهتم الدارسون –على مرِّ العصور– في الثقافة العربية، بالوحدة القرآنية، من خلال جهود العلماء في إنشاء تفسيرات للقرآن، تراعي ربط الآي بالآي، داخل السورة الواحدة، وربط السورة بالسورة داخل القرآن الكريم، على اعتبار عده، نصا كليا واحدًا.

---

(١) نحو النص نقد النظرية،..وبناء أخرى، د. عمر محمد أبو خرمة، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط.الأولى ١٤٢٥ هـ/ ٢٠٠٤م، ص٣٩.

(٢) نحو النص نقد النظرية،..وبناء أخرى، د. عمر محمد أبو خرمة، ص٧٩.

٢- تضافرت جهود نحوية وبلاغية، لتوسيع علم النحو، ليشمل دراسة النص من حيث هو نص، ودراسة أثره من حيث هو اختيار للناصِّ أو الناظم.

٣- شكَّل الجرجاني نقطةَ وعْيٍ شاملة بعلم النحو، حيث قرر أقسامه الحقيقة،ابتداءً من نحو الجملة، مرورًا بنحو ما فوق الجملة، وصولًا إلى نحو النص، انتهاء بنحو الأسلوب.

٤- شكَّلت دراسة الوصل والفصل، مرتكزًا أساسيًّا في الولوج إلى نحو النص، في الثقافة العربية.

٥- بدأتْ الدراسات النصية التطبيقية على القرآن الكريم بالجهود التفسيرية، وبدأت خجولة متأنية على ما يلمح البقاعي، تدرس الترابط في النص على المستوى الدلالي، في بعض النصوص دون بعض.

٦- تفجرت التطبيقات الكاملة للوحدة القرآنية، وترابط القرآن الكريم، على يد البقاعي، حين درس القرآن الكريم على مستويين، مستوى ربط الآي بالآي داخل السورة الواحدة دلاليا، ومستوى ربط السورة بالسورة داخل القرآن الكريم، كنصٍّ كليٍّ دلاليا أيضًا.

٧- اعتمد الدارسون جميعًا على الحدس، وليس على نظرية نحوية في الربط، سواء على المستوى الداخلي (الآي بالآي) أو على المستوى الخارجي (ربط السورة بالسورة) وكانت نتائجهم على حدسهم دقيقة إلى حدٍّ كبير مما ينبئ بوجود نظرية قائمة في عميق بنيتهم الفكرية، وإن لم تظهر على السطح، عند التطبيق[1].

(١) لعل الدكتور يقصد أنها لم تظهر بصورة كاملة، على نحو الصورة المستقرة الآن في علم اللغة النصي؛ لأنه قد وُجدتْ صورة تطبيقية لكنها جزئية، ومتناثرة، ولا تتطابق مع علم اللغة النصي تطابقًا كاملًا.

٨- وظَّف العلماء العربُ في إثبات الوحدة الدلالية في القرآن الكريم، معرفةَ العالم، كمعرفة أسباب النزول، والسيرة والحديث، والتاريخ.

٩- لم يحاول علماء العرب الوصول من خلال هذا الجهد الضخم، إلى القوانين التي شكَّلت النص، باستثناء الشذرات التي قدمها الجرجاني في الدلائل، والبقاعي في النظم.

١٠- نظروا إلى التماسك النحوي، على أنه سهل، من جهة ويمكن الوصول إليه بيسر من جهة ثانية، فقفزوا عن مقدماته الضرورية، إلى النتائج النهائية، فأثبتوا الوحدة، دون إثبات الطريق إليها»[١].

وإذا كانت البلاغة العربية قد تضمنت مباحث نصية تعدُّ سابقةً إلى إجراءات علم اللغة النصي، وتطبيقًا عمليًّا لتصوراته ومبادئه، فلا ينفي ذلك وجودَ نظرة بلاغية تقف عند حدود الجملة-على حدِّ تعبير البعض- ولا تتجاوزها، وتستحسن أن تُضغط المعاني في أقل وحدة ممكنة وهي الجملة، وقد عدوا -في الشعر خصوصا- أن يكون كل بيت مستقلًا عن سابقه ولاحقه.

يقول ابن رشيق القيرواني:«وأنا أستحسن أن يكون كل بيت قائمًا بنفسه لا يحتاج إلى ما قبله ولا إلى ما بعده، وما سوى ذلك فهو عندي تقصير، إلا في مواضعَ معروفة»[٢].

وعند التأمل الفاحص نجد أنه لم يكن المقصود بذلك الاستقلالِ أن يكون كل بيت معبرًا عن معنى مخالفًا لما قبله أو لما بعده، فيكون البيت الأول - مثلًا - في الرثاء، والثاني

(١) نحو النص نقد النظرية،..وبناء أخرى، د. عمر محمد أبو خرمة، ص ٧٩، ٨٠.

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط الخامسة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١، م ١، ص٢٦١.

في الغزل، والثالث في المديح، والرابع في الذم وهكذا،فهذا لم يُؤثر عن القوم قطُّ، ولا يمكن أن يحمل كلامهم عليه[1].

إنما مقصودهم ألا يحتاج البيت الأول إلى مساحة من ألفاظ البيت الثاني ليستكمل معناه، على نحو ما استقبحوا قول الشاعر:

كأنَّ القلبَ ليلةَ قيل يُغدَى ... بليلى العامريةِ أو يراحُ

قطاةٌ غرَّها شَرَكٌ فباتتْ ... تجاذبه وقد علق الجناحُ

حيث ابتدأ الشاعر البيت الثاني بخبر «كأنَّ» الآتية في أول البيت السابق، قال أبو هلال العسكري:«فلم يتم المعنى في البيت الأول حتى أتمه في البيت الثاني وهذا قبيح»[2].

وهذا القبح الذي رُميا به البيتان مردود، فهما من الرقة والجمال والعذوبة بمكان عالٍ، لكنَّ النَّكارة لحقته من كونه شغل مساحة لفظية من البيت الذي يليه.

ومع ذلك فلا نستطيع أن نسلم باستقباح هذا التصرف، إذ قد ورد فيما هو أفصح من الشعر-وهو القرآن- بمثل هذا،قال تعالى على لسان هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود:٥٤-٥٥]، حيث اُستكمل معنى الآية في التي تليها، وهو متعلق الفعل «تشركون»أي: شبه الجملة «من دونه».

(١) وعليه فلا يمكن أن نعدَّ هذا الرأي رأيًا جزئيًا للنص؛إذ أنه لا ينفي أن يكون إحدى البنيات الصغرى، فيؤدي معنى أو أكثر يتشابك في النهاية مع البنيات الأخرى مكونا البنية الكبرى،...».

(٢) كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري، تحقيق على محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط.أولى ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م صـ٣٦.

وكذلك في سورة الزمر، من قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾[الزمر:٣٩-٤٠]، حيث أتى معمول الفعل «تعلمون» و هو الاسم الموصول «مَنْ»، وصلته في الآية التي تليها،

فهذا أسلوب من أساليب العرب فكيف يكون مستقبحًا !!.

«وتجدر الإشارة، في هذا السياق، إلى دور المفسرين، فقد كان أبرز الأدوار في المعالجة النصية،.. وهذا طبيعي؛ فعملهم يقوم أساسًا على النظرة إلى النص القرآني كاملًا،..فأكدوا على التماسك الصوتي، والصرفي، والنحوي والمعجمي والدلالي،وكذلك التماسك النصي»[1].

إن التأمل لمنهاج علوم القرآن ومباحثه يعطي نظرة شاملة لما كان عليه العلماء من الوعي بتماسك النص وصوره وأسبابه وخصائصه، مع الأخذ في الاعتبار التلازم بين علمي النحو والبلاغة وعلوم القرآن.

«ولقد انبثقت هذه العناية من حرصهم على لغتهم «لغة القرآن الكريم «والتي تمثل في أدنى تأمل لها رسالة اتصالية موجهة للبشرية، فالقرآن يمثل عملية الاتصال بكامل عناصرها من مرسل ومرسل إليه ورسالة وقناة اتصال وأثر»[2].

يقول الطاهر بن عاشور في تعريف السورة: «السورة قطعة من القرآن معينة بمبدأ ونهاية لا يتغيران،مسماةٌ باسم مخصوص تشتمل على ثلاث آيات فأكثر، في غرض تام ترتكز عليه معاني آيات تلك السورة ناشئ عن أسباب النزول أو عن مقتضيات ما تشتمل عليه من المعاني المتناسبة»[3].

(١) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، د. صبحي إبراهيم الفقي، ص٤٦.
(٢) تقنيات الاتصال التعليمي في القرآن والسنة، عبد العظيم عبد السلام الفرجاني دار غريب ٢٠٠٠م ص١٤١.
(٣) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس م١، ص٨٤.

قلت: الذي يظهر من التعريف أن السورة يلزم أن تكون في غرض تام،وأن ذلك الغرض لابد أن ترتكز عليه معانيها الواردة فيها، وهذا -بلا شك - لا يكون إلا جسر الإنسجام والسبك الذي لا بد أن يوجد لتحقق بناء ذلك المسمى، فكأنه شرط إذا لم يوجد لم يوجد مشروطه.

«ومن خلال ما سبق يتبين لنا إدراك القدماء لكلية النص، وتجاورهم لحدود الجملة الواحدة، وإن كانت لم تتسم أقوالهم بالانتظام والتنظير»[1].

فليس عجيبًا إذن أن نجد في منهج شاكر - وهو امتداد لمنهج القدماء في العصر الحديث- ملامح للدراسات النصية، تواكب ما تناهى إليه الدرس اللغوي الحديث من نظريات.

يقول شاكر مبينًا امتداد منهج السابقين في منهجه، واتصالَه بطرائقهم: «ولا أزعم، معاذَ الله، أني ابتدعتُ هذا المنهج ابتداعًا بلا سابقة ولا تمهيد، فهذا خطَلٌ وتبجُّحٌ، بل كل ما أزعمه أنّي بالجُهد والتَّعب، وبمعاناة التفتيش في هذا الرُّكام من الكلام، جمعتُ شتاتَ المنهج في قلبي، وأصَّلتُ لنفسي أصولَهُ[2]، مع طُول التنقيبِ عنه في مطاوي العبارات التي سَبق بها الأئمةُ الأعلام من أصحاب هذه اللغة، وهذا العلم، في مباحثهم ومساجلاتهم ومُثاقافتهم وما يتضَّمنُه كلامُهم من النَّقض والاحتجاج للرأي،وكلُّ ما وقفتُ عليه من ذلك، كان خافيًا فاستشففتُه، ودفينًا فاستنبطْتُه، ومُشتَّتًا فجمعتُه، ومفككًا فلاءَمتُ بين أوْصاله، حتى استطعتُ بعد لَأْيٍ أن أُمهِّدَ لفكري طريقًا لاحبًا مستَتِبًّا يسيرُ فيه، أيْ صيَّرتُه «منهجًا» التزمتُ به فيما أقرأ وما أكتبُ»[3].

(١) علم لغة النص والأسلوب، د.نادية النجار، ص٦٣.

(٢) من الواضح أن منهج شاكر كان منهجًا عقليا تأمليا، وليس منهجا تلقائيا يفتقر إلى الأصول والقواعد، انظر: مناهج البحث العلمي، عبد الرحمن بدوي، ص٦-٧.

(٣) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود محمد شاكر، ص٨.

وعليه فالدراسات النصية السالفة _ وإن كانت متناثرة، ومفتقرة للتنظير والانتظام – دليل على حضور الملامح النصية الحديثة في المنطق اللغوي العربي، خصوصًا النصوص الشعرية، الذي هو أعظم ما تكلمت به العرب.

ويؤكد شاكر على أنَّ منهجه –بما يشتمل على ملامح علم اللغة النصي في رأيي– نابع من نظام اللغة، وأنه إحدى الركائز المنطقية للعربية، فيقول: «لأنِّي أردتُ أن تقف بالدليل الواضح، على أنَّ المنهج الذي استطعتُ أن أمهِّدَه لفكري، كان نابعا من صميم المناهج الخفية التي سنَّ لنا أباؤنا وأسلافُنا طُرقها، وأن كلَّ جهدي فيه، هو معاناةٌ كانت مني لتبين دروبها ومسالكها، ثُمَّ إزالة الغبار الذي طمس معالمها، ثُمَّ أن أجمع ما تشتَّت أو تفرَّق من أساليبها، معتمدًا على دلالات اللسان العربي، لأن كل ذلك مخبوءٌ تحت ألفاظ هذا اللسان العربي،ومستكنٌّ في نُظُم هذا اللسان العربي،..»[1].

٣- المنظور الثقافي في المنهج بين الأصالة والمعاصرة:

لا نستطيع أن نُغفل قضية الثقافة، وتعلقها بالمنهج، وتصورها كمقوِّمٍ يتأسس عليه أي منهج، فقد كانت الثقافة همًّا شاغلًا، وفكرة كثيرةَ الإلحاح، شغلت مساحاتٍ مما كتبه محمود شاكر مبيِّنًا منهجه، أو رادًّا على مخالفيه.

لكنَّ هناك مَعْلمينِ يحددان حقيقة تصور الثقافة في منهج محمود شاكر، وعلاقتها بالعلم، وهذان المَعْلمان يتضحان من خلال التناول الآتي:

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود محمد شاكر، ص١٥.

أولًا: الثقافة والمنهج:

«يرتبط مفهوم المنهج عند شاكر ارتباطًا وثيقًا بمفهومه للثقافة؛ إذا يؤمن إيمانًا عميقًا بخصوصية الثقافة من خلال معايير محددة، تشكل لكل أمة ملامحَ ثقافتها»[1].

وكذلك ترتبط الثقافة بالمنهج في رؤية محمود شاكر «على أساس أن الثقافة هي البؤرة الدقيقة المُشكِّلة للمنهج»[2].

فالثقافة ذات أصول وتصورات ومنابع، مؤثرة ومتأثرة، تختلف من أمة لأمة، ومن مجتمع لمجتمع، على حسب أصولها وقواعدها، ومصادرها التي تستمدُّ منها خصائصها، وما تعبر عنه من فكر وأخلاق وتصور لمناحي الحياة، فهي في كل أمة عاكسة للبيئة التي تكونت فيها، ومشاركة في تكوين عقلية المنتمين إليها.

وانطلاقًا من هذا التصور، يرفض شاكر فكرة الثقافة العالمية، ويرى أنه «باطلٌ كلَّ البُطلان أن يكون في الدنيا على ما هي عليه، «ثقافة» يمكن أن تكون «ثقافة عالمية»، أي ثقافة واحدة يشترك فيها البشر جميعًا ويمتزجون على اختلاف لغاتهم ومللهم ونِحلهم وأجناسهم وأوطانهم، فهذا تدليس كبير، وإنما يراد بشيوع هذه المقولة بين الناس والأمم، هدف آخر يتعلق بفرض سيطرة أمة غالبة على أمة مغلوبة، لتبقى تبْعًا لها، فالثقافات متعددة بتعددالمملل، ومتميزة بتميز الملل، ولكل ثقافة أسلوب في التفكير والنظر والاستدلال مُنتزَعٌ من «الدين» الذي تدين به لا محالةَ، فالثقافات المتباينة تتحاور وتتناظر وتتناقش،

---

(١) «محمود محمد شاكر، الرجل والمنهج «حسن القيام دار البشير – مؤسسة الرسالة»، بيروت، ط.الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ص١٠٤.

(٢) إشكالية الذوق الفني عند محمود محمد شاكر، خليفة بن عربي، صفحات للدراسات والنشر، ط.أولى ٢٠١١م، ص٤٤.

ولكن لا تتداخل تداخلا يفضي إلى الامتزاج البتَّةَ، ولا يأخذ بعضها عن بعض شيئًا، إلا بعد عرضه على أسلوبها في التفكير والنظر والاستدلال، فإن استجاب للأسلوب أخذته وعدَّلتْه وخلَّصته من الشوائب، وإن استعصى نبذَتْه واطَّرحَتْه»[1].

وهذا الوعي لحقيقة الثقافة وخصوصيتها، وهذا الإدراك لمنابعها وأصولها، وقواعدها ومظهرها، وأثرها وتأثرها، وما تقتضيه إيجابًا وسلبًا، وتستلزمه إثباتًا ونفيًا – كل هذا كان أصلًا ضابطًا لمنهج محمود شاكر، تدمجه وتحتويه كلمة «الثقافة».

يرى محمود شاكر أن هناك شروطًا ثلاثة، لابد أن تجتمع «للكاتب أو العالم أو الباحث، فضلا عمَّن أراد النزول إلى ميدان المنهج، وهذه الشروط هي:-

«اللغة» التي نشأ فيها صغيرًا، فشرطُ نزول الميدان: أن يكون محيطًا بأسرارها الظاهرة والباطنة

و«الثقافة» وهي سرٌّ من الأسرار الملثَّمة، وحقائقها عميقة بعيدة الغور متشعبة، وقِوامها «الإيمان»بها عن طريق القلب والعقل، ثم «العمل»بما تقتضيه حتى تذوب في بنيان الإنسان وتجري منه مجرى الدم، لا يكاد يُحِسُّ به، ثم «الانتماء» إليها انتماء يحفظه ويحفظها من التفكك والانهيار.

«الأهواء» فهي الداء المُبير، والشر المستكير، والفساد الأكبر، إن ألمَّ بأي عمل إلمامة خفيَّةَ الدبيب بَلْهَ الوطءَ المتثاقل، أحاله إلى عمل مُستقذَرٍ منبوذٍ كريه»[2].

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود محمد شاكر، ص٧٤-٧٥.
(٢) المصدر نفسه، ص٦٥- ٦٦.

فهذه شروطٌ يجب توافرها، في كل من وُصِف بـ«الكاتب، أو العالم أو الباحث»، وهي آكد في مَن رام التمكن في منهج البحث، بحيث إن عَرِيَ عن شيء منها لا يستحق وصفًا مما سبق.

ويرى شاكر أن شرط «الثقافة» أهم وآكد هذه الشروط على الإطلاق؛ لأنه «إذا كان أمر «اللغة» شديدًا لا يسمح بدخول «المستشرق» تحت هذا الشرط اللازم للقِلَّة التي تنزل ميدان «المنهج»و«ما قبل المنهج»، فإن شرط «الثقافة»أشدُّ وأعتى، لأن«الثقافة»، كما قلتُ آنفًا:«سرٌّ من الأسرار الملثَّمة في كل أمة من الأمم وفي كل جيل من البشر، وهي في أصلها الراسخ البعيد الغور، معارف كثيرة لا تُحصى، متنوعة أبلغَ التنوع، لا يكاد يحاط بها، مطلوبة في كل مجتمع إنساني، للإيمان بها أولا من طريق العقل والقلب، ثم للعمل بها حتى تذوب في بُنيان الإنسان وتجري منه مَجرى الدم لا يكاد يُحِسُّ به، ثم للانتماء إليها بعقله وقلبه انتماءً يحفظه ويحفظها من التفكك والانهيار.

وهذه القيود الثلاثة «الإيمان» و«العمل» و«الانتماء» هي أعمدة «الثقافة» وأركانها التي لا يكون لها وجود ظاهر محقَّق إلا بها، وإلا انتقض بُنيان «الثقافة»، وصارت مجرَّدَ معلوماتٍ ومعارفَ وأقوالٍ مطروحةٍ في الطريق، متفككة لا يجمع بينها جامع، ولا يقوم لها تماسك ولا ترابط ولا تشابك»[1].

لكن الثقافة على الخصوص، التي هي إحدى الشروط اللازمة، والتي هي أيضًا أصل ضابط للمنهج، شديدةُ الوثاقة بالدين، تلازمه ولا تفارقه، وتتصل به اتصالا متمازجًا ولا تنفصل عنه وذلك لأن «الثقافة» و«اللغة»متداخلان تداخلا لا انفكاك له، ويترادفان ويتلاقحان بأسلوب خفيٍّ غامضٍ كثيرِ المداخل والمخارج والمسارب،

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود محمد شاكر، ص ٦٨.

ويمتزجان امتزاجًا واحدًا غير قابل للفصل، في كل جيل من البشر وفي كل أمة من الأمم»[1].

و«الدين واللغة متداخلان تداخلا غير قابل للفصل، ومن أغفل هذه الحقيقة ضلَّ الطريق وأوغل في طريق الأوهام»[2].

وإذا كانت اللغة تُداخِلُ الدينَ والثقافةَ تداخلًا غيرَ قابل للفصل، فالعقل قاضٍ والواقع كذلك بأن الثقافة تداخل الدين أيضًا بنفس القوة، ونفس التخلل والامتزاج، « فالثقافات متعددة بتعددالمملل، ومتميزة بتميز الملل، ولكل ثقافة أسلوب في التفكير والنظر والاستدلال مُنتزَعٌ من «الدين» الذي تدين به لا محالةَ، وهذا ما يؤكده إليوت بقوله:«ثقافة الشعب ودين الشعب مظهران لشيء واحد، لأن الثقافة في جوهرها تجسيدٌ لدين الشعب»[3].

وعلى هذا، كان الدين هو المقومَ الأول للثقافة في منهج شاكر،:«ورأس كل ثقافة» هو:

« الدين»بمعناه العام، والذي هو فطرة الإنسان، أيَّ دين كان – أو ما كان في معنى» «الدين»[4].

وأيضًا فإن «الثقافة في جوهرها لفظ جامعٌ، يُقصد بها الدلالة على شيئين أحدهما مبني على الآخر، أي هما طَوْرانِ متكاملان:

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود محمد شاكر، ص٦٨- ٦٩.
(٢) المصدر نفسه، ص٧٢،٧٣.
(٣) أباطيل وأسمار، محمود أحمد شاكر، ص٣٩٦.
(٤) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود محمد شاكر، ص٣١.

الطور الأول: أصولٌ ثابتةٌ مكتسبة تنغرس في نفس «الإنسان» منذ مولده ونشأته الأولى حتى يُشارف حدَّ الإدراك البيِّن، جماعُها كلُّ ما يتلقاه عن أبويه وأهله وعشيرته ومعلميه ومؤدبيه حتى يصبح قادرًا على أن يستقلَّ بنفسه وبعقله.

الطور الثاني: فروعٌ منبثقةٌ عن هذه الأصول المكتسبة بالنشأة، وهي تنبثق حين يخرج الناشئُ من إسار التسخير إلى طلاقة التفكير. وإنما سميتُ «الطور الأول» «إسارَ التسخير»، لأنه طورٌ لا انفكاك لأحد من البشر منه منذ نشأته في مجتمعه. فإذا بلغ مبلغ الرجال استوتْ مداركه، وبدأت معارفُه يتفصَّى بعضُها ممن بعض، أو يتداخل بعضُها في بعض، ويبدأ العقل عمله المستتبَّ في الاستقلال بنفسه، ويستبدُّ بتقليب النظر والمباحثة، وممارسة التفكير والتنقيب والفحص، ومعالجة التعبير عن الرأي الذي هو نتاجُ مزاولة العقل لعمله،، فعندئذٍ تتكون النواةُ الجديدة لما يمكن أن يسمى «ثقافة»، وبينٌ أن سبيله إلى تحقيق ذلك هو «اللغة» و«المعارفُ» الأُوَلُ التي كانت في طورها الأوَّل مصبوغةً بصبغة «الدين»لا محالة، حتى لو استعملها في الخروج على«الدين»الموروث ومناقشته رفضًا له أو لبعض تفاصيله»[1].

وإذا كانت الثقافة المقوِّمَ الأولَ لثقافة كل فرد، وثقافة كل أمة، وإذا كانت تُداخل الدين تداخلا غيرَ قابل للفصل، وإذا كانت في جوهرها تجسيدًا لدين الشعب، فلا عجب أن ينكر شاكر الثقافة الغربية، وأن يُصرِّح للأستاذ: محمد عودة «قائلًا»: أنا عدوٌّ للثقافة الغربية، ولا أستطيع أن أكفَّ عن مهاجمتها، لا لأنها معادية للإسلام والعرب، بل لشيء آخر غير الذي تتوهم، وقد كنتُ بيَّنتُ بعض ذلك في مقالاتي»[2].

---

(١) انظر: «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا»، محمود محمد شاكر، ص٧٢- ٧٤.

(٢) «أباطيل وأسمار» محمود محمد شاكر، ص٣٩٥- ٣٩٦.

ارتبطت الثقافة في فكر محمود ومنهجه بالدين، وكذلك ارتبطت به من جهة اللغة، فاللغة هي وعاء المنهج على مدى ما يتناوله من فروع العلم، وهي أيضًا ركن أساس للثقافة تقوم عليه، يقول محمود شاكر:«ووعاءُ ذلك كله هو ومستقره هو اللغة واللسان لا غير»[١].

وتتداخل اللغة مع الثقافة، من حيثُ كونِ[٢] اللغة ممهدة للإحاطة بأسرار الثقافة ثم «اللغة» بعد ذلك، هي التي تمهِّد له الطريق إلى الإحاطة بأسرارها «الثقافة» لأن أمر «الإحاطة» عندئذ منوط كله بالقدرة على تمحيص مفردات «اللغة» تمحيصًا دقيقًا، وتحليل تراكيبها وأجزاء تراكيبها بدقة متناهية، وبمهارة وحِذق وحذَر، حتى يرى ما هو زيف جليًّا واضحًا»[٣].

«كان لهذا الوعي النظري بالثقافة والتجديد أكبر الأثر في تشكيل وعي شاكر بالمنهج، فقد حدد أطر حركته تحديدًا كاملًا داخل الثقافة العربية، فكان أمرًا متوقعًا أن تصحَّ عزيمته على إعادة قراءة تراث هذه الثقافة قراءة متأنيةً، تتيح أن ينهض بأعباء المهمة التي ندب لها نفسه: مهمة صياغة منهج عربي إسلاميّ نابعٍ من هذا الثقافة[٤].

ثانيًا: الثقافة والعلم:

الثقافة والعلم، مصطلحان لا يترادفان في المنهج الشاكري، فهو يفرِّق بينهما تفريقا واضحًا، ويراه أمرًا منكرًا أن يترادفا ويختلطا في أي تصوِّرٍ كان.

---

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود محمد شاكر، ص٢٣.

(٢) وإضافة المفرد لـ حيث لغة نادرة، يستدلون على جوازها بقول الشاعر:

ونطعُنُهم تحتَ الكُلى بعدَ ضربِهم ... بِبِيضِ المواضي حيثُ لَيِّ العمائِم

انظر: المغني، ص١٥٢.

(٣) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا «محمود محمد شاكر»، ص٦٩.

(٤) محمود محمد شاكر، الرجل والمنهج «حسن القيام» ص١٠٨.

يقول شاكر: «فأول كل شيء، أجده لزاما عليَّ أن أعيد ما قلته مرارًا منذ حملت هذا القلم الذي طال صدأه بانقطاعي عن الكتابة، وهو وجوب الفصل فصلًا تامًّا بين (العلم) بمعناه الحديث وبين (الثقافة)، لأن العلم تراث إنساني ممتد من أقصى الجهود التي نعرف تاريخها إلى يوم الناس هذا، وإلى غدهم فيما يستقبل»[1].

وفكرة الإفادة من الثقافات، لا تعارض رفض «الثقافة العالمية»، أو توحيد ثقافات الأمم في ثقافة واحدة، فقد مرَّ بنا آنفًا قوله: «فالثقافات المتباينة تتحاور وتتناظر وتتناقش، ولكن لا تتداخل تداخلا يفضي إلى الامتزاج البتَّةَ، ولا يأخذ بعضها عن بعض شيئًا، إلا بعد عرضه على أسلوبها في التفكير والنظر والاستدلال، فإن استجاب للأسلوب أخذته وعدَّلْته وخلَّصته من الشوائب، وإن استعصى نبذَتْه واطَّرحَتْه»[2].

لكنَّ الدين هو الضابط لهذا التلاقح الثقافي، وهو الرباط الجامع لشتات الثقافات، وهو الصابغ لها بصبغة واحدة، تجعلها متحدة في أصولها، ومتعددة في مظاهرها.

«فإن الله تعالى جدُّه أرسل رسوله ﷺ إلى الناس كافة، على اختلاف قبائلهم وشعوبهم، وعلى اختلاف ألسنتهم وألوانهم وهيَّأ للجنس البشري كله أن ينتقل به من فوضى الملل والعقائد والعادات والتقاليد، أي من فوضى الثقافات إلى ثقافة هي في جوهرها قابلة لتصفية سائر الثقافات القديمة، ثم احتوائها لتكون ثقافةً متعددة الوجوه على غير اختلافٍ في الأصول، ومعنى ذلك أن الله تعالى قد ضمَّن كتابه الذي جاء للناس كافة، أصولًا جامعة للعناصر الحية التي تقوم عليها ثقافات البشر المختلفة، من عهد أبينا

(١) في الطريق إلى حضارتنا، محمود محمد شاكر، مجلة «الثقافة»، العدد العاشر – يولية ١٩٧٤، ص ١٠٧٨ من جمهرة مقالاته.

(٢) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود محمد شاكر، ص٧٥.

آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وضمَّن هذا الكتاب، وضمَّن الحكمة التي هي سنة رسول الله ﷺ جميعَ الأسباب التي تحرك «الثقافة» وتعدها للنمو المتجدد الذي يتيح لها إنشاء الحضارة المتميزة الشاملة »[1].

وإذا كان الدين جامعًا لأصول النمو الفكري، والتقارض الثقافي، فإن للغة العربية دورًا، بدونه لا يمكن إيجاد هذا التلاقح الثقافي، فـ «هي الأصل الأول الذي لايمكن أن ينفصل عن ديننا ولا عن ثقافتنا، وعن طريقها وحده، يستطيع الفرد المسلم، من أي جنس كان، أن يتخذ من الأصول الجامعة في هذا الدين نبراسًا لنمو الأفكار والمبادئ عن طريق النظر والاستنباط من نصوص هدي الكتاب والسنة، وعن طريقها أيضًا يتم الاحتكام إلى الكتاب والسنة عند اختلاف العقول في نظرها واستنباطها، وعن طريقها أيضًا نستطيع أن نخلص الثقافة العربية والإسلامية التي نحن ورثتها من كل ما شابها أو خالطها»[2].

هكذا تبلورت الثقافة في منهج محمود شاكر، باعتبارها أصلا من أصول المنهج، وسمة مميزة من سماته، لا يُتصوَّر وجودُه وفاعليتُه مع غيابها، وفي الآن نفسِه لا تتعارض مع العلم، بالرغم من أصالتها واستمدادها من التراث العربي.

٤-شمولية المنهج ورحابة أبعاده:

فقد أدى اطِّلاعه على التراث، بكل أنواعه إلى تكوُّن منهج شامل متراحب بتراحب أفق التراث وإنتاجه، يتناول نتاج الآداب الإنسانية على اختلافها وتنوعها.

(١) في الطريق إلى حضارتنا «محمود محمد شاكر مجلة «الثقافة»، العدد العاشر – يولية ١٩٧٤، ص ١٠٧٨من الجمهرة، ص١٠٨٣.

(٢) في الطريق إلى حضارتنا « مجلةالثقافة»، العدد العاشر – يولية ١٩٧٤، ص ١٠٧٨من الجمهرة ص ١٠٨٥ – ١٠٨٦.

يقول الأستاذ شاكر:«أمدتني هذه التجربة الجديدة – يقصد تجربة الاطلاع على التراث العربي كلِّه – بخبراتٍ جمَّة متباينة متشعبة، أتاحت لي أن أجعل منهجي في « تذوق الكلام «منهجا جمعًا شاملًا متشعب الإنحاء والأطراف، يزداد مع تطاول الأيام رحابة وسَعةً، وحدَّة ومَضاءً، ونفاذًا ودِقَّةً، وشمولًا واستقصاءً»[1].

فهو منهج يتناول «الشعر والأدب بجميع أنواعه، والتاريخ، وعلمَ الدين بفروعه المختلفة، والفلسفة بمذاهبها المتضاربة، وكلَّ ما هو صادرٌ عن الإنسان إبانةً عن نفسه وعن جماعته، أي يتناول الثقافة المتحدرة إليه في تيار القرون المتطاولة والأجيال المتعاقبة، ووعاء ذلك كلِّه هو اللغة واللسان لا غيرُ»[2].

وإنما كان المنهج بهذا القدر من التشعب والسَّعة والرحابة؛ لتشعُّبِ روافده التراثية وتنوعها، وتداخلها وتعالقها.

يقول: «إن الإحساس القديم المبهم المتصاعد بفساد الحياة الأدبية، قد أفضى بي إلى إعادة قراءة الشعر العربي كله أولا.ثم قراءة ما يقع تحت يدي من هذا الإرث العظيم الضخم المتنوع من تفسير وحديث وفقه، وأصول فقه، وأصول دين «هو علم الكلام» وملل ونحل «إلى بحر زاخر من الأدب والنقد والبلاغة والنحو واللغة، حتى قرأت الفلسفة القديمة والحساب القديم والجغرافية القديمة، وكتب النجوم، وصور الكواكب، والطب القديم، ومفردات الأدوية، وحتى قرأت البيزرة والبيطرة والفراسة. بل كل ما استطعت أن أقف عليه بحمد الله سبحانه، قرأت ما تيسر لي منه، لا للتمكن من هذه العلوم المختلفة، بل لكي ألاحظ وأتبين وأزيح الثرى عن الخبء المدفون»[3].

(١) رسالة في طريق إلى ثقافتنا، محمود محمد شاكر، ص٨.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٣.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٣-٢٤.

فهذا التنوع الثقافي، وتعدد مصادر المعرفة التراثية، كفيلٌ بأن يكونَ نتاجُه بهذا السعة المنهجية، وجذوره التراثية كفيلة بأن تكسبه الأصالة.

وهذه السعة في المصادر المعرفية للمنهج، قد ترجمت عملًا ذا سعة في التطبيق، فلا يكفيه أن يمارس الدراسة لنص ما ممارسةً سطحية، من دون تعمقٍ، وسبرٍ للنص ومنتجه، وما يحيط بهما من أمور وخلفيات وبيئات ثقافية، تكون كاشفةً عن مراميه، ومقاصده ومعانيه.

وهذه الرحابة في المصادر المعرفية، تضاهي التنوع المعرفي الذي يعتمد عليه علم اللغة النصي، فهي بمثابة مرتكزات داعمة لتحليل النصوص، وممارسة التفكيك والبناء.

ونتيجة لهذه السعة المنهجية؛ نعى شاكر على «لويس عوض» عدم إحاطته بشخصية أبي العلاء وهو يحلل نصوصه. وقد وقع في أخطاءٍ جسيمة؛ نتيجة لسوء الفهم.. وقلة التعمق في إدراك مرامي فكر أبي العلاء. وعدم تقصي مصادر ثقافته، والمؤثرات الحقيقية في أدبه. يقول أبوفهر «فالدارس ينبغي أن يكون قد ملك الأسباب التي تجعله أهلا لمعاناة المنهج» وهذا شيء يحسن ضرب المثل عليه لتوضيحه. فإذا اتخذنا شيخ المعرة مثلا موضحا. فدارسه ينبغي أن يكون مطبقا لقراءة نصوصه جميعا من نثر وشعر، لا من حيث هما لفظان مبهمان غامضان: نثر أو شعر، بل من حيث تضمنها ألفاظا دالة على المعاني، وألفاظا قد اختزنت على مر الدهور في استعمالها وتطورها قدرا كبيرا من نبض اللغة ونمائها الأدبي والفكري والعقلي، إلى كثير من الدلالات التي يعرفها الدارسون، ثم

من حيث هي ألفاظ قد حملت سمات مميزة من ضمير قائلها بالضرورة الملزمة، لأنه إنسان مبين عن نفسه في هذه اللغة بما يسمى»شعرا» أو بما يسمى «نثراً»[1].

٥- النظرة النصية الكلية:

إن النظرة الكلية للنص- أي وحدة النص وانسجامه وترابطه وتماسكه - لم تكن بدعًا في منهج شاكر، بل هي نظرة متجذرة في التراث العربي.

وقد وُجدَ في كلامه ما يؤكد امتداد هذه النظرة بمنهجيتها، وأبعادها في منهجه، واستقائه إياه من مورث الثقافة العربي الهائل الذي تضلع به.

فهو ينطلق من فكرة الوحدة النصية أو التماسك النصي، الذي عبر عنها بالبناء؛ ومن ثم فإن كل سعي يسعاه في التحليل تكون هذه الفكرة من ورائه، إما باحثًا عنها أو مثبتًا لها، وكل حركة في النص سواءً أكانت معجمية أو نحوية أو صرفية أو أيا ما كان المستوى الذي تنتمي إليه فإنما هي خادمة لهذه الفكرة ومؤدية إليها.

فقد تكررت لفظة البناء،بما تحمله من دلالة التماسك والتراصِّ وتتابع الوحدات -تكررتْ في ثنايا تحليله؛ مما يدل أوضح دلالة على حضور ذلك الأصل في منهج، واعتباره له في الأعمال الفنية.

وكانت كلمة البناء، بما تحمله من دلالات، تُرادفُ كلمة «الصحة»، و«الاستقامة»، وهذا يعني أن اختلال بناءِ النص يساوي عدمَ الصحة وعدمَ استقامة النصِّ، يقول الأستاذ شاكر:«وكثير من القصائد التي وقفت عليها مختلَّةَ البناء في رواية من روايات

(١) انظر:

(أ) أباطيل وأسمار، محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي – القاهرة ط. الثالثة ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م، ص٢٠.

(ب) العلامة محمود شاكر في مواجهة النص، رؤية ومنهج:«مقال إلكتروني بقلم، د.صابر عبد الدايم رابط المقال:. http://alarabnews.com/alshaab/GIF/02-08-2002/Shaker.htm .

العلماء القدماء الثقاتِ، أمكنني بالتقصي والتفتيش، أن أجمع لها رواياتٍ أخرى مختلفةً في المخطوط والمطبوع من الكتب والدواوين، فصحَّح بعضها بعضًا، حتى وجدتها قد استقامت على نهج واضح ينفي عنها افتقارها إلى صحَّة البناء*، أو إلى ما يسمونه الوحدة»[1].

وكذلك نرى الإشارة إلى ضرورة التماسك النصي للقصيدة، الذي بغيابه تكون القصيدةُ ساقطةً لا قيمة لها، ولعل هذا النظرة هي ما جعلت الأستاذ يورد لفظ البناء، على ما يحمله هذا اللفظ من معاني التماسك والالتحام والتداخل والترابط وتكراره، يقول:«لأن الأمر عندئذٍ يتعدى حدَّ تنسُّم معاني الشعر، إلى مثل قدرة الشاعر على بناء قصيده وشعره،.. وبتركيب الألفاظ بناءًا واحدًا تلقفه النفوس بالتذوق»[2].

ومعنى البناء الواحد عدمُ استغناء الأول عن الآخر، ولا الأول عن الآخر، عبرَ شبكة من العلاقات، المترابطة المنسجمة.

ففكرة البناء الواحد- إذن - موجودة في المنهج وركيزة من ركائزه، بكل ما تحمله من دلالات الترابط والتماسك، والانسجام،والتلاحم، وهو أيضا بناءٌ متقَنٌ تتراصُّ فيه اللبِنات معًا؛ لتؤدي دورها، وبدون ذلك التراصِّ المتقن تضيع الوظيفة النصية بكل خصائصها، و هو يؤكد على أن تمثل القصيدة لابد أن يعتمد على:«الوشائج التي تتخلل الألفاظ مركبةً في جملتها عن قصد وإرادة، ثم إلى ضروب من المعرفة بأحوال العرب في جاهليتها، وما كانت تأخذ، وما كانت تدع من المعاني، وما كانت تألف مما يحيط بها في

(١) نمط صعب ونمط مخيف، محمود محمد شاكر، ص ٤٤.
(٢) المصدر نفسه، ص١٣١.

حياتها وفي الحواضر وبجمهرة الأساليب المختلفة التي يسلكها الشعراء في بناء القصيدة لبنةً لبنةً حتى يستوي بناءً قائمًا منضَّدًا»[1].

ونستطيع أن نقف من قوله الآنف على معيارية نصية متمثلة في الترابط (الوشائج)،والقصدية (عن قصد وإرادة)، والموقفية العامة المتمثلة في « المعرفة بأحوال العرب في جاهليتها،..».

وإذا كانت نظرته إلى القصيدة نظرةً كليةً تكامليةً؛ فإن تحليله – ولابد – يأتي موافقًا لتلك النظرة، خادمًا لها، باحثًا عن ملامحها وأسبابها، متوفرًا على إثباتها.

ومن ثَمَّ، كان من أصعب المشكلات التي تقابل هذه المنهج، هي قضية اختلال الترتيب، التي تسقط النص الشعري جملة، وتظهره وحداتٍ مهلهلةً، مفككةً، لا علاقة بين أجزائها إلا مجرد المجاورة، الفارغة من أي معنى من معاني الإنسجام الذي يؤدي التفهم والتواصل.

يربط محمود شاكر بين اختلال الترتيب الذي رُميت به القصيدة، والوحدة العضوية، «فيتساءل منكرًا» فإذا كان مختلَّ الترتيب، فهو إذن خالٍ من «وحدة القصيدة». وإذا كانت القصيدة خاليةً من«الوحدة العضوية» فهي إذن أبيات متفرقة لا يربط بعضها ببعض شيء، وإذن، فكل بيتٍ في الشعر العربي، جاهليِّه إسلاميِّه، «وحدة» قائمة برأسها، يسهل تغيير موضعه من القصيدة، فيمكن ترتيب أبياتها ترتيبًا مخالفًا لما جاء به شاعرها وقائلها. إذن فهذا الشعر، من حيث هو شعر، لا خير فيه، وليس ينبغي أن يكون مثالًا يُحتذى، لأنه مفكَّك معيب، دالٌّ على فكر مفكَّكٍ معيب. وإذا كان في هذا الشعر شيء من الجمال، فإنه يكون في البيت بعد البيت، تصيبه أحيانًا وتخطئه أحيانًا كثيرةً»[2].

---

(١) نمط صعب ونمط مخيف، محمود محمد شاكر، ص١٣٣.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٢٧.

لذلك وجدنا الأستاذ محمود شاكر قد أَوْلى هذه القضية – على مشقتها – اهتمامًا بالغًا؛ فبدونها تضيع نصية النص، وقيمة العمل الفني؛ إذ يفقد قيمته التعبيرية والإبداعية والتواصلية.

فـ«قضية ترتيب أبيات القصيدة، قضية معضلة، والاجتراءُ عليها أمر صعبٌ، وتيسُّر أداتها لمن يحسن الفصل فيه قليل»[1].

وقد أدَّته تلك النظرة إلى «استقصاء كل اختلاف يقع في ألفاظ الأبيات، باستخراجها من دواوين، ومن مصادر الأدب والنحو واللغة والتاريخ وما إليها»[2].

على الرغم من أن: «مجرد استقصاء ذلك لا يكاد يغني شيئًا، بل يحتاج الأمر بعد ذلك إلى بصر دقيق بوجوه اختلاف هذه الألفاظ، وإحاطة تامة بمعاني الشعر عامة، ومناهج شعراء العرب في بيانها عن نفسها خاصة، على اختلاف وجوه البيان وتداخل بعضها في بعض، ثم يحتاج إلى لَمْحٍ صادقٍ يُجلِّي الفرق بين اللفظين أو الثلاثة، حتى يستطيع أن يحكم: أيها أحق بمكانه من البيت، ولن يستطيع أن يحكم في ذلك حكمًا صحيحا، إلا والقصيدة كلها ماثلة له بمعانيها وظلالها ومناهجها»[3].

وإيجاد البناء النصي المتماسك المترابط للمتلقي، ليس فقط عملية استكشاف وتفتيش، بل هو بمثابة عملية ترميم للقصيدة، ولملمة لأطرافها التي قد تبدو ممزقةً، بسبب اختلاف رواياتها. وقد أبانَ عن تلك الحال، وذلك العمل المضني –مشبِّهًا حاله– حين تجشم العمل في القصيدة – بمن» وقعت له صورة ممزقة طرائقَ قِددًا، قددًا صغارًا

(١) نمط صعب ونمط مخيف، ص١٢٩.
(٢) المصدر نفسه، ص١٣١.
(٣) المصدر نفسه، ص١٣٢.

صغارًا، متناثرة مختلطة، فرامَ أن يعيدها إلى ما كانت عليه قبل تمزيقها، وهو في ذلك كله لا يدري كيف كانت الصورة»[1].

ونراه يعبر عن فكرة الانسجام، والامتداد الدلالي، وتشابك العلاقات في النص بقوله:«فبان بذلك أن البيت لم يفارق ما قبله في خصائصه، وفي اشتماله على الحركة، وعلى تمثل الصورة حية نابضة بعد جمود تجاليدها»[2].

وهنا يجدر أن نشير إلى قضية مهمة، وهي قضية الفصل الزمني بين فقرات النصوص المنتَجة. فليس يعني الفصل الزمني بين أجزاء النص في زمن الإنتاج والإرسال –لا يعني مطلقًا انعدام التماسك أو ضعفه.

إذ ليس شرطًا في التماسك أن تتحد وحدات النص في زمان الإنتاج، يقول د. صبحي إبراهيم الفقي: «ومن الباحثين من عرض لأهمية التماسك، ولكن من ناحية البعد الزمني للنص» فنحن نجد في كل يوم عناصر محادثة تدور حول الفقرات السابقة أو المبكرة، وقد فصل بينهما عدة دقائق، بل عدة ساعات من وقت المتحدث، والكتُّابُ يستغلون هذا بصنع روابط تماسكية، عبر امتدادات طويلة جدًّا، وهذا حدث –على سبيل المثال – في سورة المزمل؛ إذنزل شطرها الأول ثم نزل الشطر الثاني منها بعد اثني عشر شهرًا من الأول، ومع ذلك حدث التماسك بين الشطرين من خلال العديد من الأدوات»[3] [4].

---

(١) نمط صعب ونمط مخيف، ص ١٣٢.

(٢) المصدر نفسه،ص١٩٦.

(٣) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، د. صبحي إبراهيم الفقي ص٩٤، ما بين علامتي التنصيص منقول عن هاليدي ورقية حسن، ص٢٩٤.

(٤) يقول ابن هشام في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة:١]، فقيل: هي نافية، واختلف هؤلاء في منفيها على قولين: أحدهما أنه شيء تقدم، وهو ما حُكي عنهم كثيرا من إنكار البعث، فقيل لهم: ليس الأمر كذلك ثم استؤنف القسَم، قالوا: وإنما صحَّ ذلك؛ لأن القرآن كلَّه كالسورة الواحدة، ولهذا =

ولعل هذا يطابق ما ذهب إليه شاكر، حين تكلم عن «أزمنة الحدث»، و «أزمنة التغنِّي»، و«زمن النفس» – التي تُنتج النص الشعري – وتشعثِّها.

فاجتمع لنا من نظرته التماسكية للنص، وإقراره لوجود هذه الأزمنة، وتشعثها – اجتمع لنا من ذلك أنها لا تنافي قضية التماسك النصي ولا تهدمها، بل على العكس، فهو يرى أن زمن النفس هو المسؤول عين إيجاد التماسك والانسجام بين أجزاء القصيدة.

يقول الأستاذ شاكر:و«تشعيث الأزمنة»، «تشعيثُ أزمنة الأحداث»، «وتشعيث أزمنة التغني»،..موجود مألوف في أشعار الجاهلية، ولكنه يخفى أمرُه حتى لايكاد يُعرف، وهذا الخفاء هو الذي يؤدي ببعض المتهورين إلى الظنِّ باختلال بعض القصائد، فيعمدون إلى إعادة ترتيبها ترتيبًا لا ينتهي العجب من سخفه»[1].

ونراه يقرر أيضًا أن التباعد الزمني بين تلك الأزمنة الآنفة، لا يؤثر في تماسك النص «فمن أجل ذلك قد يكون «زمن التغنِّي» بعيدًا جدًّا من «زمن الحدث»، وقد يتخللهما أيضًا «أزمنة أحداثٍ» و «أزمنة تغنٍ»، ومع ذلك يصدر الغناء، أو المقطع من الغناء، وهو قريب الشبه بما صدر منذ زمن قديم ساعة تلاصق «زمن الحدث» و «زمن التغني..»»[2].

إذن فالبعد بين زمن الحدث وزمن التغني، وتخللهما بأزمنة تتغنٍ، كل ذلك لا يعني عدم التماسك.

= يذكر الشيء في سورة وجوابه في سورة أخرى، نحو: ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ ﴾ (الحجر:٦)، جوابه ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٍ ﴾ (القلم: ٢).

(١) نمط صعب ونمط مخيف، محمود محمد شاكر، ص٢٤١.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٤٣.

تلك هي نظرته للتماسك النصي والتئامه، وانطلاقه في منهجه التحليلي من تلك النظرة، وقد أكَّد هذه – بالإضافة إلى ما سبق – عدَّةُ أمور، هي:

١ – عيْبُه على شرَّاح الشعر بأنهم نظروا إلى القصائد نظرة جزئية، ولم ينظروا إليه على أنها كلٌّ متماسك، فوقعوا في أخطاءٍ فادحة في إبانتهم عن مقاصد الشعراء.

يقول شاكر:«فبيِّنٌ للمتأمل أنهم صرفوا أكبر جُهدهم في النظر إلى لغة الأبيات وهي تفاريق غير مجتمعة، ولم يبالوا بالنظر في جملة القصيدة،.. فمن أجل ذلك وقع في شروحهم لبعض ألفاظ الأبيات، تفسيرُ لغةٍ، ولكنَّه تفسيرٌ دونَ غرض الشاعر أحيانًا، أو يزيد عليه أحيانًا أخرى، ويقع فيها أيضًا من الشرح ما غيره أولى به، وإن كان صحيحًا في معنى اللغة وفي معنى شعرِ غيرِه أكثر تداولًا وشهرة»(١).

ومن ذلك ما أحدثه بعض الرواة والشراح من تصرف بالتقديم والتأخير والحذف، لبعض أبياتها، مما ضعضع بنائها، وشوَّه ملامحها، وأصابها بالاختلال، وتمزقها شكلًا ومعنى.

يقول شاكر وهو يتكلم عن القسم الثالث من أقسام القصيدة:

«ومع ذلك، فلم ينل من القصيدة كلّها ما نال هذا القسم الثالث من عبث العابثين قديماً وحديثاً، فأول عبثٍ من عبث الرّواة والشّراح أنّ ابن هشام في كتاب (التيجان) حذف البيت السادس عشر: (فادَّركنَا الثَّأرَ مِنهم)، وجاء بالأبيات الثلاثة الباقية على هذا الترتيب: (١٤، ١٥، ١٦)، ثم وضعها في أواخر القصيدة بعد البيت السادس والعشرين (وعِتاقُ الطير)، ثم قفَّاها بالبيتين: (٢٤، ٢٣) (فاسقنيها يا سواد بن عمرو) ثم (حلت الخمر)،فأفسد سياقَ الأبيات وسياقَ القصيدة كلها، وإن دلَّ ذلك من فعله على أن

(١) نمط صعب ونمط مخيف، ص١٣٧.

(رعتُهم) في البيت السابع عشر، بضم التاء، وأن الضمير فيها من حديث الشاعر عن نفسه.

أما ابن عبد ربَّه في العقد فإنه جاء بما هو أخبث، حذفَ هو أيضا البيت السادس عشر، ثم مزّق أوصال الأبيات، فوضع البيتين ١٥ ، ١٧ بهذا الترتيب بعد البيت الثالث عشر (يركَبُ الهَوْلَ وَحِيداً) وأخذ البيت الرابع عشر (وفُتُوٍّ هَجَّرُوا) فطرحه في أسفل القصيدة بعد البيت (٢٦) (وعِتاق الطير) وبعده البيت (٢٤) (فاسقينها)، فصار كلاماً لا يفهم، ويشبه أن يكون قد جعل «رعتَهم» (بفتح التاء، ضمير المخاطب) في البيت السابع عشر.

أما المرزوقي وهو شارح حماسة أبي تمام: الذى روى هذه القصيدة فإنّه لم يفعل شيئا من ذلك، سوى أنّه حذف البيت السادس عشر «فادَّركنا الثأر» ثم جعل «رعتَهم» (بفتح التاء، ضمير المخاطب)، وصرَف الكلامَ في الأبيات كلها عن أن تكون من حديث الشاعر عن فتية من أصحابه أغاروا معه على هُذيل حتى أدرك بثأر خاله، إلى أن تكون استمراراً لحديث الشاعر عن خاله في الأبيات التى قبلها، وعن فتية صحِبوا خاله، فكان هو رئيسَهم ومدبّرهم، كما قال المرزوقي.

وبحذف البيت السادس عشر وهو قِوام هذا القسم كله، وبتأويل الأبيات إلى خالِ الشاعر، خلت القصيدة من كلِّ ما يدلُّ على أن شاعرنا هذا قد جَدَّ في الطَّلبِ بثأر خاله، وصار قوله في أول الشعر:

«ووراءَ الثَّأْرِ منّى ابنُ أخْتٍ،..مُطْرِقٌ يَرْشَحُ مَوْتاً»

كلاماً لا تحقيق له، وإنّما هو كذِبٌ محض، وبذلك أباد المرزوقي معنى القصيدة إبادةَ من لايرحم.

وإنما حمل المرزوقيَّ على حذف البيت السادس عشر، مع ثبوته في رواية التبريزي، الذى اطّلع على شرحه على الحماسة، واستلَّ أكثره، أنَّ المرزوقيَّ أزعجه وحيّره قوله في هذا البيت:

فـادَّرَكْـنَـا الـثَّـأْرَمـنـهـم وَلَمْ يَـنْـجُ مِـلْـحَـيَّـيْنِ إِلَّا الأَقَـلُّ

وضاق بموقع «ولما ينج»، والتبس عليه وجوه تأويلها، فلم يقلع حتى حذف البيت كله، واستراح، وصرف معنى الأبيات إلى خال الشاعر، ورضى عن نفسه كلَّ الرضى!

وإذا كان المرزوقي في شِرحه على «المفضليات» قد وجد تعبيرا شبيهاً بهذا التعبير في قصيدة تأبّط شرّاً (وقد سلف ذكر ذلك) في قوله: «حتَّى نجوتُ، ولما يَنْزعُوا سَلَبِي»، ووجد عند ابن الأنباري (وهو إمام قديم) تفسيراً له يُغير عليه ويتوهَّم الرِّضى عنه، فإنه لم يجد عند أحد شيئاً في «ولّما ينج» ولا وجدَ تأويلَ ابنِ الأنباري صالحاً لهذا الموضع، فرمى بالبيت كله، ورتع في السلامة من المشكلات[1].

وكل هذه التصرفات من الرواة والشراح، أسهم في انهدام بناء القصيدة، وتمزق أوصالها.

٢-ولم يكن تنَبُّهُه لفعل الرواة والشراح بأقلَّ من تنبهه لما أصابها على يد المستشرقين من خلل واضطراب، بسبب ما اقترحوه من ترتيب لها، و بسبب ترجمتهم لها ترجمةً تفقدها روابطها ومعانيها، فأخطأوا ترتيب القصيدة وحلُّوا أوصالها، وأضاعوا معانيها.

(١) نمط صعب، ونمط مخيف، ص ٢٢٩-٢٣١.

فقد رأى أن «جوته» تورط في إعادة ترتيب القصيدة «ترتيبًا لا يقوم على أساس من العقل، ولا الفن، فضلًا عمَّا فيه من إلغاء روابط اللغة، وقلة المبالاة بنحو العربية، أي بكل ما يكون به الكلام مستقيمًا مفهومًا»[١].

كما رأى كذلك أن الترجمة التي تعرضت لها القصيدة ترجمةٌ ركيكةٌ، مزقت القصيدة شكليًّا ودلاليًّا، لافتقارها للروابط النحوية والمعجمية ومن ثَمَّ العلاقات الدلالية المحققة للتماسك في عالم النص وظاهره.

يقول شاكر:«وتبين لي يومئذ فرقُ ما بين الترجمة والأصل،وأظنه كان فرقًا عظيم الدلالة على أن الشعر يفقد نفسه إذا تُرجِم، مهما كانت منزلة المترِجم»[٢].

وما ذلك الفقدان إلا لفقدان ضمانات التماسك المتمثلة في العلاقات اللغوية والدلالية جملة أو تفصيلًا، وحدوث الخلل فيها.

وقد وصف ترجمة «جوته» بأنها: «ترجمة القصيدة كلها هابطة من قمة الإحكام إلى حضيض التفكك»[٣].

ويرى الأستاذ أن ما فعله الرواة والشراح من العبث بترتيب القصيدة وحذفِ أجزاءٍ منها، قد يكون محتملًا، لكن الذي لا يتسع له الاحتمال، هو ما فعله بعض المستشرقين واقترحوه من إعادة ترتيب القصيدة فأفسدوها، وأذهبوا رونقها وتماسكها.

ومن هؤلاء المستشرقين، «سير تشارلز لايل»، الذي أعاد ترتيب القصيدة، «فوضعها بهذا الترتيب:(١٥، ١٤، ١٧، ١٦) أي «كل ماض،..»، «وفتوٍّ هجروا،..»،

(١) نمط صعب ونمط مخيف، ص٢٩٧.
(٢) المصدر نفسه، ص٣٦.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٣٤.

«فاحتسوْا،..»، «فادَّركنا الثأرَ منهم،.. فألغى كل ما هو موجود في الأبيات من روابط الكلام، ولم يبالِ بها ولا بنحو العربية»[1].

وأسوأ من ذلك ما فعله المستشرقُ «نيكلسن»، الذي وافق أستاذَه «لايل» على هذا الترتيب، وتابعه في تأويل بعض معاني القصيدة، ثم ترجمها للإنجليزية «فجاء بشيء غثٍّ جدًّا،..وطرح في القصيدة معانيَ منكرةً بعيدة كلَّ البعد عن هذا الغناء الفخم الجليل»[2].

أما اقتراح «جوته» لإعادة ترتيب القصيدة، فهو راجع أيضًا عن سوء الترجمة، يقول شاكر:

«وإنما اقترح ذلك «جوته» لسوءء ترجمة «فريتاج» للقصيدة، ثم لهبوط ترجمته هو للقصيدة وفسادها، فاقترح هذا الترتيب، اعتمادًا على ما فهمه من هذا الخلط والفساد والهبوط، في الترجمة اللاتينية والترجمة الألمانية، لا اعتمادًا على القصيدة العربية نفسها، كما كان ينبغي أن يفعل»[3].

ويُرجع سوء الترجمة إلى وجود علائق لطيفة «لا تُدرك إلا بالتأمل والفحص والتذوق النافذ، يستحيل أن يجد لها المترجم مقابلًا في اللغة التي يُترجم إليها، إن كان قادرًا على إدراكها والنفاذ إليها، فما ظنك به إذا لم يكن له أدنى علم بها؟»[4].

٣- دفاعه عن وحدة القصيدة العربية، وإثباته لتلك القضية من خلال تطبيقه منهجه، يقول: «وأنا إن كنتُ لم أتناول موضوع «وحدة القصيدة» بصريح الذكر في هذه

(١) نمط صعب ونمط مخيف، ص٢٣٢.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٣٢.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٥١.
(٤) المصدر نفسه، ص٣٠٦.

المقالات، فإني كشفتُ بتطبيق منهجي على هذه القصيدة، عن أن «الوحدة» كائنةٌ في الشعر الجاهلي، واضحة كلَّ الوضوح، وأن كل عبث بترتيب أبياتها، أو ترتيب أقسامها السبعة، يهدم بناءها هدْمًا لا صلاح بعده»[1] [2].

«وأكثر من يلهج بمثل هذه المقالة في شعر الجاهلية، ممن ليس لهم بصرٌ بالشعر، ولا معرفةَ لهم بدواوينَ شعر الجاهلية، ولم يمارسوا قطُّ عناءَ البحث عما تفرق في كتب العربية عن هذا الشعر»[3].

ثم يبين سبب اتهام القصائد الجاهلية بأنها مفتقرة للوحدة العضوية بقوله:«وكثير من القصائد التي وقفتُ عليها مختلة البناء في رواية من روايات العلماء القدماء الثقات،

---

(١) نمط صعب، ونمط مخيف، محمود محمد شاكر، ص ٢٩٩.

(٢) وقريب من هذه المعالجة ما أورده، د. سعد مصلوح في أثناء حديثه عن قصيدة المرقِّش الأصغر: «وقد جاءت على سمت الشعر القديم في الالتزام بما نطلق عليه عادة وحدة الوزن والقافية، تلكم هي مسألة جوهرية أولى في مواجهتنا لهذا النص، وأخرى، هي أننا بإزاء القصيدة المعاصرة نجد من الشاعر نفسه معينًا للمتلقي على تقسيم القصيدة أقسامًا، يمكن أن نتخذ منها هاديًا للكشف عن العلاقة بين عالم النص (يقصد الحبك أو التماسك المعنوي)، وظاهر النص (يقصد السبك أو التماسك النحوي)، وتظهر هذه التجزئة في حال الطباعة بأشكال تتفاوت بساطة وتعقيدًا، ولكنها موجودة أبدًا. أما في القصيدة القديمة فلا شيء من ذلك مطلقًا، بل لا إحساس للحاجة إليه أصلًا، وإنما تأتيك القصيدة في هيئة مطبوعة على صفحة القرطاس، ترسِّخ في وعي المتلقي ولا وعيه تهمة الرتابة في النغم، وافتقارها إلى ما سموْه «الوحدة العضوية» التي سارت بذكرها الأقلام في زمن غبر، وحاجتها إلى إعادة ترتيب أبياتها على نحو تتحقق به الوحدة المفتقدة المزعومة، وهذه تُهم يعلم الله والراسخون في العلم أنها لم تصادف موضعها، وأن مرد الأمر في بعض جوانبه إلى خلو القصيدة من التقسيم، وإلى افتقارها إلى ما ينبغي تزويده بها من علامات الترقيم، وتحكيم تقاليد القسمة المقدسة لكل بيت من أبياتها إلى شطرين بينهما بياض (ويظل التدوير استثناءً من القاعدة)، ومن ثم تقع التسوية بين قصيدة بعينها وسائر ما قالته العرب في هيئة واحدة متوقعة سلفًا، تنتفي معها كل خصوصية للنص، انظر «في البلاغة العربية، والأسلوبيات اللسانية آفاق جديدة»، د.سعد مصلوح، ص٢٣٠-٢٣١.

(٣) نمط صعب، ونمط مخيف، محمود محمد شاكر، ص٤٤.

أمكنني بالتقصي والتفتيش، أن أجمع لها رواياتٍ أخرى مختلفةً، في المخطوط والمطبوع من الكتب والدواوين، فصحح بعض هذه النصوص بعضًا، حتى وجدتُها قد استقامت على نهج واضح ينفي عنها افتقارها إلى صحة البناء، أو إلى ما يسمونه «الوحدة»[1].

فبيِّنٌ أن صحة البناء تلازم الوحدة العضوية، ويكونانِ شيئًا واحدًا، وأن اختلال الترتيب يهدم بناءها، ويذهب بصحتها ووحدتها.

ولا ينفي محمود شاكر وجود قصائد مفككة غير مترابطة، مفتقرة للوحدة العضوية، لكنَّ هذا الوصف ينبغي ألا يُصار إليه إلا بعد التحقيق والتحري، والفحص الدقيق، ولا يُهجمُ عليه هجومًا، في أفراد القصائد، فضلًا عن أيكون حُكما عامًّا، أو أصلًا، تُعدُّ مخالفتُه استثناءً فحسب.

يقول: «ومع كل ذلك، فلستُ أريد أن أنفيَ أن يكون بعضُ ما وصلنا من الشعر مختلَّ الترتيب، بل ذلك كائن لا شكَّ فيه،.. ولكنَّ اختلال الترتيب الذي تراه ربما كان مردُّه إلى ألفاظ في بعض الأبيات أخطأ بعضُ الرواة فوضع كلمة مكان كلمة، قريبًا معناها من معناها، سهوًا أو غلطًا أو سوء تقدير، وربما كان اختلالًا لا مِرْية فيه، يظهر من التحري في مراجعة القصيدة، وربما كان مرده إلى سقوط بيت أو أبيات مجتمعة أو متفرقة، أو تقديم أو تأخير، ذلك ممكن، ولكن لا يُقضى فيه إلا بعد التثبت والنظر والأناة، بل ربما ساق الشاعر شعره، متعمدًا سياقةً تُخيِّل إليك عند النظرة الأولى أن القصيدة مختلة الترتيب، أو سقط منها شيء، أو ربما كان «التشعيث» في الأبيات من الخفاء بحيث لا يدرك المرء أنه بيان مستقيم على تشعيثه، إلا بعد نصَب وطول تأمُّل»[2].

---

(١) نمط صعب، ونمط مخيف، محمود محمد شاكر، ص٤٤.

(٢) المصدر نفسه، ص١٣١-١٣٢.

فسياقة الشاعر، والإبهام الذي يكتنف لغة الشعر، والمجاز الذي يقوم عليه بناؤه – كلُّ ذلك قد يجعل النصوص الشعرية – في ظاهرها – مفككةً مفتقرة إلى التماسك، لكنَّ الأمر يختلف تماما عند النظر الدقيق، والتفتيش عن أنواع الروابط التي تكفل لها التماسك والانسجام، يقول د. صلاح فضل مؤكدًا:«أن هناك نوعًا من آخر من التماسك الكلي، يتجاوز الأبنية النحوية السطحية للنصوص، ويتصل بمجمل عالمها الدلالي والشعري، وهو يتجلى في تلك الحالات التي قد يبدو فيها النص مفككًا من السطح، لكننا لا نلبث أن نتبيَّن وراءه بنية عميقة محكمة في تماسكها، تُفسِّر تشاكل الأجزاء، وتضمن اتساقها مع تشتُّتها الخارجي»[1].

وقد أكَّد شاكر أن تشعيث الأحداث لا يتنافى مع الوحدة العضوية، بل هو أحد أسباب تماسكها وترابطها، ويرى أن جوته«أدرك إدراكًا واضحًا أن هذا «التشعيث» هو الذي منح القصيدة هذه«الوحدة العضوية» التي تجعل مقاطعها المشعثة قادرة على أن تريك الأحداث من البداية حتى النهاية « وهي تنمو وتتشكل أمام خيالك»[2].

و يؤكد أيضًا أن القول بافتقار القصيدة العربية إلى الوحدة، معناه أنها «شيء مكوَّم» مكوَّن من «وحدات» كل «وحدة» منها قائمة بذاتها، فلذلك يسهل تغيير مواضعها من هذا «الشيء المكوَّم»، لأنها متفككة لا رباطَ لها»[3].

ثم ينتهي إلى إثبات وحدة القصيدة، وهي إحدى الغايات التى أراد الوقوف عليهاي إثباتًا من خلال تحليله، وتطبيقه لمنهجه على هذا النموذج الشعري الجاهلي.

---

(١) بلاغة الخطاب وعلم النص، د. صلاح فضل، ص٢٤٦.
(٢) نمط صعب، ونمط مخيف، ص٣١٣.
(٣) المصدر نفسه، ص٣١٦.

«ولقد دلت دراستي للقصيدة على أن هذه «الوحدة»، بأي وجهٍ فُهمت أو فُسِّرت، كائنة في قصيدتنا هذه»[1].

ومعنى ذلك أن اختلال ترتيب القصيدة، الناتج عن افتقاره للوحدة ناسفٌ من الأصل للتماسك على المستويين الظاهر والباطن في النص، كما يفقد المعايير الأخرى وجودَها ووظيفتها.

وهكذا نرى أن المنهج قد اشتمل على أصول واجراءات ورؤى، تتلاقى مع الدراسة النصية الحديثة، وإن كانت غير متطابقة كل التطابق، وهذا طبيعي باعتبار اختلاف الخصائص الثقافية المستمدة لكلٍ منها، واختلاف التصور الفكري، إلا أن ذلك لم يمنع وجود اتفاق من جهة التصور العام لعلم اللغة النصي.

(١) نمط صعب، ونمط مخيف، محمود محمد شاكر، ص٣١٧.

الفصل الثالث

تمثُّل المعايير النَّصية

في

منهج محمود شاكر

الفصل الثالث

تمثل المعايير النصية في منهج محمود شاكر

«إن لغة النص لغة متفاعلة، ليست خامدة، ولاتكف عن الحركة: لا تكف عن استيعاب دلالات ومضامين جديدة، وإفراز أبنية غير محدودة، تتطلب وصفًا ديناميًّا يواكب تلك القدرة ولا يحدها، وبالتالي تحتاج إلى قارئ ذي كفاءة معينة، قادر على القيام بعملية لا تقل قيمة عن عملية إنتاج نصوصها من خلال عمليات الوصف والتحليل والتفسير، قادرٍ على إبراز إمكانات النصوص وطاقاتِها غير المحدودة»[1].

ومن هنا أُختُصَّ هذا الفصلُ بتتبع ورصد الملامح النصية في منهج شاكر، بعدِّها آليات منهجة للتحليل والتفسير.

ولا يفوتنا التنبيه على أن البلاغة القديمة كانت «تضم الأفكار الجوهرية التي عُنيت الدراسات النصية بالتوسع فيها.

وربما كان النص الشعري عامة، والعربي خاصة، والعربي العمودي على نحو أخص – أسعد حظًّا من حيث اشتمالُه بادي النظر على علامات شكلية توفر له إطارًا محسوسًا، وتتحقق للنص بهما سمة الاستمرارية الظاهرة للعيان؛ ونعني بها قيامه على نوع من الإيقاع والتقفية بدرجات متفاوتة من الحرية، بيد أن هذه العلامات الشكلية ليست في ذاتها ضمانًا كافيًا لتحقق الاستمرارية للنص»[2].

---

(١) علم اللغة النصي المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد حسن بحيري، ص١٦٤.

(٢) في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية آفاق جديدة، د. سعد المصلوح ٢٣٠.

ونستطيع القول انطلاقًا من ذلك: بأن وجود المعايير النصية، وغيرها مما عرفته العربية، وإن بصورة غير مدونة تدوينًا علميًا جامعًا كعلم خاص – نستطيع القول إنها الأُطر الحاكمة والضامنة لتماسك النص.

وقبل محاولة الكشف عن الملامح النصية في منهج شاكر، نريد تسليط الضوء على هذه المعايير والقضايا المتعلقة بها، وظلالها في التراث العربي. ثم نتبعه بصورته الموافقة في منهج شاكر.

المبحث الأول

التمثل المعياري النصي في المنهج

فيما يتعلق بالنص ذاته

أولًا: السبك:

السبك لغة:

قال ابن منظور:«سبك: سبك الذهبَ وَالفضةَ ونحوَه مِنَ الذَّائب يسبُكه ويسبِكُه سَبْكاً وسَبَّكه: ذَوَّبه وأفرغَهُ في قالب.

والسبِيكَةُ: القطعة المُذوَّبة منهُ، وقد انسبَك،.. وفي حديث ابن عمر: لو شِئْتُ لَملأْت الرحابَ صَلائق وسبائك أَيْ ما سُبِكَ مِن الدقيق ونُخِلَ فأُخذ خالصُه يَعني الحُوَّارى، وَكَانُوا يسمون الرُّقاقَ السَّبائك»[1].

وفي المعجم الوسيط: «سبك المعدن ـ سبْكًا: أذابه وخلَّصه من الخبث ثم أفرغه في قالب،..والسبيكة من الذهب أو الفضة: كتلة من الذهب أو الفضة مصبوبة على صورة معلومة كالقضبان ونحوها»[2].

والكلمة في أصل وضعها تدل على التشكُّل واتخاذ هيئة جديدة عن طريق تلاحم أجزاء الشيء وتداخله، كما يدل على معنى المعالجة من السابك والتصنيع،و يدل أيضًا على الانتحاب والانتقاء والتخليص.

---

(١) لسان العرب، لابن منظور، ط.دار الحديث - القاهرة،١٤٢٣هـ -٢٠٠٣م.

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة ط.الرابعة ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

معناه في الاصطلاح:

عرَّف د.تمام حسان السبك بأنه،إحكام علاقات الأجزاء، ووسيلة ذلك إحسان استعمال المناسبة المعجمية من جهة، وقرينة الربط النحوي من جهة أخرى، واستصحاب الرتب النحوية إلا حين تدعو دواعي الاختيار الأسلوبي ورعاية الاختصاص والافتقار في ترتيب الجمل»[1].

«وموضوعه ما يقوم بين مكونات ظاهر النص، أو الكلمات الفعلية التي نسمعها أو نبصرها من ترابط متبادل ضمنَ تتالٍ لغوي معين، وتعتمد مكونات ظاهر النص بعضها على بعض وفقًا للأعراف والأشكال القائمة في علم القواعد»[2].

«وهو يشتمل على الإجراءات المستعملة في توفير الترابط بين عناصر ظاهر النص، كبناء العبارات والجمل، واستعمال الضمائر وغيرها من الأشكال البديلة»[3].

فهو إذن يختص «بالوسائل التي تتحقق بها خاصية الاستمرارية في ظاهر النص surface text ونعني بظاهر النص(سطح النص) الأحداثَ اللغوية التي ننطق بها أو نسمعها في تعاقبها الزمني، والتي نخطها أو نراها، بما هي كم متصل على صفحة الورق، وهذه الأحداث أو المكونات ينتظم بعضها مع بعض تبعًا للمباني النحوية، ولكنها لا تشكل نصًّا إلا إذا تحقق لها من وسائل السبك ما يجعل النص محتفظًا بكينونته

(١) موقف النقد التراثي العربي من دلالات ما وراء الصياغة، النادي الأدبي الثقافي – جدة ١٩٨٨، جـ٢، ص٧٨٩.

(٢) مدخل إلى علم لغة النص، روبرت دي بوجراند، وولفالج دريسلر، د. إلهام أبو غزالة، علي خليل حمد، ص٢٥.

(٣) المصدر نفسه، ص١١.

واستمراريته، ويجمع هذه الوسائل مصطلح عام هو الاعتماد النحوي grammatical dependency»[1].

و«التماسك يختص أصلا بحضور قوي وواضح للرابطة اللغوية في النص،وتلك الرابطة هي التي تـزود البناء الخطابي بتماسكه وذلـك باستخدام أجهزة لغوية Linguisic Devices، غالبًا ما تكون ذات طبيعة نحوية، وتخدم كلا من ترابط النص وبنيته&Connectedness structure كالإحالات»[2].

ولعل أهم دراسة دارت حول معيار السبك في التراث اللغوي العربي هي دراسة الجرجاني وكلامه عن انسباك الكلام وترابطه، فقد عرَّف الجرجاني النظم بقوله:» معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض،.. فالاسم يتعلق بالاسم بأن يكون خبرًا عنه أو حالًا منه، أو تابعًا أو تأكيدًا،..»[3].

ويتحقق السبك عبر ثلاثة مستويات:

أولًا :المستوى النحوي:

ويتحقق من خلال وسائل لغوية تربط عناصر النص بعضها ببعض، وتتمثل عناصر السبك النحوي فيما يلي:

١-الإحالة: وتتحقق عبر عناصرَ لغوية لا تملك دلالة مستقلة، لكنها تحقق وظيفتها بالعَوْدِ على عناصر مذكورة في الخطاب أو خارجه.

---

(١) في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية آفاق جديدة، د. سعد المصلوح، عالم الكتب، القاهرة ط الثانية ٢٠١٠م، ص٢٢٧.

(٢) علم اللغة النصي، رسائل الجاحظ نموذجًا، د. رانيا فوزي عيسى، ص٩٧.

(٣) دلائل الإعجاز، ص٤.

وتنقسم الإحالة إلى:

(أ) **إحالة خارجية:** وتسمى الإحالة المقامية، حيث يحيل عنصر لغوي إحالي على عنصر إشاري غير لغوي موجود في المقام الخارجي[1]، يستطيع المتلقي تفسيره من خلال السياق والخبرات السابقة.

(ب) **إحالة داخلية:** وفيها تحيل العناصر الإحالية إلى عناصر أخرى داخل النص، وينقسم هذا النوع من الإحالة إلى إحالة قبلية وإحالة بعدية، وتتمثل العناصر الإحالية في الضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة .. إلخ.

٢- الاستبدال: وينقسم إلى ثلاثة أقسام:

(أ) اسبتدال اسمي: ويكون باستبدال اسم بآخرَ.

(ب) استبدال فعلي: ويكون باستبدال فعل بفعل آخر.

(جـ) استبدال عباري: ويكون باستبدال كلمة بعبارة،

٣- الحذف: وتمثل عملية الحذف إسقاطًا لبعض عناصر الخطاب اعتمادًا على عناصرَ أخرى موجودة في النص، أو على فهم المخاطب، أو كفاءة السياق في الدلالة، وينقسم إلى ثلاثة أقسام:

(أ) الحذف الاسمي: وهو مختص بحذف الأسماء.

(ب) الحذف الفعلي: وهو مختص بحذف الأفعال.

(جـ) الحذف الجملي: ويختص بحذف عبارة أو عبارات كاملة بما تشتمل عليه من أسماء وأفعال وحروف.

---

(١) نسيج النص بحث في ما يكون به الملفوظ نصًّا، الأزهر الزنَّاد، المركز الثقافي العربي-بيروت ط.الأولى ١٩٩٣م، ص١١٩.

٤-الربط: ويكون بجمع الجمل المتجاورة، لتتماسك وتتناسق، ويكون بحروف العطف، وبعضِ الروابط الأخرى، وهو أنواع:

(أ) إضافي Additive: ويمثله في الإنجليزية الأداتان «or،and» وما يقابلهما في العربية الأداتان «الواو»، أو «والتعبيرات» بالمثل، أعني، كذلك، فضلًا عن ذلك،.. إلخ»، وهذه الروابط تضيف معني التالي إلى السابق.

(ب) العكسي Adversative: ويفيد أن الجملة التابعة مخالفة للمتقدمة، ويمثله في الإنجليزية « but,yet» وفي العربية حرف الاستدراك «لكن وأخواتها».

(جـ) السببي Causal: ويراد بها الربط المنطقي بين جملتين أو أكثر، ويمثله العناصر «لأن، لكي،..إلخ «وقد عرفه بعض المحدثين بـ«الإتباع»، وآخرون بـ«التفريع» Subordination.

(د) الزمني Temporal: ويراد به الربط بين جملتين متتابعتين زمنيًّا، ويمثلها في الإنجليزية «Then» وفي العربية الأدوات (الفاء، ثم، الواو،..إلخ)[١].

ثانيًا: المستوى المعجمي:

وفيه يتم الانسباك على مستوى الكلمات لعلاقة معجمية محضة، لا أثر فيها للعنصر النحوي، ويكون بأمرين:

(أ) **التكرار**: هو شكل من أشكال الاتساق المعجمي، يتطلب إعادة عنصر معجمي، أو ورود مرادف له، أو شبه مرادف، أو عنصرًا مطلقًا، أو اسما عامًا»[٢].

---

(١) علم لغة النص والأسلوب، د.نادية النجار، مؤسسة حورس الدولية، الطبعة الأولى ٢٠١٣م، ص٤٦-٤٧.

(٢) لسانيات النص (مدخل إلى انسجام الخطاب)، محمد خطابي، المركز الثقافي العربي – المغرب، ط. أولى ١٩٩١، ص٢٤.

(ب) **المصاحبة اللغوية**: هي علاقة أفقية تجمع بين لفظين متجاورين، أو متباعدين؛ لوجود المناسبة بينهما، هذه العلاقة يعتادها أبناء اللغة الواحدة بيحث يمكن توقع ورود كلمة محددة في النص من خلال ذكر كلمة أخرى فيه؛ (dark)، يقترن بذكر (night)،وكذلك يقال قطيع من الغنم، وسرب من الطيور، ولايقال العكس[1].

ثالثًا-المستوى الصوتي:

فقد حفلت كتب البلاغة بمباحث كثيرة تختص بالمستوى الصوتي متمثلًا في الحديث عن الجناس والسجع ومظاهر النغم المركوز في اللغة، وما يضفيه على النصوص من جمال وتماسك، كما يعدُّ علمُ العَروضِ علمُ موسيقى الشعر من أوضح الأدلة على الاهتمام بالضوابط الصوتية للنصوص الشعرية، التى تكفل انسجامًا وترابطًا بين أجزاء النص الشعري، وقد كان اهتمام القرآن بفواصل الآيات جريًا على طبيعة العربية، ودليلًا على وظيفة تلك الخصيصة اللغوية في إحداث الترابط بين أجزاء السورة الواحدة،

وتعمقت البحوث العربية في الحديث عن خصائص الأصوات و مخارجها وما يحدثه تجاورها أو تباعدها من تناسب أوتنافر، وليس عجبا أن تراهم يقررون أن «أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه قد أُفرغ إفراغًا واحدًا، وسُبك سبكًا واحدًا،..حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد»[2].

ويبقى المستوى الدلالي من مستويات اللغة، ليعرض له البحث في الكلام عن الحبك.

---

(١) علم لغة النص والأسلوب، د. نادية النجار، ص٥٦..

(٢) البيان والتبين، أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط. السابعة ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، ١، ص٦٧.

ثانيًا: الحبك:

الحبك لغة:

قال ابن منظور:«الحَبْك الشدّ واحْتَبك بإزاره احْتَبَى به وشدَّه إلى يديه... وروي عن عائشة أَنها كانت تَحْتَبِك تحت دِرعها في الصلاة،أَي تشد الإِزار وتحكمه...والتحْبِيك التوثيق، وقد حَبَّكْتُ العقدة أَي وثقتها... وروي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ [الذاريات:٧]، الخَلْق الحسن...والمَحْبُوك ما أُجيد عمله والمَحْبُوك المُحْكَمُ الخلق من حَبَكْتُ الثوب إِذا أَحكمت نسجه»[١].

فالأصل اللغوي يدور على معاني الإحكام والإتقان والشد والتوثيق والإجادة في كل ذلك، ويتلاقى الأصل اللغوي مع المعنى الاصطلاحي اللساني؛ إذ يرجع معناه إلى التماسك المعنوي والترابط الدلالي لأجزاء النص؛ بحيث تُحكم ويُشدُّ بعضها إلى بعض.

وتتلاقى أيضًا مع أصل المعنى لكلمة «نص» في اللاتينية؛ إذ معناها هو «النسيج»،وما تُوحي به من الإجادة والتماسك والترابط.

وفي الاصطلاح:

«هو ما يشتمل على الاجراءات المستعملة في إثارة عناصر المعرفة من مفاهيمَ وعلاقات، منها علاقات منطقية كالسببية، ومنها معرفة كيفية تنظيم الحوادث، ومنها أيضًا محاولة توفير الاستمرارية في الخبرة البشرية»[٢].

---

(١) لسان العرب، لابن منظور، ط.دار الحديث- القاهرة،١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م، مادة «حَبَك».

(٢) مدخل إلى علم لغة النص، روبرت دي بوجراند ، وولفالج دريسلر، د. إلهام أبو غزالة، علي خليل حمد، ١٩٩٩، ص١٢.

ويعد الحبك Coherence النظيرَ الملازم للتماسك Cohesion، وإذا كان التماسك يتصل بالبناء النحوي والمعجمي Syntactic&Lexical للنص، فإن الحبك أو التقارن يتصل بالبناء الدلالي والمنطقي للنص؛ لأنه يعمل على تدعيم عناصر النص الواحد وتلاحمه»[1].

فمن الواضح أن معيار الحبك يرتكز على وسائل يتحقق من خلالها،تتمثل في عناصرَ هي:

١- العناصر المنطقية كالسببية والعموم والخصوص.

٢- معلومات عن تنظيم الأحداث والأعمال والموضوعات والمواقف.

٣- السعي إلى التماسك فيما يتصل بالتجربة الإنسانية، ويتدعم الالتحام بتفاعل المعلومات التي يعرفها النص Text presented Knowledgeمن المعرفة السابقة من العالم Prlorknow ledge of the world[2].

إذا كان معيار السبك مختصًّا برصد الاستمرارية المتحققة في ظاهر النص فإن معيار الحبك يختص بالاستمرارية المتحققة في عالم النص(باطن النص) textual world، ونعني بها الاستمرارية الدلالية التي تتجلى في منظومة المفاهيم concepts والعلاقات relations الرابطة بين المفاهيم، وكلا هذين الأمرين هو حاصل العمليات الإدراكية المصاحبة للنص إنتاجًا وإبداعًا، أو تلقيًّا واستيعابًا، وبها يتم احتباك المفاهيم من خلال قيام العلاقات (أو إضفائها عليها إن لم تكن واضحة مستعلنة) على نحو يستدعي فيه بعضها بعضًا، ويتعلق بواسطته بعضها ببعض»[3].

(١) علم اللغة النصي،رسائل الجاحظ نموذجًا، د. رانيا فوزي عيسى، ص٢٢٧.

(٢) النص والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة،الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، ص١٠٣.

(٣) في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية آفاق جديدة ، د. سعد المصلوح، عالم الكتب، القاهرة ط الثانية ٢٠١٠م، ص ٢٢٨.

ولماكان التماسك الدلالي هدفًا يتطلبه البحث النصي، لإيجاد العلاقات بين أجزاء النص، تلك العلاقات الرابطة والضامنة للتماسك في عالم النص.

فقد لاقت الروابط اهتمامًا وشغلت مساحة من البحث النصي، و هي تنقسم باعتبار وسائلها إلى:

١-الرابط الواضح: ويكون عبرَ وسائل لغوية ظاهرة، يتحقق من خلالها الترابط بين أجزاء النص كلماتٍ وجملًا، مكونة في النهاية البنية الدلالية الكبرى للنص.

٢-الرابط الضمني أو الدلالي: وفيها تُنحَّى أدواتُ الربط المعهودة لتحل محلها روابط معنوية ناتجة من علاقات التجاور[١]، أو بإفراز السياق أو الدلالة العامة.[٢] أهـ. بتصرف.

---

(١) وإلى اكتساب المعاني بالتجاور،أو السياق نبه ابنُ هشام في ردِّه على من ألبس الحرف «أو» معانَي ينبو عنها، فيقول:«التحقيق أن»أو«موضوعة لأحد الشيئين أو الأشياء، وهو الذي يقوله المتقدمون، وقد تخرج إلى معنى بلْ وإلى معنى الواو، وأما بقية المعاني فمستفادة من غيرها، ومن العجب أنهم ذكروا أن من معاني صيغة «افْعَلْ» التخيير والإباحة، ومثَّلوه بنحو، «خذ من مالي درهمًا أو دينارًا»أو «جالس الحسن أو ابن سيرين» ثم ذكروا أن«أو» تفيدهما، ومثلوا بالمثالين المذكورين لذلك، ومن البين الفساد، هذا المعنى العاشر-يقصد معنى التقريب المُستَشهد عليه بـ«لا أدري أسلَّمَ أو ودَّعَ»- و«أو» فيه إنما هي للشك على زعمهم، وإنما استفيد معنى التقريب من إثبات اشتباه السلام بالتوديع، إذ حصول ذلك – مع تباعد الوقتين – ممتنع أو مستبعد، وينبغي لمن قال إنها تأتي للشرطية أن يقول وللعطف؛ لأنه قدَّر مكانها وإنْ، والحق أن الفعل الذي قبلها دالٌّ على معنى حرف الشرط كما قدَّره هذا القائل، وأنَّ «أو» على بابها، ولكنها لما عُطفت على ما فيه معنى الشرط دخل المعطوف في معنى الشرط (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ص٨٩).

(٢) انظر بناء لغة الشعر، جون كوين، ترجمة وتعليق د. أحمد درويش، دار المعارف، القاهرة، ط. الثالثة، ص١٨٩-١٩٠.

وهذا النوع من الربط هو أعلى أنواع الربط لما يحققه من غاية بالإضافة إلى تخفيفه من ثقِل وتكاثر الحروف والأدوات العاطفة، ولأن وجودها-الوسائل اللغوية العاطفة- في نصٍّ ما لا يعني وجود الترابط بصفة مستمرة.

يقول د. أحمد عفيفي: «وينبغي أن نشير هنا إلى إمكانية وجود أداة رابطة بين أجزاء النص، مع الإحساس بالتفكك الدلالي لعدم وجود الربط المعنوي، ولو تأملنا المثال التالي لأحسسنا بعدم الترابط مع وجود الأداة: (شبَّ في المبنى التجاري بالأمس، وانتصر المصريون في السادس من أكتوبر في عام ١٩٧٣م)، فمع وجود الواو الرابطة بين الجملتين، فإنهما منفصلتان دلاليًّا؛ لأن الانتقال من فكرة إلى فكرة لا يوجد بينهما علاقة منطقية واضحة تجمع بينهما، كذلك لو تم الربط بين كلمتين في الجملة الواحدة بالأداة، مثل(الفتاة جميلة وماشية)، فمع وجود الواو بين الكلمتين – نشعر بالتفكك والتنافر، فما هي العلاقة بين الجمال والمشي في المثال؟ إن إحداهما معنوية، والأخرى حسية، ولا يجمع بينهما حقل دلالي واحد، حيث يحتاج الأمر إلى الجمع الدلالي»[1].

فالوحدة الدلالية بمثابة الخيط الناظم لحبيبات الخرز، فتجمع جزيئات النص وشتاته للوحدة المعنوية المتداخلة والسارية في جسد النص، وبدونها يكون النص كمًّا مفككا لا علاقة لأجزائه إلا مجرد التجاور الميت.

(١) نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، د.أحمد عفيفي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط.الأولى، ٢٠٠١م، ص١٠١- ١٠٢.

الرؤية السبكية والحبكية في المنهج من خلال العمل المعجمي:

هذا الجزء من البحث،ألا وهو التماسك المعجمي ومظاهره في منهج شاكر، يتلاقى فيه معيارا السبك والحبك، ويختلطان ويتمازجان تمازجا شديدًا، حتى لا يكادان ينفصلان.

وقد أكَّد شاكر على هذين المعيارين، فهو لا يذكر الاتساق اللفظي حتى يذكر أثره ومنتوجه من الاتساق والتماسك المعنوي، فمن البداية يحدد شاكر منهجه في التناول المعجمي، لألفاظ القصيدة،وغايته من ذلك،يقول الأستاذ شاكر: «إلا أنيي تخيَّرتُ في رواية أبياتها أكثرَ الألفاظ مطابقةً لما ظننتُه ألصقَ بمعانيها، معتمدًا على روايات العلماء المفرقة في الكتب الأخرى»[1].

فالألفاظ الأقوى دلالة، المحمَّلة بالمعاني الملائمة، أكثرُ تحقيقًا للاتساق والانسجام، أو السبك و الحبك، ومن ثَمَّ تماسك نص، وهكذا جرى الأستاذ شاكر في تحليله مراعيًا الدقة المعجمية، وأثر اللفظة وتوافقها قصديا وإعلاميا وموقفيا، وأثرها في السبك والحبك والترابط، وماشئتَ من عوامل ومعايير التماسك، وما يكتنفه من أغراض وخصائصَ.

ويقول: «وتمثُّل القصيدة أمرٌ شاقٌّ، في حديث الشعر وقديمه سواء؛ لأن الشعر كله يعتمد على الألفاظ، وعلى تركيب الألفاظ وتصريفها، وعلى بناء الجمل ومنازلها من السياق، وعلى الأواصر الخفية بين الظاهر والباطن »[2].

---

(١) نمط صعب ونمط مخيف، محمود محمد شاكر، ص ٦.

(٢) المصدر نفسه، ص١٣٣.

فهذه جملة من النظر النصي، يسوقها في هذه العبارات، نستطيع أن نلمح من خلالها، أثرَ السبك المعجمي بمعناه العام، والبناء الجملي وما يقتضيه من تماسك وتضام، وما بين أجزائه من روابط في ظاهر النص، وعالِمِه، مع حضور النظر السياقي في كل ذلك.

كما أكّد أيضًا على ضرورة الألفاظ المتسقة،مع حاقِّ المعنى، في ترابط النص،فـ«الناظر في الشعر الجاهلي،..مفتقرٌ، بعد مراجعة اللغة والتدقيق في فهم أصول الألفاظ، إلى شيء زائد على-نص كتب اللغة، وإذا وقف المرء عند منطوق النص وحده، بقي الشعر الذي يُنظر فيه مطموسًا في موضعٍ، مفككًا في موضعٍ آخرَ، مبتورًا في موضع ثالث»[1].

فتأمل وصفه للنص الشعري بأنه يكون مفككًا مبتورًا، وهي أوصاف تناقض التماسك والانسجام؛ وهذا ما جعل الأستاذ لا يقف عند الحد اللغوي الظاهر،(المنطوق)، احترازًا وتفاديًا للتمزق والتفكك والانحلال الذي يصيب النص، من جرَّإ ألفاظ تقصُر عن أداء المعنى الذي يتطلبه تماسك النص بمعنييه، وما يترتب على ذلك من خلل في عملية التواصل، وإهدارٍ لغاية علم اللغة النصي بمصطلحنا المعاصر.

وما من شكٍّ أيضًا في أن ذلك التفكك والبتر ينقاض علم اللغة النصي معيارًا ووظيفةً وخصائصَ.

تنبه شاكر إلى أن الخلل في فهم الألفاظ، أو تفسيرها، أو قلة التحري عن معاني الكلمات، يؤدي إلى تمزق القصائد وعدم اتساقها وتماسكها، وقد أبان عن رؤيته تلك بقوله: «وقد كشفتُ بتطبيق المنهج الذي استخلصته من دراستي، عن أن دعوى اختلال ترتيب بعض القصائد، دعوى لا تقوم أحيانًا كثيرة على أساس صحيح، بل مردُّها إلى سوء الفهم، وإلى قلة التحري عن معاني الكلمات في موقعها من الشعر، وإلى الجهل بأساليب

(١) نمط صغير ونمط مخيف، محمود محمد شاكر، ص١٣٥.

الشعراء في بيانهم عن ضمير أنفسهم بهذه الألفاظ والتراكيب، وإلى الإبهام الذي ينشأ من التهاون في تمييز الفروق بين المعاني المشتركة في الألفاظ والتراكيب،..»[1].

وفي هذا دلالة على أن الانسباك المعجمي اللفظي،ورصانة بنائه، أساس في قيام النص، وتماسكه في الظاهر والباطن، وهو ما جعل الأستاذ يعالج أمورًا معجمية أخرى في التحليل يسعى من خلالها إلى إثبات اتساق القصيدة، وتماسكها، ويدفع عنها من خلالها تهمة التمزق وعدم الوحدة،منها:

أولًا: -الانتخاب المعجمي:

ويُقصد به انتقاء الألفاظ، الأقوى دلالة، والأكثر تعبيرًا عن مقصدية الشاعر، وموافقةً لموقفية القصيدة، والبيئة العربية، وطبيعة اللغة –مما وردت به الروايات.

وهو في ذلك يستهدي بمقاصد الشعراء للوقوف على فرقِ ما بين الروايات، فيقول:«لابد من التحري والتثبت في سبيل تعليل هذه الفروق تعليلًا يعتمد على المراجعة الطويلة لمعاني الشعر، ولمقاصد الشعراء»[2].

وكان مما يعتمد عليه في عملية الانتخاب المعجمي: «استقصاء كل اختلاف يقع في بعض ألفاظ الأبيات، في هذه المصادر، ثم في سائر مصادر اللغة والنحو والأدب والتاريخ وغيرها،..وإغفال ذلك قادحٌ في صدق التحري، ومضيع لفوائدَ ربما أعانت على تصحيح خطإٍ مضرٍّ بالقصيدة وببنائها وبترتيبها»[3].

---

(١) نمط صعب ونمط مخيف، محمود محمد شاكر، ص٢٩٨.

(٢) المصدر نفسه، ص٤٥.

(٣) المصدر نفسه، ص١٢٢.

ومعالجة ألفاظ الشعر، وكشف مقصديتها، وما تحمله من دلالة، ليس بالأمر الهين، فالشعراء يتصرفون في الألفاظ تصرفًا يجعلهم: «يُلبسونها بالإشباع، ويخلعون عنها بالتعرية، ما يكاد ينقل اللفظ من مستقره في اللغة وفي كتبها»[1].

ما من شك في أن: «المعجم يقوم بدور مهم في تركيب الجمل وفي معناه، ولكن الشعر قد يخرق بعض القواعد،.. وبتعبير شامل، فإن الشعر يخرق القوانين العادية، التركيبية، والتداولية والمرجعية، ولكنه في نفس الوقت يخلق قوانينه الخاصة به، فالشعر يستند إلى قوانين اللغة العامة لكنه يثور عليها أيضًا، ولذلك فإنه يجب مراعاة هذه الثورة عند استنكاه النص الشعري، بتجاوز ما يوحي به ظاهره إلى خبيئه»[2].

ولا تنفي المعجمية الشعرية هذه الاكتراثَ بكتب اللغة في فهم الشعر، بل معناه أن الناظر في الشعر،«مفتقرٌ بعد مراجعة اللغة والتدقيق في فهم أصول الألفاظ إلى شيء زائد على نص كتب اللغة، وإذا وقف المرء عند منطوق النص وحده، بقي الشعر الذي ينظر فيه مطموسًا في موضع، مفكَّكًا في موضع آخر، مبتورًا في موضع ثالث فعندئذ يتمرد الشعر، ثم يذهب عنه جامحًا، ولا ينقاد»[3].

ومن أمثلة الانتخاب المعجمي الذي جرى عليه في تحليله، ما يلي:

١- قوله: و«سباع الطير» هي رواية كتاب (التيجان) وحده، أما سائر الكتب فتروي:«وعتاق الطير»، وقد آثرتُ الرواية الأولى، على ما في كتاب (التيجان) من الآفات، لأسباب. فإن «عتاق الطير» (جمع: «عتيق»، وهو الكريم الشريف من كل شيء،

(١) نمط صعب ونمط مخيف، محمود محمد شاكر، ص١٣٣.

(٢) تحليل الخطاب الشعري – استراتيجية التناص، د. محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، ط الثالثة ١٩٩٢، ص٦٨.

(٣) نمط صعب ونمط مخيف، محمود محمد شاكر، ص١٣٥.

ومن كل حيوان وطائر)، فهي كرام الطير، التي تصيد، وهي ذوات المخالب المعقَّفة، والمناسر المحدبة (جمع مِنْسَر، وهي لسباع الطير، كالمنقار لغيرها مما يأكل الحبَّ)، ويقال لها:«أحرار الطير»، و«الجوارح»، و«الكواسب»، و«المضرحيات»، و«الروازِق»، فمنها العُقاب، والبازي، والصقر، والشاهين، و«عتاق الطير» ترهبها الوحش جميعا، وسباع الطير كلها،..و«سباع الطير» هي أكَّالة اللحوم، وكل ما أكل اللحم خالصًا فهو«سبع»، طيرًا أو حيوانًا، والعِقبان والصقور والبُزاة، ثم النسور والغِربان وأشباهها كلها من «سِباع الطير» لأنها كلها آكلة لحم. ولكن إذا قيل«سباع الطير» في مثل هذا الموضع الذي تجتمع فيه وتؤاكل الذئاب والضباع، انصرف معنى «سباع الطير» إلى النسور والرخم وأشباهها مما لا يصيد، وهي لئام الطير وخساسها، لأنها تأكل الجِيَفَ والميتة وتريكة السبع»[1] [2].

٢- ومنه قوله: «وأما البيت الرابع والعشرون، فأكثر الرواية فيه:«فاسقينها»، بالفاء، وقد كرهتها، وآثرتُ ما أثبتُّ عن ابن دريد في الجمهرة،وعن إحدى نسخ الحيوان للجاحظ، «سقِّينها» بتشديد القاف...لأني وجدتُ هذه الفاءَ مفسدةً؛ لأنها تنقل «حديث النفس» هذا، فتجعله سردًا واحدًا، كأنه قال:» حلَّت الخمرُ، فمن أجل ذلك اسقِينها» وهذا ليس بشعر صالحٍ هنا، ثم لأن «سقِّينها» بلا فاء، فيها من تصوير حركة العجَلة

---

(١) نمط صعب ونمط مخيف، ص٢٧١.

(٢) مما استشهد به شاكر، قول الراعي في اجتماع النسر والذئب:

بملحمة لا يستقلُّ غُرابُها دَفِيفًا، ويُمسي الذِّئبُ فيها مع النسر،

وهذا ومثله جعل شاكرًا يتعجب متسائلًا:«فكيف يصحُّ اجتماع العِقبان والذئاب والضباع على طعام واحدٍ»؟!

والشوق، حتى كأنك تراه وهو يمدُّ إليه يد المتناول من خلال النغم، وحتى كأنك تراه يتناول بيده قدحًا بعد قدح، قد تلألأ وجهه، وضحكت عيناه بريقًا»[1].

٣-وفي قول الشاعر:

تَضْحَكُ الضَّبْعُ لِقَتْلَى هُذَيْلٍ وَتَرَى الذِّئْبَ لَهَا يَسْتَهِلُّ

يقول: «وفُسِّر «استهلال الذئب» في غير مادته في كتب اللغة، (مادة:هلل).

فقيل: «يستهلُّ:يصيح ويستعوي الذئاب». و«استعواؤها»، أن يعوي الذئب، فتستدل الذئاب بعوائه، فتأتيه وهي تعوي كالمجيبة له، و«يستهلُّ» من قولهم:«استهلَّ الرجل»، إذا فرح فصاح، ولم أجدهم ذكروا «الاستهلال» في أصوات الذئاب ولا وصفوه، وإنما اقتصروا على «عوى الذئب وضَغَا، ووعْوَعَ»، فينبغي أن يُزاد في أصوات الذئاب «الاستهلال»، وتفسيره: أن يعوي عواءً يشبه أن تكون فيه رنَّةُ فرح واستبشار، إذا هو رأى جيفة، فتسمعه الذئاب فتجتمع إليه مستجيبة لعوائه»[2][3].

وبمثل هذه الدقة وسعة الثقافة، والإلمام بما بين الألفاظ من الفروق الكاشفة للمعاني المختلفة – يمضي شاكر فيما يرجحه وينتخبه من روايات الرواة، فيستقيم بناء القصيدة في سطحها وعمقها.

وفي الأخير نرى أن الجهد المعجمي الذي قام به شاكر، بالإضافة إلى ماسبق، يزيد من تماسك القصيد على المستويين الظاهر والباطن (السبك والحبك) كما يرفع من درجة إعلامية القصيدة، ودرجة مقبوليتها، ويَبينُ عن موقفيتها؛ بإزالة ما قد يكون عائقًا دون

---

(١) انظر: نمط صعب ونمط مخيف، محمود محمد شاكر، ص ٢٦١، ٢٦٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٦٨.

(٣) ومما استشهد به على ذلك، قولُ النجاشي الشاعر في ذئب:

فطَرَّبَ يستعوي ذئابًا كثيرةً وعدَّيْتُ، كلٌّ مِن هواه على شُغْلِ.

ذلك، وقد أشار إلى مقصديته في ذلك بقوله:«وقد خلَّصتُ ألفاظَ هذا الغناء مما يمكن أن يعوق عن تصور المعاني تصورًا صحيحًا لا إبهام فيه ولا لَبْس»[1].

ولابد من الإشارة إلى أن ما فعله شاكر في قضايا ألفاظ القصيدة، يتوافق مع ناقد النص ومحلله، بعكس المتلقي المباشر لحدث تواصلي مباشر، فقد لا يُتاح له أن يتعامل بمثل هذا.

ثانيًا- التصويب اللغوي:

ويقصد به ما قام به من معالجة معجمية لأخطاءٍ وقع فيها بعض الشراح للقصيدة، وقد يسبق إليها ذهنُ المتلقي نتيجة للإلف، فيؤدي إلى ظنِّها مختلةً مفككةً، مفتقرة إلى وحدتها.

كان محمود شاكر في هذا المنحى سائرًا على درب سابقيه من علماء الأمة، وقد كان هذا العمل منه ركيزة من ركائز منهجه في التحليل والتحقيق، يقول تلميذه وصديقه «د.محمود محمد الطناحي» وتصحيح اللغة، وتصحيح رواية الشعر، مما يفيض ويتسع في كتابات وتحقيقات أبي فهر كلها، وهو موصول بما كتبه الأوائل في ذلك، مثل التنبيهات على أغاليط الرواة، لعلي بن حمزة البصري (٣٧٥هـ)، والتنبيه على حدوث التصحيف لحمزة بن الحسن الأصفهاني (٣٦٠هـ)، وشرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف لأبي أحمد العسكري (٣٨٢هـ)، وتصحيح التصحيف وتحرير التحريف لصلاح الدين الصفدي (٧٦٤هـ)، ألم أقل لك: إن الرجل ماضٍ في طريق الأوائل»[2].

(١) نمط صعب ونمط مخيف، محمود محمد شاكر، ص ٢٧٣.

(٢) مقالات: «د. محمود محمد الطناحي، صفحات في الراث والتراجم واللغة والأدب»، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط. أولى ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م، ص٤٨٩، «محمود محمد شاكر ...ومنهجه في تحقيق التراث»، مجلة الهلال، فبراير ١٩٩٧م

ونستطيع أن نلمح هذا الأثر، في هدم المبنى والمعنى للنص، إذا لم يُولِيه المتلقي -قارئًا أو سامعًا – اهتمامًا في قوله: «لأن قارئ النص أو سامعه معرَّضٌ لمثل ما تورط فيه النقاد والشراح، إذا أغفل وسها،..فيسقطُ به اطِّراح التمحيص على مثل ما بينتُ آنفًا من اللغو الذي يُفسد الشعر فيهدم مبناه، ويهلك معناه، ويدعه كالذي وصف ذو الرمة من أمر الجهيض الذي وُلِد لغير تمام، فهو مطروح على الثرى:

حيِّ الشهيق، ميَّتِ الأوصال»[1].

١- ومن أمثلة تصويباته اللغوية، عيبُه على من اكتفى من الكلمة بأحد المعاني، فانتقص بذلك من دلالة الكلام، وأدى إلى فساد في المعنى والفهم،ومن ذلك قوله: وأما قوله: «وإذا يسطو فليْثٌ أبلّ» فالسطو هو إتيان الشيء من عِلٍّ،ثم الإطباق عليه، ثم أخذه بالبطش والغلبة والقهر أخذة رابية، وأمّا «والأبلُّ»، فأهل اللغة يقولون: «الأبلُّ»، وهو الشديد الخصومة، وهو الجَدِلُ الألدُّ، وهو الذي لايستحيى، وهو الفاجر، وهو الخبيث المفسد في الأرض، وهو الشديد اللؤم الذي لا يدرك ما عنده، وهو الحلَّاف الظَّلوم المَطُول الذي يمنع ما عنده من حقوق الناس باليمين الفاجرة.. وبأي هذه المعاني أخذت في تفسير البيت، لم تَحْلَ من بطائل، بل يردُّك من فساد إلى فساد، وقد حاول المرزوقي أن يخْلُصَ من التورط في فساد المعنى، فأخذ تفسيره بالفاجر، ثم أضاف إليه ما يحسُّه، فلم يأت بشيء فقال:«هو الفاجر المصمِّم الماضي على وجهه، لا يبالي ما لقي»، وهو انتزاع خفي، لأنه إنما انتزعه من شعرٍ للمسيَّب بن علس، خال الأعشى الكبير، إذ يقول:

ألا تتقون الله يا آلَ عامر ٍوهل يتقي اللهَ الأبلُّ المصَمِّمُ

(١) نمط صعب ونمط مخيف، محمود محمد شاكر، ص٢٠٤.

وبالمكر الخفي أحذ «المصمم» من هذا البيت، ثم فسره بأحد معانيه في اللغة، وسأبين صوابه فيما بعد، و«الأبلُّ» هنا، وفي بيت ابن أخت تأبطَّ شرًّا، كما استظهرته في نص اللغة واشتقاقها، إنما هو قولهم:«بَلِلتُ بالشيء» بكسر اللام، إذا استمسكت به ولزِمتَه بقبضتك فلم تفلته، ومن ذلك قول ثعلبة بن عمرو العبديِّ، يذكر فرسَه وقد لزم عنانها وعلق به في يوم إغاثة مكروبٍ فزِع إلى نصرته:

بلِلتُ بها يوم الصُّراخ، وبعضهم يَخُبُّ به في الحيِّ أوْرَقُ شارفُ

...فمعنى هذا الشعر: الباطش الذي إذا علِقت مخالبُه بشيء لم تفلته لشراسته وقوته،..فهذا المعنى هو الذي ينبغي أن يُفسَّر به وصفُ الليث بأنه «أبلُّ» فأما تفسيره بأنه الفاجر، فهذا من أقبح القول وأخبثه، فالأسد، وهو ملك السباع وسيدها، وأكرمها خلقًا، لا يعيث في الأرض، ولا يثب على حيوان ولا إنسان إلا للمطعم، ثم يكفُّ لعفته ونبله»[1].

ثم هو يؤكد على دور التفسير الصحيح لمعاني الألفاظ الواردة في النص في تحقيق تماسكه وفهمه، يقول:«فبان بذلك أن البيت لم يفارق ما قبله في خصائصه، وفي اشتماله على الحركة،..وبان أيضًا أن تفسير«ا لمسبل»و «الأحوى» بما فسره به أبو العلاء والمرزوقي، بما هو حلية في البدن كوفرة اللِّمةِ وسواد الشعر أو سواد الشفتين، أو هو حلية في اللباس كسبوغ ذيل الإزار وإرخائه وجرِّه، إنما هو لغوٌ يذهب فيه الشعر باطلًا، ويختل سياقه»[2].

(١) نمط صعب ونمط مخيف، محمود محمد شاكر، ص١٩٣-١٩٥.
(٢) المصدر نفسه، ص١٩٦.

٢- وفي قول الشاعر:

وِفُـتُـوٍّ هَـجّـرُوا، ثُـمّ أَسْـرَوْا لَـيْـلَـهُـمْ،حَـتَّـى إِذَا انْجَـابَ، حَلُّوا

يقول:و«انجاب» و«حلَّ» لفظان من الألفاظ الدائرة الشائعة، وقلَّ من يحتفل بالنظر في دلالتهما،وبالتفتيش عن حق موقعهما من الكلام، فإذا أراد أن البيان عن معناهما التقط لهما ما دنا تناوله من الألفاظ، كقول المرزوقي مثلًا في شرح هذا البيت:«فلمَّا انكشف الظلامُ نزلوا»، وهذا فساد كبير في تناول معني الشعر، ولا يعدُّ بيانًا عنه، بل هو طرْحُ غشاوةٍ صفيقةٍ من «الإبهام» ينبغي أن تزال، وإلا فقد الشعر بهاءه بانتقاص دلالات ألفاظه وإهمالها...فهذا اللفظ «انجاب» مشتق من «الجَوْبة»، وهي كل فرجة مستديرة، يحيط به شجر أو بناء أو جبال أو صخور، فإذا قيل: «انجاب السحاب» فليس معناه أن تنكشف السماء ويذهب السحاب حتى لا يُرى منه شيء، بل معناه أن يتصدع السحابُ عن جزء من سماء صافية ملساء، والسحاب محيط بها من آفاقها ونواحيها،..فإذا علمت هذا، كان معنى «انجاب الظلام»، هو ظهور صدع مفتوق في ركام الظلام قبل المشرق، وهو الضوء الخابي المكفوف من وراء الليل، والظلام محيط به من نواحيه، وذلك عند أول مطلع الفجر، حيث لا تستبين شيئًا ولا تراه إلا تلمُّسًا،.. فشاعرنا هذا حين قال: «انجاب» لم يقلها عبثًا، للدلالة على مجرد انقشاع الظلام وانكشافه، بل أراد هذا الوقت، حيث ينفتق ظلامُ الأفق عن ضوء مكفوف وراء الدُّجى»[1].

ثم بيَّن موافقة هذا المعنى الذي أراد تبيينه لمقصد الشاعر، وحقيقة الحادثة التي أراد تصويرها، فيقول: و«البيات» هو أن يقصدوا عدوهم ليلًا، وهم غارُّون نائمون لم يستفيقوا على الصبح، فيكبسوهم ويأخذوهم بغتةً، فيكون ذلك أنكى فيهم وأوقع،

(١) نمط صعب ونمط مخيف، ص٢١٣-٢١٥.

والبيات هو أحكم خطة، فهم فتية قليل عددهم، يباغتون حيًّا من أحياء هذيل أكثر منهم عددًا، فإذا بيَّتُوهم شدهوهم نيامًا، يذهلهم الرُّقادُ عن أن يتمكنوا من أسلحتهم، فيضعون السيف في طوائفهم حيث شاؤا،وبهذا صار بيِّنًا أن الشاعر لم يقل «انجاب» إلا للدلالة على هذا الذي وصفت من وقت غارتهم على هذيل، وهم نيامٌ غارُّون»[1].

٣- وأما قوله:حلوا «فمن الألفاظ القريبة المتداولة، وإلفُها يسرع بنا إلى أظهر معانيها وأقربها، كالذي فعل المرزوقي فيما نقلتُ من شرحه قبل، إذ قال: «فلمَّا انكشف الظلام نزلوا».

والاطمئنان إلى هذا المعنى القريب هو الذي صرف الأبيات الأربعة عن معناها، وأوقعَ في الخطإ وقاد إلى العبث بها وبترتيبها،.. وصار استعمال «الحلول» و«النزول» مقرونًا بإنزال العذاب والعقاب والنكال في العدو، وهو من مشهور الكلام،..ومثله قول النابغة في عمرو بن الحارث الأصغر الغساني:

تَحِينُ بكفيِّه المنايا، وتارة ... تَسُحَّانِ سحًّا من عطاءٍ ونائلِ

إذا حلَّ بالأرض البرية أصبحت ... كئيبةَ وجهٍ، غِبُّها غيْرُ طائلِ

أي إذا قصد أرضًا آمنةً بريئة من القتل والدماء يريد عقاب أهلها، حلَّ بها فإذا هي كئيبة مما ينزل بها من الخوف والقتل والدماء، فأنت ترى أن «الحلول»، مقرونٌ بإنزال المكروه والأذى والبلاء،..فإذا كان السياق يقتضي هذه المعاني، لحق بلفظ«حلَّ» من الإسباغ ما يجعل معناه شبيهًا بمعنى الانقضاض على العدو والنكاية فيه،..لأن المقام مقامُ طلب ثأر من قوم يكبسهم بياتًا، حتى يدرك منهم ثأره، فمعنى:«حتى إذا انجاب

(١) نمط صعب ونمط مخيف، ص٢١٥.

حلُّوا» حتى إذا انجاب الليلُ حلُّوا بهذيل فأطبقوا عليهم، فأثخنوا فيهم. فاختصر القول اختصارًا لدلالة قوله فيما بعد»: فادَّركنا الثأرَ منهم، على هذا المحذوف»[1].

٤-ويتتبع الأخطاء المعجمية، الواقعة في شروح القصيدة، والتي بعثرت دلالتها وأوهمت اختلال ترتيبها، وافتقارها إلى الوحدة - فيقول:«وثمة وهمٌ آخرُ في معنى «إلا الأقلُّ» فمن تعرَّض لهذاالبيت ظن أنه مراد به: إما النفي المطلق، أي «لم ينجُ منهم أحد» وهو خطأ فاحشٌ جدًّا، وإمَّا أنه مراد به: «إلا القليل»، وهو فاسد أيضًا،والصواب أن الألف واللام في «الأقلُّ»، نائبة عن الإضافة إلى «الحيين»، وأصله:«إلا أقلُّ الحيين عددًا»، وهم الشرذمة القليلة من أصحاب الشاعر، وبهذا المعنى فسَّرتُه فيما مضى، وهو الذي يستقيم معه الشعر»[2].

ومثل هذا كثير، يتعرض له شاكر بالتصويب والتصحيح، مبيِّنًا وجه صحته وخطئه،واقفًا على حاقِّ معانيه التي يقتضيها السياق والأحداث وعادات العرب اللغوية، وموقفية النص، مفرِّقًا بين ألفاظ اللغة، وألفاظ الشعر، وما يصيبها على أيدي الشعراء من الإسباغ والتجريد.

ثالثًا-التوضيح اللغوي:

ويراد به، إزالة موانع تحقق الفهم النابعة من غموض الكلمة كوحدة بنائية في النص. لأن وجود كلمات مبهمة، وغير واضحة، هو بمثابة فجوات دلالية، تنعكس على النص في تماسكه الظاهر والباطن، فيستشعر المتلقي فراغًا بين أجزاء النص، فتضعف بذلك سائر المعايير المحققة لاتساقه وترابطه.

---

(١) انظر: نمط صعب ونمط مخيف، محمود محمد شاكر، ص٢١٥-٢١٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٢٤.

ومن هذا المنطلق – إبهام الألفاظ المؤدي إلى تمزق الوحدات الدلالية، تعرض شاكر لألفاظ القصيدة كاشفًا عن معانيها، ومناسبتها لمقصدية الشاعر، والأجواء التي قيلت فيها، ومن ذلك قوله:

«وأما «إطراق الأفعى»، فكمونه بين الأحجار وسكونُه لا يتحرك، «والصِلُّ» الحية القديمة التي صغُرت من القِدم، تكمُن بين الحجارة والصَّفا، وهي أخبث الحيَّات، تقتل إذا نهشت من ساعتها»[1].

«والسِمْعُ» فيما يزعمون، من الخلق المركَّب، وأنه ولد الذئب من الضبع»[2].

«والأزلُّ»: الأرسح الخفيف الوَرِكيْن الذي لا عجيزة له، وهي صفة لازمة للذئب أبيه، فلزمته أيضًا»[3].

«و يعدو» هنا ليست من «العدْو» وهو «الجري»، كما يسرع إلى أوهامنا، بل هي من قولهم «عدا على الشيء، اختلسه واختطفه فسادًا في الأرض وظلمًا»[4].

وهذا التوضيح يرسم صورة الترقب، والغيظ المحتبس في الصدر، يبحث عن مخرج لبَثِّهِ.

و«الظعْن»، هو الارتحال من مكان إقامة، والسير في البادية للنُّجعة والماء، أو قصدًا للغزو والحرب، أو أخذًا للحذر عند المخافة والروْع – وأما «الحزم» فهو ضبطُ المرء

(١) النمط، ص١٥٠.
(٢) المصدر نفسه، ص١٦٢.
(٣) المصدر نفسه، ص١٦٢.
(٤) المصدر نفسه، ص١٦٣.

أموره، والأخذ بالثقة، وبالاستظهار لوجوه الضَّرر والمنفعة فيها، والاحتراز حذرًا من فوات خيرها أو إطباق شرها[1].

وجعْجع، غليظ خشِن، لحجارته حدٌّ يجرح، لا يطاق السير فيه، ولا الجثوم، وسمي بذلك لأن الإبل إذا بركت فيه «جعجعتْ» و «جعجعةُ الإبل» رُغاؤها وصوتها عند الإناخة والبروك، فإذا كان المكان غليظًا وعْرًا، فذلك أشدُّ لجعجعتها لتأذِّيها بوعورة الأرض، ولما يصيبها من الأذى والوجع،

«ينقَبُ فيه الأظلُّ»، «الأظلُّ» من الإنسان باطن أصابع قدميه،وهو في خُفِّ البعير «لحمٌ» رقيقٌ لازقٌ بباطن المنسم، إذا أصابته الحجارة أدْمَتْه فتأذَّى به تأذِّيًا شديدًا، و«نقب البعير»إذا رقَّ خُفُّه وتخرَّقَ ودميَ أظلُّه، فيألم إذا مشي فهو يَظْلَعُ.

يصف إذلال خاله هذيلًا واضطراره إياها إلى أسوإ المنازل وأخشنها، كما يطيع البعير فينيخ حيث يستناخ، رضي الأرضَ أو كرهها فجعجع ما جعجع»[2].

وفي كل هذا دليل على أن غموض المعاني وإبهامَها، يمنع من تتابعها معنويًّا في ذهن المتلقي، ويؤدي إلى وجود فجوات دلالية وإعلامية في النص تمنع تماسكه.

وأيضًا فإن مطابقةَ معاني الألفاظ لمقصد المتكلم وكشفَها عنها، داعم لنجاح عملية التواصل، ويؤدي إلى إفراز نصٍّ متماسكٍ أو أشدِّ تماسكًا.

---

(١) النمط، ص١٨٥.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٣٥-٢٣٦.

رؤية سبكية حبكية مقاربة لعلم اللغة النصي:

ومع ذلك فلا نعدم كلامًا تفصيليًّا، موافقًا لمعطيات علم النص الحديث، وهي وإن قليلةً، وليست مطابقةً كلَّ التطابق لإجراءته، إلا إنها ضوء كاشف عن الملمح النصي في المنهج، والتلاقي بينه وبين علم النص بصورته المعاصرة، ومن ذلك ما يلي:

١- التضاد اللغوي وأثره في الربط:

كان للحديث عن التضاد اللغوي حضور في التحليل، ليكشف من خلاله عن اتساق القصيدة وانسباكها، ونستطيع نقف من ذلك على عدة مواضع، منها:

(١) شَامِسٌ فِي القُرِّ، حَتَّى إِذَا مَا ذَكَتِ الشِّعْرَى، فَبَرْدٌ وَظِلُّ

يقول محمود شاكر: «ثم قابل هذا الفصل من السنة بفصل آخرَ، وهو زمان القيظ، وهو أشد الحرِّ، يُصوِّحُ النبات من شد الحر، ويقلُّ الماء، ويعزُّ الظلُّ، ويطلب الكنَّ كلُّ حي، وقد ذاب لعاب الشمس فوق الجماجم»[١].

وفي قول الشاعر:«شامس في القُرِّ»و «فبرد وظِلٌّ» يقول الأستاذ محمود شاكر:

جمع بين هذين المتناقضين (علاقة معجمية نصية) في جملة واحدة، أسبغ من معانيهما حتى صار يدلانِ على كلِّ الخلائق المحمودة التي يلقى بها الكريمُ من النَّاس، من أصابتْه اللَّاواءُ واشتد عليه البلاء»[٢].

(٢) تَضْحَكُ الضَّبْعُ لِقَتْلَى هُذَيْلٍ، وَتَرَى الذِّئْبَ لَهَا يَسْتَهِلُّ

(١) النمط، ص١٧٤.

(٢) نفسه، ص١٧٤.

يقول محمود شاكر: «فأتى بفعل «الرؤية» أشرك العين والسمع جميعا في الشهود، فلم يقتصر الأمر على سماع الضحك من الضبع، بل أسبغ عليه سماع الضحك ورؤية الضاحك، هو يبدي نواجذه، ترى البشر والإقبال والرضى في وجهه»[1].

«وتمام المقابلة بين«يَابِسُ الجَنْبَيْنِ» و«وَنَدِيْ الكَفَيْنِ»، زاد حركة التنُّغُّشِ في الصورة كلِّها»[2].

وفي هذا ما يؤكد على جوهرية البلاغة العربية، في ضمن علم اللغة النصي، وعلى أنه مكمل غير متعارض.

٢-الربط بالعطف:

كان لمحمود شاكر نظر في ترابط القصيدة عبر العطف والإحالة، وأثرِهما في وحدة القصيدة واتساق دلالتها.

«وفُتُوٍّ هجَّروا»، والواو التي في أول الكلام، والتي يسمونها واوَ «رُبَّ»، لا تعطف شيئًا آتيًا على شيء ماضٍ، بل تعطف ما بعدها على شيء قائمٍ في نفس المتكلم، ولذلك يُفتتح بها الشعر بلا تقدم شيء قائمٍ قبله،.. فافتتاح هذا القِسْمِ بعطف على قائم في نفس الشاعر، لاءمه عودُ الضمير في، منهم «إلى مذكور معلوم في النفس»[3].

ولم يعطف بالواو فيقول: «هجروا وأسروا ليلهم»، بل قال ثم أسرَوْا «لأن العطف بالواو يجعل الكلام كأنه إخبارٌ عن أفعالٍ كانت في زمن وانقضت، ولا يراد بها غير الخبر،

(١) النمط، ص٢٧٤.
(٢) المصدر نفسه، ص١٨٠.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٠٦.

أمَّا ثُمَّ، فهي بطبيعتها تحمل معنى الحركة والتتابع، بلا نظر إلى الزمن المقيّد، كما تقول «صعد في الجبل، ثُمَّ وقف على قمَّته، ثم نظر، ثم رمى بنفسه»[1].

ومن الدقة في النظر في الروابط المتجاوز ة لحدود الجملة قوله:«أما ما يقوله النحاة في» ثم، «من أنها حرف عطف يقتضي الترتيب والتراخي والمهلة، فهو نظر نحاة، يحتاج إلى بيان،..»[2].

«أما الفاءات التي بدأت منذ البيت السادس عشرَ، وتتابعت حتى آخر مقطع الغناء، فهي التي أكسبت الغناء هذا التحدر والدفق... وأنت واجدٌ فرقًا لا يوصف في حركة الزمن بين قولك:«نام، وأفاق، ولبس ثيابه، وخرج، ولقي صديقه، وانطلقا»،وقولك:«نام، فأفاق، فلبس ثيابه، فخرج، فلقي صديقه، فانطلقا، وهذا الذي وصفت، زيادة على ما يقوله النحاة من أن» الفاء « تفيد مجرد الترتيب»[3].

٣-التماسك أو الانسجام الصوتي:

ومما يميز منهج شاكر في تحليله للقصيدة وإثبات تماسكها، وترابط أجزائها شكليًّا ودلاليًّا- ما تطرق إليه من البحث الصوتي للقصيدة.

نستطيع الجزمَ بأنه فاق إجراءاتِ علم النص، ووسائله في هذا الباب، ونستطيع أن نعدَّه معيارًا لتماسك النص، لا سيما إذا كان النص نصًّا شعريًّا.

---

(١) النمط، ص٢١٢.
(٢) المصدر نفسه، ص٢١٢.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٢٨.

ولا ينبغي لنا أن ننسى أن شاكرًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ دائب في بحث القضايا التي أثارتها أسئلة «حقي»، والتي من أهمها إثبات وحدة القصيدة، وعدم اختلالها فهو يتوسل بالوسائل الممكنة في سبيل ذلك.

وفي الحقيقة قد وجدنا له كلامًا في جزئين مهمين يتعلقان بالبحث الصوتي، الكلام على نغم القصيدة وبحرها، والكلام على تناسب مخارج ألفاظها.

أمَّا الكلام على بحر المديد فوصفه بأنه: «نغمٌ يطالب المترنم بأن ينبذ إليه الكلمات حيةً موجزةً مقتصدة خاطفةَ الدلالة، تُنبذ في أناة وتؤدة، فإذا هي واقعة من في حاقَّ موقعها لا تتجاوزه،بل ربما زاد فطالبه بأن تكون أنفُس الكلمات دالةً ببنائها ووزنها وحركاتها وجرْسها، على المعنى المستكنِّ فيها، بلا استكراه ولا قسْرٍ»[1].

ويقول: «واعلم أننا في الشعر، وإنما الشعر غناء وترنُّم، وللنغم معنى ينسرب في معاني الألفاظ، وللألفاظ معانٍ تتغلغل في معاني النغم، فمن غفل عن شيء منهما لشيء فقد جار عليهما جميعًا»[2].

أما حديثه عن تناسب الحروف، فقوله: «وقد عاب القدماء من أصحاب البلاغة على أبي تمام قوله، وهو معيب بلا شك:

كريمٌ متى أمدحُه أمدحُه والورى معِي وإذا ما لُمتُه لُمتُه وَحْدِي

لهاتين الحائين المقترنتين بالهاء، ثم تكرارهما في لفظين متجاورين، وعدُّوه من تنافر الكلمات، وصدقوا. ولكن شاعرنا أتى بسبع حاءات في سبع كلمات متتابعات[3]، فما

(١) النمط، ص١١٣.

(٢) المصدر نفسه، ص١٥٧.

(٣) في قول الشاعر:

ظَـاعِـنٌ بِـالحَـزْمِ، حَـتّـى إِذَا مَ حَـلَّ، حَـلَّ الحَـزْمُ حَـيْـثُ يَحُـلُّ

ساغ لأحد أن يعدَّه في تنافر الكلمات، والذي أفسد على أبي تمام كلامه، مجئ الحاء الساكنة بعدها هاءٌ متحركة، والهاء مخرجها من أقصى الحلق، والحاء مخرجها من وسط الحلق، فهما متدانيان، وسكون الحاء زادها دُنوًّا من مخرج الهاء التي تليها، فثقُل النطق بهما ثقلًا شديدًا، فلما كرر اللفظ مرة أخرى أطبق الثِّقِلُ، ونفرت منه طبائع النطق، أما شاعرنا فجاء بسبع حاءات متحركات في سبع كلمات متتابعات، ولما كانت الحاء المتحركة أقوى من الساكنة، كان النطق بها أخف، وكان النطق بها مفتوحةً يستوجب شيئًا من الأناة والتوقف، فطابق ما يستوجبه النطقُ بها»[1].

«فالنغم والغناء أصلٌ في الشعر لا ينفك عنه، وله معانٍ رافدة لمعاني الشعر ومبانيه، ومن ظن أن قراءة الشعر سردًا كقراءة النثر، مغنيةٌ وكافيةٌ فقد خلع الشعر من أصله، ودمَّر مقاطعه التي أحكمها الشاعر في تغنيه وترنمه، وليس ما أقوله لك شيئًا جديدًا، فإن أهل الجاهلية كانوا على علم به، وعليه كان عَروضهم الذي تسمع»[2].

وكذلك يرى أن لبحر المديد سلطانًا، ومعاييرَ وضوابطَ، يحكم به شعرَ الشاعر، يقول شاكر: وهو «بحرٌ يطالب المترنم به أن ينبذ إليه الكلمات حية موجزةً، مقتصدةً خاطفةَ الدلالة، ويطالبه أن تكون أنفس الكلمات دالةً ببنائها ووزنها وحركاته وجَرْس حروفها على المعنى المستكن فيها، ويطالبه أن لا يسترسل في تشبيه، ولا أن يأتي بصور متعانقة متشاجرة، ثم أوفق حالات المترنم به وبأنغامه: أن يكون على حال «تذكر» لشيء كان ثم انقضى، فهو يسترجع ذكرى ينظر إليها من بعيد وهي تتابع متراحبةً تزدحم فيها التفاصيل، فيختار منها نبذًا وأطرافًا تبين عن جميعها بالإشارة الجامعة دون التصريح

(١) النمط، ص١٨٩-١٩٠.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٠٨.

والإفاضة، وبالاقتصاد دون التبذير، وبلا هياج عاطفة ولا تضرُّم نفس، وبلا غلو في كتمان، وبلا طغيان في بوح»[1].

ومما انفرد به شاكرُ وتقدم، في إثبات تماسك القصيدة،واتساق بنائها، ويرتقي كذلك إلى أن يكون نظرية نصية شعريةً – هو ما سمَّاه «زمن النفس»، وأثره في تماسك النص الشعري.

وهو زمن ينبثق من زمنيْنِ: زمن الحدث، زمن التغني.

وزمن الحدث الذي يقصده شاكر: هو الظرف المعنوي للحدث، الذي يبعث الشاعر على التغني والتعبير عنه، وهو «زمن مؤقت، مفروض على الشاعر من خارج، وأكبر أثره يكاد يكون قاصرًا على إثارة نفس الشاعر، وتهيئتها للتغني، وهو زمن سريع الانقضاء»[2].

وزمن التغني هو: «توقيت لاستجابة النفس لحافز الإثارة، ثم بلوغ الإثارة درجة من النضج والتحفز، تجعل الغناء ينفصل عن النفس، طليقًا بلا إكراه ولا قسر»[3].

أمَّا زمن النفس: فـ«هو الذي يحمل ما بعثته «أزمنة الأحداث» على اختلافها أو ترافدها، وهو الذي يتحكم من أجل ذلك في نغم البيت من القصيدة، أو في نغم مقطعٍ كاملٍ منها، وهو الذي يؤثِّر في تخيُّر الألفاظ والتراكيب والدلالات، فينتظمها النغم الواحد، أو الأنغام المختلفة التي يتكون منها لحنٌ واحدٌ متكامل، وهو الذي نسميه القصيدة»[4].

---

(١) النمط، ص٢١٠.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٤١.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٤١.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٤٢-٢٤٣.

وهذا الزمن هو المسؤول عن «تقسيم نغم البحر وأجزائه، وفي أنفس الكلمات، وفي أوزانها، ثم في انتظامها مركبةً في النغم المفرد، ثم في أنغام القصيدة المتكاملة في لحن واحد»[١].

فهو يرى أن شاعرنا لم يُردْ قطُّ «أن يقص قصة، لأن القصة قوامها الحدث، والحدث مرتبط بالزمان، والقصة تتطلب تحدُّر الأحداث على سياق تحدر الزمن، وقد تنبه «جوته» لشيء قريب من هذا»[٢].

وأنه «حين أعاد بناء القصيدة، لم يبالِ بترتيب فترة الغناء وزمنه، فرتبها ترتيبًا آخر، أي عبَث به يفضي إلى فسادٍ كبير»[٣].

وهذا سرُّ ما جعل الشاعر يشعِّثُ أزمنة الأحداث وأزمنة الغناء بأقسامه السبعة تشعيثًا تامًّا»[٤].

«وتشعيث الأزمنة»، «تشعيث أزمنة الأحداث»، و«تشعيث أزمنة التغني»، الذي سقط عليه جوته،،..موجودٌ في أشعار الجاهلية، ولكنه يخفى أمرُه حتى لا يكاد يُعرف، وهذا الخفاء هو الذي يؤدي ببعض المتهورين إلى الظن باختلال بعض القصائد، فيعمدون إلى إلى إعادة ترتيبها ترتيبًا لا ينتهي العجب من سخفه»[٥].

---

(١) النمط، ص٢٤٤.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٤٠.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٣٨.
(٤) المصدر نفسه، ص٢٣٩.
(٥) المصدر نفسه، ص٢٤١.

فالقصيدة إذن متماسكة بفعل زمن النفس، وإن كان قد شعث أزمنة الأحداث وأزمنة الغناء،إلا أنه ينتظم معانيها وألفاظها وما تعبر عنه «وهو الذي أقام بناءها على ما وصفتُ آنفا في ترتيب القصيدة، وفي أزمنة التغني بها»[1].

فقد أرجع شاكر بنظرته هذه، البناءَ النغمي أو تماسكَ الصوتي إلى وحدة اللحن، المتمثل في زمن النفس وتصرفه وسلطانه في إنتاج الشاعر، وهذه الوحدة النغمية –بلا شكٍّ– ذاتُ أثر واضح في تماسك القصيدة على المستوى الشكلي والمعنوي، بحيث يؤدي أي اختلال في ترتيب أبياتها إلى خلل – ولا بد – في تسلسلها النغمي.

فتبين أن «زمن النفس» هو الموطن الذي تنشأ فيه «وحدة القصيدة» على معناها الصحيح، سواء اقتصرت على معنى واحد متعانق متشابك متصل، أو اشتملت على معانٍ متعددة،تمتْ بينها ضروب من الالتحام والتداخل»[2].

لكنَّ التنبه لهذا الزمن وأثره،يحتاج إلى –كما أشار إليه هو – متلقٍ يكون « مفطورًا على غرار طبائع الشعراء، في تذوقه للشعر، أي إذا كان عنده القدرة على تمثُّل» زمن النفس» حاضرًا في نفسه عند تلقي غناء الشعراء، ليميز به هذا الزمن فيما يقرأ ويسمع»[3].

أما إن كان «غسيلا من هذه الفطرة، أو من طائفة المتخصصين (بحكم ظروف الدراسة)، فهذا الزمن الثالثُ يضلله ويوقعه في الحيرة، بما يدخله على الشعر من التنوع والتشابه، والتشعيث والتسريح، والتقديم والتأخير»[4].

---

(١) النمط، ص٢٤٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٠٣.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٤٥.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٤٥.

وهذا يدل بلا شك على أن هناك معاييرَ أخر، ينطوي عليه التراث البلاغي والنقدي – وهي مستمدة من طبيعة النظام اللغوي العربي – يُستند إليه في تنسيق النص وجعله متماسكًا.

وقد تسمح لنا هذه النظرة بالانطلاق والتفتيش عن معايير تراثية أخرى من الممكن أن تكون دعاماتٍ وضماناتٍ للتماسك النصي، ولا يخفى أن البحث عن هذه المعايير في هذا الكم الهائل الرهيب من التراث يحتاج كتائب من الباحثين ذوي العدة والاستعدادات والمؤهلات الخاصة،ويحتاج إلى أوقاتٍ متطاولة ممتدة قد لا تفي به أعمار الأفراد.

المبحث الثاني

التمثل المعياري النصي في المنهج فيما يتعلق بمستعملي النص

أولًا: القصدية:

والقصدية أو المقصدية تمثل بؤرة الطاقة الإنتاجية للحدث الكلامي، فهي حجر الأساس الذي عليه يقوم بناء النص، وهي نقطة الارتكاز الدلالي في النص، والموجهة للبنيات الدلالية.

فهي معيار منسرب في النص من بدايته إلى نهايته، يحقق الانسجام والاتساق بين أجزاء النص، وتكون الوظيفة النحوية واللغوية وسائلَ لتحققه في صورته الكاملة،

ولابد أن يكون من المعروف المستقر لدينا أن «كل نصٍّ بنية قصدية، وهو بوصفه كذلك يخضع لمعايير القبول[1].

ويتمثل عملها في كونها: «تحدد كيفية التعبير والغرضَ المتوخى، وهي البوصلة التي توجه العناصر الأخرى، وتجعلها تتضام وتتضافر وتتجه إلى مقصد عام، فالقصدية المنطلقة عن الوعي واللاوعي في الشعر مثلا تحدد اختيار الوزن، والألفاظ الملائمة، وتركيبها بطرائق معينة لتؤدي المعنى العام المتوخى، فالقصد يتحكم في نسيج القصيدة أو المقطوعة، بل في البيت أو شطر مبنًى ومعنًى»[2].

(١) العلاماتية وعلم النص، ص١٣٤.

(٢) في مفهوم النص ومعايير نصية القرآن دراسة نظرية، أ.د بشرى حمدي البستاني، د. وسن عبد الغني المختار، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، جامعة الموصل، المجلد ١١، العدد ١.

وترجع أهمية القصدية إلى أن لكل نصٍّ دافعيةً لإنتاجه،وهدفًا يريد المنتج تحقيقه من عملية التواصل، وكونِها المعيار الذي بانهياره تنهار سائر المعايير، ومن ثَمَّ تنعدم حقيقة النص وفائدته.

«وبنظرة أكثر شمولية يمكننا أن نلحظ أن القصد جزء من دلالة النص، وليس جزءًا من دلالة الكلمة؛ ولذا فإن أي نص يخلو من القصد لا يرقى إلى مرتبة الخطاب، ومن ثم لا يقوى أن يحافظ على انسجامه الداخلي، وسيفقد من ثَمَّ توجهه الإيصالي، ومعلوم أن النصوص مراتب وأنواع،..فالمهم أن النص في كل مراتبه وأنواعه لا يقوم إلا بقصد، وأن القصد لا يكون مدلولًا إلا مع النص»[1].

وهذا ما جعل القصدية محلَّ اهتمام كثير من العلوم، وأرضًا مشتركة لتناولها بالدراسة كعلوم كالبلاغة والتداولية وعلم الاتصال.

حيث مقاصد المتكلم مؤشرات حاسمة في عملية التأويل، وإلغاؤها إلغاءٌ لجزء معتبر من معمار المعنى النصي إن لم يكن إعدامًا مطلقًا له.

فالبلاغيون قد بنوا مباحثَ كثيرة من مباحثهم على قصدية المتكلم وغرضه من الكلام، كالكنايات والتورية والاستعارات إلخ، ومن ذلك تفريقهم بين الخبر والإنشاء، وهذه القضية على الخصوص، قد مرت مقترنةً بالقصدية بمرحلتين:

الأولى: في تلك المرحلة قد «اعتدوا بمعيار القصدية في التعرف على إيجاد الكلام لنسبته الخارجية أو مطابقتها إن كانت موجودة قبل التكلم، فتمَّ المزج بين أدوات منطقية وأخرى تداولية، فاتخذوا «القصد» قرينة مساعدة لا قرينة أساسية».

---

(١) في مفهوم النص ومعايير نصية القرآن دراسة نظرية، أ.د بشرى حمدي البستاني، د. وسن عبد الغني المختار، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، جامعة الموصل، المجلد ١١، العدد ١.

الثانية: وفي تلك المرحلة قد اعتدوا بالقصد معيارًا أساسيًّا في التفريق بين الخبر والإنشاء، وقد أشار إلى هذا إبراهيم الشيرازي (ت٤٧٦هـ)، فقد «ذكر كلامًا ينبئ عن تصور يؤسس لفكرة تداولية صريحة تعتمد هذا المعيار وحده،..بوصفه قرينة أساسية في التفريق بين الظاهرتين الأسلوبيتين، وفحوى هذا المعيار عنده ما عرَّف به الكلام بأنه «يصير خبرًا إذا انضمَّ إلى اللفظ قصد المتكلم الإخبارَ به»[١].

فقد رأى الشيرازي أن الذي يميز بين الخبر والإنشاء ليس فقط ألفاظ المتكلم، بل لابد أن ينضاف إلى ذلك غرضه ومقصده من الكلام، فإن قصد الإخبار فهو خبر، وإن قصد الإنشاء، فالكلام إنشاء.

ويؤكد عبد القاهر الجرجاني على ضرورة العلم بمقصد المتكلم، وعلى أن تجرد الخطاب عن مقصد يخالف بداهة العقول، فيقول: «وقد أجمع العقلاء على أن العلم بمقاصد الناس في محاوارتهم علمٌ ضرورة،.. وكان مما يعلم ببداهة العقول، أن الناس إنما يكلم بعضهم بعضًا، ليعرف السامع غرض المتكلم وقصده»[٢].

وغير خافٍ أن القصد ركن أساس في نظرية النظم التي تعدُّ سابقة نصية في التراث العربي، فالنظم «ليس شيئًا غير توخي معاني النحو فيما بين الكلم، وأنك ترتب المعاني أولًا في نفسك، ثم تحذو على ترتيبها الألفاظ في نطقك»[٣].

---

(١) التداولية عند علماء العرب – دراسة تداولية لظاهرة «الأفعال الكلامية»، في التراث اللساني العربي، د.مسعود صحراوي، دار الطليعة، بيروت، ط. الأولى ٢٠٠٥م، ص٧٨.

(٢) دلائل الإعجاز، ص٥٣٠.

(٣) المصدر نفسه، ص٤٥٤.

فترتب المعاني في النفس –وترتبها هكذا وسيلة لتحقيق القصد من التواصل اللغوي– هو الذي يحدد الإطار النحوي أو القوالب النحوية الحاملة للمنطوقات، وهي كذلك التي تحدد الشبكة الدلالية للنص بكل أجزائها، والملامحَ السبكية بكل أبعادها على وفق النظام اللغوي.

فالمقاصد هي المسؤولة عن تشكُّل النصوص في صورتها العميقة والسطحية، وعليه فقد جاءت توجيهات النقاد للشاعر لتأتي الألفاظ متوافقة مع المقاصد لتتحقق إبداعية اللغة الشعرية وبلاغتها» فإذا كان مقصده الفخر، كان الوجهُ أن يعتمد من الألفاظ والنظم والمعاني والأسلوب ما يكون فيه بهاء وتفخيم، وإذا كان المقصدُ النسيبَ، كان الوجهُ أن يعتمد منها ما يكون فيه رقة وعذوبة من جميع ذلك، وكذلك سائر المقاصد»[1].

كما تأكد الربط بين قصد المتكلم و إنتاجِه اللغوي بصورة واضحة في الدراسات التداولية؛ إذ إنها تدرس الكلام في أثناء الاتصال اللغوي؛ ولذا فهي تهتم بأركان العملية التواصلية، المتكلمِ ومقاصدِه، والمستقبِلِ، والظروفِ المحيطة بعمليةِ التواصل.

لاحظ أوستين[2] أنه توجد ثلاثة خصائص للفعل الكلامي الكامل:

---

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، أبو الحسن حازم القرطاجني، تحقيق محمد الحبيب الخوجة، دار الغرب الإسلامي، ط الثالثة ١٩٨٦م، ص٣١٠.

(٢) ميز أوستن«Austin» بين وحدات كلامية بيانية وأخرى أدائية في سياق تفرقة بين القول والفعل، فالوحدة الكلامية البيانية تستخدم لإصدار العبارات الخبرية،.. أما الوحدة الكلامية الأدائية بالمقارنة فهي وحدات يؤدي المتحدث أو الكاتب بها عملًا أو فعلًا وليس مجرد كلام، فالفعل الكلامي هو عبارة عن أداء لفعل معين كأن يكون أمرًا بضرورة القيام بعمل ما، أو وعدًا بإنجاز عمل آخرَ، أو حكما لفعل معين بحالة شعورية تجد طريقتها التجسيد اللساني، وقد أحصى «أوستن» خمسة أصناف من الأفعال: الحُكميات، وفي جوهرها إطلاق أحكام على واقع، أو قيمة، مما يصعب القطع بها، أي أنها تقوم على الإعلان عن=

١- أنه فعلٌ دالٌّ.

٢- أنه فعل إنجازي (أي ينجز الأشياء والأفعال الاجتماعية بالكلمات).

٣- أنه فعل تأثيري (أي يترك آثارًا معينة في الواقع، خصوصًا إذا كان فعلًا ناجحًا).

ويقوم كل فعل كلامي على مفهوم «القصدية»، وتقوم «مسلمة القصدية»على أسس تداولية،(١) (٢).

= حكم يتعلق بقيمة أو حدث، ومن أمثلتها: قيَّم، حكم، وصف، حلل، صنَّف، وفسَّر، وأما الإنفاذيات،فتقوم على إصدار قرار لصالح أو ضدِّ سلسلة أفعال، مثل: أمَر، قاد، دافع عن، ترجى، طلب، تأسف، نصح، وكذلك عيَّن نية وطالَب، بينما تسير الوعديات إلى إلزام المتكلم بأداء فعل ما، كمت قد تكون إفصاحات عن نواياه (هكذا في الأصل، والصحيح نِيَّاته)، ومن أمثلتها: وعد، أقسم، راهن، عقد، عزم، نوى، وأما السلوكيات، فتتعلق بردود فعل تجاه سلوك الآخرين، وتجاه الأحداث المرتبطة بهم، أي أنها ترتبط بإفصاحات عن حالات نفسية تجاه ما يحدث للآخرين، مثل: الاعتذار، الشكر، التهنئة، الترحيب، النقد، الهجاء، التوبيخ، كما تستعمل التبينات لعرض مفاهيم، وتوضيح استعمال كلمات، وضبط مراجع، مثل: أكَّد، وأنكر، وهب، نقل، أثبت، استنبط وشرح، وهناك تصنيف آخر يمكن إجماله في: أفعال النطق بالكلمات أو الجمل، وأفعال القضايا باستعمال المحتوى والإشارة الدلالية، وأفعال العُرف المتمثلة في النشاطات العرفية، التي يؤديها المقال كالوعد والوعيد، وأفعال التأثير بالتوصل إلى إحداث تأثيرات على مستعملي النص، كإفزاعهم أو إقناعهم.

- انظر: المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب - دراسة معجمية ، د.نعمان بوقرة، عالم الكتب الحديث، جدار للكتاب العالمي، ط. الأولى ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٩م، ص٨٩.

(١) التداولية عند علماء العرب - دراسة تداولية لظاهرة « الأفعال الكلامية «في التراث اللساني العربي، د.مسعود صحراوي، ص٤٤.

(٢) يعود مصطلح التداولية pragmatics بمفهومه الحديث إلى الفيلسوف الأمريكي «تتشارلز موريس» Charles Morris الذي استخدمه سنة ١٩٣٨ دالًّا على فرع من فروع ثلاثة يشتمل عليها علم العلامات أو السيمية semioticsهذه الفروع هي:

١- علم التركيب syntaetics أو syntax: وهو يعنى بدراسة العلاقات الشكلية بين العلامات بعضها مع بعض.

٢- علم الدلالة semantics: وهو يدرس علاقة العلامات بالأشياء التي تدل عليها، أو تُحيل إليها. =

ولا شك أن من المقاصد ما يكون واضحًا للمتلقي، ومنه ما يكون مخبوءًا في طيات النص، لا يتوصل إليه القارئ إلا بقدر لا بأس به من آليات التأويل والتفكيك والتشريح، والربط بينها وبين نصوص وأحوال مشابهة.

وهذا ما يجعل اكتشاف القصدية مبنيًا على عمل مشترك بين المرسل والمستقبل، ولا يخفى أن المستقبل قد يقع عليه عبءٌ كبير إذا كان النص مبنيًّا على الإلغاز أو الترميز الغامض أوالتشفير المحكم، مما يجعل الكشف عن المقصدية يحتاج إلى ثقافات عالية ومتشعبة.

بالإضافة إلى أن الألفاظ قد تكون خافية الدلالة إذا عُزلت عن سياقاتها وموقفيتها التي قيلت فيها.

وفي كل هذا يكون الوقوف على مقصدية المتكلم مُلقًى بكل أعبائه على المستقبِل وما معه من آليات وأدوات، لذا وجدنا لبعض النصوص كثيرًا من التفسيرات والتأويلات، لاختلاف أدوات المتناولين لها بالتفسير.

ومن هنا تبرز أهمية «المسلمات الحوارية»، بعدِّها آليةً أساسية في اكتشاف مقصدية نص ما، وبخاصة في تتبع مراحل التخلق أو التكون المقصدي للمتكلم.

= ٣- التداولية: وتهتم بدراسة العلامات بمفسيريها، وهي فرع من فروع علم اللغة يبحث في كيفية اكتشاف السامع مقاصد المتكلم speaker intention أو هو دراسة معنى المتكلم .speaker meaning وهي تشترك مع تحليل الخطاب في الاهتمام أساسًا بتحليل الحوار، ويقتسمان عددًا من المفهومات الفلسفية واللغوية، كالطريقة التي توزع بها المعلومات في جمل أو نصوص، والعناصر الإشارية deictics والمبادئ الحوارية conversational maxims.

- انظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، د.محمود نحلة ، دار المعرفة الجامعية ٢٠٠٢م، ص٩-١٠ بتصرف

فمن المعروف أن جزئيات المقصدية للنص ملفوظًا أو مكتوبًا – في أحيان كثيرة– لا تبدو لأول وهلة، إنما تظل تنمو وتتشكل شيئًا فشيئًا حتى تتم وتتكامل فيما يمكن أن نسميه «النسيج المقصدي للنص».

وقد تنبه شاكر لهذه القضية في تحليله للقصيدة؛ فعاب على من أخطأ في إدراجها تحت أغراض تخالف غرضها الحقيقي.

يقول شاكر: «فمن الخطإ أن يقال إن الشاعر قال قصيدته في «طلب الثأر»أو التحريض عليه، لأنه إنما قال أكثرها بعد أن أدرك ثأره في«هذيل»، لا قبل إدراكه، ومن الخطإ أيضًا أن يقال إنه قالها «يرثي خاله تأبَّط شرًّا»، لأنه لم يقصد قصد الرثاء، والقصيدة ليست من الرثاء في شيء، وليس فيها تفجُّعٌ ظاهر على هالك،..وهذا الإلف (يقصد إلفَ تقسيم الشعر إلى أغراضه المعهودة) إذا غلب، فربما أضرَّ، وربما ضلَّل، وهو حريٌّ أن يقود الألسنة عِجالًا إلى منح القصائد صفاتٍ ليست لها، ويزيغ النظر فيها إلى معنى الباب الذي أُدرجت فيه، فيصير ذلك حائلًا بيننا وبين إدراكِ حقيقةِ ما حرَّك الشاعر حين ترنَّم، وحقيقةِ الأصل الذي بنى عليه أبياتَ قصيدِه، ثم تجرُّنا هذه السمات التي نَسِمُ بها القصائد، إلى نعوت يَبرأ منها القصيد ونغمُه جملةً وتفصيلًا»[1].

وقد مرَّ بنا ما ما قام به شاكر من معالجات معجمية، تنوعت بين الانتخاب المعجمي، والتصويب والتوضيح، والكشف عن التماسك النغمي وأثره في تماسك القصيدة – وكلُّ ذلك خادم وكاشف عن قصدية الشاعر، بالإضافة إلى إثبات تماسكها بنوعيه.

(١) نمط صعب، ونمط مخيف، محمود محمد شاكر، ص١٤٠.

وتجدر الإشارة إلى أن قضية تصنيف القصائد،بتحديد غرضها العام، وإدراجها تحت نوع معين منها كالفخر أو المديح أو الرثاء إلخ، يسهم إسهامًا بالغًا، في كشف قصدية القصيدة الجاهلية خصوصًا؛ إذ لم يكن الشعراء يعنونون لقصائدهم.

كما أن تحديد غرض النصوص عمومًا، ومقصديتها، يُسهم في تحديد خصائصها «وفي تحديد خصائص أنواع النصوص فوائد عديدة، لعل أكثرها بداهةً ما يراه «ج.فينيير» من أن التعامل الموضوعي مع النص لفهمه والوقوف على مظاهر الإبداع فيه، لا يتم إلا إذا كان هذا النص خاضعًا في اشتغاله (Soumis dans son fonetionnement) لقوانين أو مواصفات النوع الأدبي الذي ينتمي إليه، ويستشهد على ذلك بما (هـ.ر.ياوس) (Hans Robert Jauss من أن كل عمل أدبي ينتمي إلى جنس، (Genre) وهو ما يفترض خضوعه لمجموعة من القواعد الموجودة مسبقًا، والتي توجه القارئ في فهمه وتقييمه لهذا العمل»[1].

ويعدُّ الخطأ في معرفة الغرض العام للقصيدة، هادمًا للبنية الدلالية، ومضللا للقارئ، بحيث لا يستطيع أن يصل إلى مقصدية الشاعر، فيبدو العمل مخرَّقًا، يعتريه الخلل، وينسحب كل ذلك على تماسكه بنوعيه، وتحقق معاييره النصية.

«ثم إن الشعر، من بين جميع الكلام، هو في كل لسان أشقُّ علاجًا، وأعصى قِيادًا، لأن الشعراء لم يقصدوا قطُّ مقصدَ الإبانة المغسولة عن المعاني، بل ركبوا إلى أغراضهم أغمضَ ما في البيان الإنساني من المذاهب، فربما شعثوا ما من حقه أن يكون مجتمعًا، لأنهم لا يبلغون حقَّ الشعر إلا «بالتشعيث »[2].

(١) مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، محمد الخضر الصبيحي، ص١١٣.
(٢) نمط صعب، ونمط مخيف، محمود محمد شاكر، ص ١٣٠.

فمعرفة مقصدية الشاعر، والتوصل إلى حقيقتها، والغوص وراء المعاني المطروحة والمحتملة لها- أمر يتطلب حسًّا شعريا، وإدراكا لطبيعة بيئة الشعر، والأحداث المحيطة بالشاعر، بالإضافة إلى قدرة من نوع خاص بالعلوم العربية.

ثانيًا: المقبولية:

هذا المعيار من معايير التماسك النصي «يتضمن موقف مستقبل النص إزاء كون صورة من صور اللغة ينبغي لها أن تكون مقبولة من حيث هي نص ذو سبك والتحام»[(١)].

وموضوعه اتجاه مستقبل النص إلى أن تؤلف مجموعة الوقائع اللغوية نصًّا متضامًا(منسبكًا) متقارنًا(منحبكًا)، ذا نفع للمستقبل أو صلة ما به، أي اكتسابه معرفة جديدة، أو قيامه بالتعاون لتحقيق خطة ما»[(٢)].

وقد أَوْلى البلاغيون العرب هذا المعيار النصيَ عناية كبيرة متمثلًا في الحديث عن أسباب قبول الخطاب فاهتموا بتنقيح الشعر وتهذيبه، كما تكلموا عن الموانع التي تحول دون تأثر السامع للخطاب سواء أكان شعريًّا أم نثريّا.

وتكلموا كذلك عن حسن الابتداء والانتهاء؛ لما لهما من أثر بالغ في وقوعِ النصِ موقعَ القبول من السامع، واعتنوْا ببراعة الاستهلال؛ إذ هي مفتاح الإعجاب بالقصيدة وتقبلها، وكونها الخطوة الأولى لانجذاب السامع، ولم يغب عنهم التأكيد عن حسن

(١) النص والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة،الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، ص١٠٤.

(٢) مدخل إلى علم لغة النص، روبرت دي بوجراند، وولفالج دريسلر، د. إلهام أبو غزالة، علي خليل حمد، ص٣١.

الانتهاء، لأنه يمثل ضمانةً لاستمرارية التواصل والإعجاب وتمكُّن القبول من السامع، فـ» خاتمة الكلام أبقى في السمع، وألصق بالنفس، لقرب العهد بها، فإن حسنت حسُن، وإن قبحت قبح، والأعمال بخواتيمها، كما قال رسول الله ﷺ »[1].

ولا عجب أن نرى النص القرآني يهتم بتحقيق التقبلبية لدى من يخاطبهم، فنجده نوَّع أساليب الخطاب من ترغيب وترهيب وقصص؛ ليُحدثَ أثرًا يترتب عليه تحقق التقبلية،بل تمكُّنها بأعلى درجات التمكن، كما اهتم بالفواصل،وفواتح السور، وذكرَ مواضيعَ وأشخاصًا مُعيَّنينَ، لهم علاقة بالمخاطبين، كذكره لإبراهيم وإسماعيل للعرب خصوصًا، وذكره لأنبياء بني إسرائيل وقصصهم لأهل الكتاب خصوصًا، لتنجذبَ قلوب من يتابعونهم.

«وكثيرًا ما يحدد النص القرآني شكلًا للمتلقي بطرائقَ متعددة، وهذا التحديد يتفاعل مع معطيات النص في توليد البعد التأويلي، كونه يدخل عنصرا من عناصر بناء النص، فمن خلال خصوصية توجيه الخطاب تتضح للقارئ معالم تأويلية يستنبطها من النص نفسه، ويكتشف من خلالها اتساع أفق النص في التعامل معه، فضلا عن كونها توجد لديه آثارًا لمفاهيمَ جديدةٍ، لا يصرح النص بها، بل يقولها ضمنا»[2].

وفي الحقيقة فإن النصوص تتجرد – في الأصل – لإحداث قبول لمقاصدها لدى المتلقين بدرجة ما، ولا شك في أن درجات التقبل تتفاوت بين الأشخاص نتيجة اعتبارات وعواملَ معينةٍ، يمكن إجمالها فيما يلي:

---

(١) العمدة لابن رشيق القيرواني، ١- ص٢١٧.

(٢) تأويل الجملة االقرآنية لواحدة، د. نوار محمد اسماعيل، دار الراية للنشر – الأردن، ط. أولى ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م، ص٥٥.

- مدى التوافق الفكري والانتماء البيئي بين المنتج والمتلقي.

- اتفاق اللغة الحاملة للخطاب أو تخالفها، ومدى التمكن فيها.

- وقوع النص ضمن دائـرة اهتمام المتلقي، أو توافقه مع خلفيته الفكرية والأيدلوجية.

- تحقق المنفعة للمتلقي سواء أكانت معنوية أم مادية، على المستوى البعيد أم القريب.

- خلو النص من عيوب ومعوقات الفهم، كعدم الانسباك أو الانحباك، أو إبهام مقاصده وصعوبة فك شفراته،..وغيرها مما يمنع تدفق الجانب المعرفي للمستقبل.

- مدى توافر عوامل التقبل داخليًا، متمثلة في الاستعدادات النفسية والسمات الشخصية، وخارجيًّا بمواتة الظروف المحيطة بعملية الاتصال، والتي يدخل فيها أيضًا المستوى العمري والتأهل الثقافي للمتلقين.

- كما ينضاف إلى ما سبق قدراته ومهارت ومؤهلات منتج النص الثقافية والنفسية على إحداث التأثير أو التقبلية فيمن يخاطبهم.

وقد كان عمل محمود شاكر من البداية دالًّا على وضوح هذا المعيار لديه، واستقرارِه في منهجه، و كان حضور هذا المعيار من وراء دفاعه عن قضيتين مهمتين، في مقالاته بصفة عامة.

وكان إثبات كل قضية منهما ضامنًا لمقبولية الشعربي عمومًا، وهذه القصيدة خصوصًا، وهاتان القضيتان هما:

١-قضية الشعر الجاهلي: ومفاده -كما مرَّ آنفًا - أن الشعر الجاهلي أكثره منحول موضوع، وضعه أناس في الإسلام، ونسبوه زورًا إلى الجاهلية، وقد سبق أيضًا أن هذه

الفكرة كانت رأيًا ميِّتًا رآه المستشرقُ «مارجليوثُ»، ثم جاء الدكتور «طه حسين» ونفخ فيه الروح، في كتابه «في الشعر الجاهلي»، فكان لهذا الفعلِ نتائجُ سيئةٌ على الأدب والشعر العربي.

عاش محمود شاكر هذه المحنة على المستوى العام، والخاص، ورأى آثارها المدمرة، والتي أهمُها افتقادُ الشعر العربي، والجاهلي خصوصًا للقبول، وتعرضه لإعراض لم يكن مسبوقًا.

يقول شاكر «فأكثر من سمع منه (يعني طه حسين) هذا (يعني كلامَه في الشعر الجاهلي) يومئذ وانتشى به، نفض يده «من الشعر الجاهلي» أو «الشعر العربي»، كله، وطلب كلٌّ منهم مذهبًا غير الذي أراده له، وانفضوا جميعًا»[1].

ثم كان عمل شاكر لإثبات خطإ هذا الرأي، وصحة ضدِّه، - لنفسه وللأمة بعده - يحمل في طياته محاولات لإعادة مقبولية الشعر العربي، ونفي كل ما يكون حائلًا دون هذا الهدف.

٢-قضية افتقار القصيدة العربية للوحدة العضوية: وهي القضية الثانية التي تعرض لها شاكر، ومفادها أن الشعر العربي مفكك غير مترابط، مفتقرٌ للوحدة العضوية،ومن ثَمَّ من الممكن أن يغير مكانُ أي بيت في القصيدة دون أن يصيبها ضَيرٌ؛ لأن كل بيت وحدة مستقلة، لا تمُتُّ لسابقها أو لا حقها بصلة.

وقد كان لهذه القضية آثار لا تقل فداحة وفسادًا عن سابقتها، وكانت معولًا آخرَ، يهدم ما تبقى من قبول للشعر العربي في نفوس الناس.

---

(١) نمط صعب، ونمط مخيف، محمود محمد شاكر، ص٣٧٦.

أدت دعوى افتقار القصيدة للوحدة: «إلى إعراض الناشئة من الشعراء والنقاد عن الشعر القديم كلِّه، ثم نظرهم إليه نظر استخفاف وازدراءٍ واستهانة، ثم ما أعقب ذلك من زوال كل اهتمام بدراسة الشعر القديم، وبإعادة النظر فيما قيل فيه،، ثم كان ما هو أخطر من ذلك، وهو زواله من برامج التعليم التعليم الابتدائي والثانوي زوالًا تامًّا، إلا بقية قليلة تُعرض إبراءً للذمة، ومع فساد البيان عن هذ القليل المزدَرى».

وفي استنكاره على كاتب سياسي ضرب مثالًا للتفكك بالشعر القديم، فردَّ عليه شاكرٌ مبيِّنًا، أثر هذه الكلام في إعراض الناس عن الشعر، وعدم وقوعه منهم موقع القبول،

يقول شاكر:«وهذا[1]، كما ترى، هجاء مرٌّ، فيه استهانة وسخرية، إذ صار الشعر العربي القديم كله مثلًا مضروبًا للتفكك والتمزق، يستنكف العاقل أن يقع في مثله، وظاهر أنه ليس في الدنيا شيء يمكن أن يُضرب مثلًا للتفكك وفقدان الروابط بين أجزائه، سوى هذا «الشعر القديم»،..فأيُّ قارئ يقرأ مثل هذا، في استدلال عارض، في مقال سياسية، ثم يخطر له أن يُذهِبَ وقته هدرًا، فينظر إلى كتاب فيه شعر قديم، فضلًا عن أن يتصفحه، فضلا عن أن يقرأ ما فيه، فضلًا عن أن يهتمَّ إذا قرأه، فضلًا عن أن يشتريَه بمالٍ اكتسبه بالجهد والكدِّ والعرق ؟»[2].

فقد ربط بين وحدة القصيدة، وبين تحقق القبول، وبيّنَ أن افتقار النصوص عمومًا والشعر خصوصًا للتماسك والترابط، كافٍ في إسقاطه، وعدم تحقق مقبوليته.

(١) يقصد كلامَ السياسي الكاتب، الذي رمى فيه الشعر العربي بالتفكك.
(٢) نمط صعب، ونمط مخيف، محمود محمد شاكر، ص٣٢٠.

ولم تقتصر دلائل وجود هذا المعيار في المنهج، على تناوله لقضيتي«الشعر الجاهلي»، و«افتقار القصيدة العربية للوحدة »، بل نستطيع الجزم بأن ما مقام به شاكر من معالجات معجمية لألفاظ القصيدة، من أوضح الأدلة على سعيه لتوفير أكبر قدر من القبول لها؛ رباً للصدوع المعنوية، الكائنة بسبب الغموض والإبهام المعتري بعضَ الألفاظ، والخطإ في تفسير بعضها، مما يضعف معانيها، فيؤدي إلى ضعف قبولها، أو ضياعه بالمرة لدى المتلقي.

ثالثًا: الإعلامية:

هي العامل المؤثر بالنسبة لعدم الجزم Uncertainty في الحكم على الوقائع النصية، أو الوقائع في عالم نصي Textual في مقابلة البدائل، فالإعلامية تكون عالية الدرجة عند كثرة البدائل، وعند الاختيار العقلي لبدائل من خارج الاحتمال، ومع ذلك نجد لكل نص إعلامية صغرى، على الأقل تقوم وقائعها في مقابل عدم الوقائع[1] Non-Dccurvences.

«وموضوعه مدى التوقع الذي تحظى به وقائع النص المعروض في مقابل عدم التوقع، أو المعلوم في مقابل المجهول»[2].

وإعلامية نصٍ ما، هي الحمولة المعلوماتية التي يريد الباث أن يُفيدها للمتلقي، وهي معلومات تتصف ضمنيًّا بالجدَّة، وكلما تجاوزت الإعلامية البدائل المحتملة إلى بدائل خارج النص كانت في الدرجة العالية من الإفادة.

---

(١) النص والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ترجمة تمام حسان، ص١٠٥.

(٢) مدخل إلى علم لغة النص، روبرت دي بوجراند، وولفالج دريسلر، د. إلهام أبو غزالة، علي خليل حمد، ص٣٢-٣٣.

والقصد يتعلق بالإفادة تعلقًا لا يمكن تصور انفصالهما، فهما كوجهين لعملة واحدة، فقد ربط بينهما ابن هشام في تعريفه للكلام بقوله: «الكلام هو القول المفيد بالقصد»[1]، وقد عرفت الدراسات العربية معيار الإعلامية تحت مسميات (الإفادة،والمنفعة، والإفهام)، «والملاحظ أن العلماء العرب عامةً، كثيرًا ما كانوا يرتكزون على دعامة»، الإفادة «في دراستهم للجملة والنص، إذ هي مناط التواصل بين مستعملي اللغة، فقد كانت مراعاتها من قِبل علمائنا عنوانًا على أي دراسة لغوية وظيفية جادة»[2].

لكن الإفادة التي تُعنى بها الإعلامية هي إفادة من نوع خاص، تتميز بالجدة، وهي قدر زائد على المحتوى الدلالي للنص» فاحتواء التراكيب على دلالة يستوي فيه النص والجملة، ولكن ما يميز دلالة النص وصفها بالإعلامية»[3].

«فليست الإعلامية إذن متمثلة في مجرد المعلومات التي يحتويها النص، وإنما تتمثل في جدة هذه المعلومات، وتنوعها اللذيْنِ توصف بهما المعلومات في بعض المواقف،.. ومن ثم لا ينبغي أن نفهم خلوَ النص من صفة الإعلامية – خلوُّه تماما، وإلقاؤه على المتلقي شكلا بحتًا بلا مضمون؛ لإن القضية ليست احتواء النص على مضمون، وعدم احتوائه على مضمون، وإنما القضية احتواء النص على معلومات توصف بالجدة والتنوع، ولذا كلما قلَّ احتمال المتلقي لها ازداد مستواها الإعلامي»[4].

---

(١) مغني اللبيب، جـ٢، ص٣٧.

(٢) التداولية عند علماء العرب – دراسة تداولية لظاهرة «الأفعال الكلامية» في التراث اللساني العربي، د.مسعود صحراوي،ص٥١.

(٣) نحو النص بين الأصالة والحداثة، د. أحمد محمد عبد الراضي، مكتبة الثقافة الدينية،ط. الأولى ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨، ص٩٨.

(٤) المصدر نفسه، ص٩٧.

وتعد الجدة في نصٍ ما، مقياس للكفاءة الإعلامية ارتفاعًا وانخفاضًا، وهذا ما يؤكد عليه دي بوجراند فهو ينظر إلى هذا المصطلح «لا من حيث كونُه يدل على المعلومات التي تشكل محتوى الاتصال، بل من حيث ما يدل بالأحرى على ناحية الجدة والتنوع الذي توصف به المعلومات في بعض المواقف،..فإن إعلامية INFORMATIVITY عنصر ما تكمن في نسبة احتمال PROBABILITY وروده في موقع معين (أي إمكانه وتوقعه) بالمقارنة بينه وبين العناصر الأخرى من وجهة النظر الاختيارية ALTERNATTVENESS وكلما بعُد احتمال الورودِ ارتفعَ مستوى الكفاءة الإعلامية»[1].

وبذلك تعد الإعلامية نقطة التقاء التداولية بعلم اللغة النصي والبلاغة؛ إذ كل منها يهتم بما تحمله عملية التواصل من إفادة للمخاطب، بيد أن علم اللغة النصي يهتم بنوع خاص من الإفادة، وعلى أي الأحوال فقد وجدنا عبد القاهر الجرجاني يعوِّل كل التعويل على القرينة التداولية الكبرى التي سموها «الإفادة» في تحديد موضوع علم المعاني إذ عرفه بأنه «علم يعرف منه كيفية تطبيق أحوال الكلام العربي على أحوال المعنى بحسب مقتضى الوقت»[2].

ويمكن أن نتلمس جذورها، بل الإشارة إليها إشاراتٍ قيمة في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، عبر مستويين،..هما:

المستوى الأول: ويتضمن الحد الأدنى من الإعلامية، ويتحقق هذا المستوى فيما سماه النقاد القدامى بالبيان أو الإفهام أو الفائدة من الكلام التي يتوخى المتكلم إيصالها للمخاطب.

---

(١) النص والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ترجمة تمام حسان، ص٢٤٩.

(٢) التداولية عند علماء العرب – دراسة تداولية لظاهرة «الأفعال الكلامية» في التراث اللساني العربي د.مسعود صحراوي، ص٥٢.

المستوى الآخر: ويتضمن الحد الأعلى من الإعلامية، ويتحقق عادة في الخطاب الإبداعي، ويتمثل لدى القدامى فيما دعوه بحسن البيان، أو حسن الإفهام، أو حسن الإفادة إذ تكون الإعلامية عندئذ بمعنى الجدَّة والإبداع والخروج عن المألوف ومخالفة الواقع في التعبير»[1].

واللغة الشعرية تحمل في طياتها أسباب القبول والتأثير لأن، «الشعر يمثل ذروة الخطاب الإبداعي الأدبي، ولغة الشعر لغة مجازية، تتسم غالبًا بالجدِّة والابتكار والخروج على المألوف وكل ذلك مما يثير الإعجاب في نفس المتلقي»[2].

وإذا كانت الإعلامية -كما مرَّ آنفًا- تتحقق عبر مستويين يمثلان الحدَّ الأدنى والأعلى، للبيان والإفهام؛ فإننا -بلا تعسف- نرى في تحليل شاكر للقصيدة، ومعالجته المعجمية للألفاظ الواردة فيها، محاولاتٍ دائبة ومتواصلة، ليس بحثًا عن الحد الأدنى لإعلاميتها وحسب، بل بحثًا عن ما يمكن العثور عليه من المستويات العليا لها.

وينبغي الإشارة إلى أن النصوص الشعرية تحمل قدرًا عاليًا من الإعلامية، من كونها غيرَ عادية، وخارجةً عن المألوف، كما أنها تحقق أعلى مستوياتها الإبداعية، بتحقيقها أعلى المستويات الإعلامية.

ولو تركنا المعالجاتِ المعجمية جانبًا، وانعكاسها على البعد المعنوي والدلالي للقصيدة، فإننا نستطيع أن نجد في منهج شاكر ما يتمثل في تشعيث أزمنة القصيدة، وأثره في إيجاد الجدة اللامتوقعة.

---

(١) أصول المعايير النصية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، رسالة ماجستير، جامعة الكوفة - كلية الآداب، الطالب:عبد الخالق شاهين فرحان ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م، ص١٢٥.

(٢) اللغة الشعرية في الخطاب النقدي العربي، محمد رضا مبارك، دار الشؤون الثقافية - بغداد ١٩٩٣، ص٣٤.

وهذا التشعيث في حد ذاته نوع من الإعلامية النمطية ذات البعد والأثر العاليين، يجعلها كما قال «جوته»: «وأروع ما في هذه القصيدة في رأينا، هو أن النثر الخالصَ الذي يصوِّر الفعل، يصير شعريًّا بواسطة نقل الحوادث من موضعها،ولهذا السبب، ولأنها تكاد تخلو خلوًّا تامًّا من كل تذويق خارجي، يزداد جلال القصيدة، ومن قرأها بإمعانٍ، لابد أن يرى الأحداث من البداية حتى النهاية، وهي تنمو وتتشكل أمام خياله»[1].

فالقصيدة: «جزء من قصة طويلة لم يجرد الشاعر كلامه للإخبار بها، بل جرده للتغني وحده، والذي بينتُ من ذلك، هو ضرب من«التشعيث» في بناء الشعر، لأنه معتمد على المفاجأة بما لا يتوقع»[2].

وهذه المفاجأة، التي تعني الجدة واللامتوقع،الذي يحمله النص للقارئ من دلالات والجمال والإبداع، ففكرة التشعيث التي يقوم عليها بناء القصيدة –بهذا التصور–، تتلاقى مع معيار الإعلامية.

(١) نمط صعب، ونمط مخيف، محمود محمد شاكر، ص٢٤٠.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٠٦.

المبحث الثالث

التمثل المعياري النصي في المنهج فيما يتعلق بالسياق الخارجي

أولًا: المقامية:

المقامية أو الموقفية إحدى المعايير النصية المتعلقة بالسياق الخارجي للنص، و«يمثل مصطلح الموقفية (المقامية) تسمية عامة للعوامل التي تقيم الصلة بين النص وبين موقف لواقعة ما، سواء أكان موقفًا حاضرًا أم قابلًا للاسترجاع»[(١)].

«وهي تتضمن العوامل التي تجعل النص مرتبطًا بموقف سائد يمكن استرجاعه»[(٢)].

وقد سبق لنا في الفصل التمهيدي الحديثُ عن أهمية السياق في إثبات التماسك النصي، بحيث يكون من عدم الجدوى دراسةُ النص وإثباتُ تماسكه منعزلًا عن سياقاته، وفي الحقيقة فإن العلاقة بين المقامية والسياق علاقة متداخلة تداخلًا شديدًا لا يُستبعد معه أن يقال هما متطابقان معنى ومفهومًا ويشتركان في الخصائص الإجرائية وأبعاد التناول لكل منهما.

---

(١) مدخل إلى علم لغة النص، روبرت دي بوجراند، وولفالج دريسلر، د. إلهام أبو غزالة، علي خليل حمد، ص٢٠٩.

(٢) النص والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ترجمة تمام حسان، ص١٠٤.

وقد تأكد في الدراسات القديمة والحديثة» أن دراسة النص لن تكون كافية بالوقوف فقط عند بنيته النحوية أو الدلالة الداخلية، بل لابد من دراسته على مستوى الخطاب، وهذا يعني الاهتمام ببنية السياق والعلاقات بينها وبين النص»[1].

ولقد فطن العرب منذ وقت مبكر إلى أثر المقام والسياق في المنتوج اللغوي،وتأثيره كذلك في نجاعة التلقي وتحقيق مقصديته،كما فطنوا إلى أن مستويات الإنتاج اللغوي تختلف باختلاف الوسط الذي تُقال فيه، وكيفِ المخاطبين وطبيعتهم، وهو ما عُرف لدى يالبلاغيين والنقاد بـــ«المقام»، فبيئة الإنتاج اللغوي بما تشتمل عليه من ظروف وأشخاص هي الموجه لعملية الإنتاج اللغوي وتفهمه.

«ورغم أن النحاة شُغلوا بالمقال وأصوله التركيبية، إلا أنهم عنوا بالمقام الخارجي وما يحيط بالظاهرة اللغوية من ملابسات، تتصل بالمتكلم أو المخاطب أو ظروف الكلام»[2].

إن الموقف أحد العوامل الأساسية ذات الجزئيات المتعددة المسؤلة عن إفراز النصوص وفهمها أيضًا؛ ومن هنا كان الواجب على المتلقي ألا يفصل النص عن موقفه، وأن يتتبع الموقف بكل جزئياته ليمتلك من معطيات السياق آلةً للكشف عن معاني النص.

---

(١) مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، محمد الأخضرالصبيحي، الدار العربية للعلوم، بيروت،ط١، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م، ص٩٩.

(٢) دراسات في اللسانيات العربية، د. عبد الحميد مصطفى السيد، دار الحامد – الأردن،ط. أولى ١٤٢٤هـ ٢٠٠٤م، ص١٢٥.

وينقسم السياق من حيث وصفه الإطاري إلى:

السياق الداخلي: ويتمثل في العلاقات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية بين الكلمات في تركيب معين.

السياق الخارجي: «ويتمثل في السياق الاجتماعي، أو سياق الحال بما يحتويه، وهو يشكل الإطار الخارجي للحدث الكلامي»[1].

وبالنظر إلى السياق الداخلي بعدِّه مؤثرًا في دينامية النص واتجاهه، نجد أن البلاغيين قد سبقوا إلى الإشارة إليه بقولهم: «لكل كلمة مع صاحبتها مقام»، فقد تكلموا عن تجاور الكلمات بأوصافها الصوتية والصرفية والدلالية.. إلخ - وأثرِ ذلك التجاور في اكتساب معانٍ جديدة ودلالات للكلمات والجمل ومن ثَمَّ النصوص.

أما السياق الخارجي فإنه يفسر كون اللغة ظاهرة اجتماعية، أي أنها تعبر عن المجتمع التي تُتداول فيه، وتعد انعكاسًا وظلًّا له، بحيث إذا فُصلتْ عن واقعها الاجتماعي فقدت حياتها وما تحمله من دلالات وخليفات ثقافية.

وتدور دراسة «المقام» في التراث العربي القديم حول مقولة «لكل مقام مقال»، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال «وقد كانت فكرة المقام لدى البلاغيين مرتبطة بالبعد الزماني والبعد المكاني للكلام، حيث يقوم المتكلم بصياغة كلامه على وجه معين، فإما أن يتصل كلامه بمحل هذه الصياغة فيسمى المقام، وإما أن يتصل بزمان هذه الصياغة

---

(١) نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص الشعري، د.حسام أحمد فرج، مكتبة الآداب، القاهرة ط. الأولى ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، ص٢٢.

فيسمى «الحال»، فكل كلام لابد له من بعد زماني ومكاني يقع فيه، لذلك ارتبطت فكرة الحال والمقام بالمقال»[١].

ويبدو مما سبق أن العلاقة بين التداولية ومفاهيم الموقف والمقام، ونظرية الاتصال والنص علاقة وثيقة؛ لأن التداولية تدرس اللغة في أثناء عملية التواصل، وتشمل المعاني المجازية والاستعارية والكنائية، كما تشمل الدلالات المقامية، وتشمل كذلك الدلالات الإشارية، والتواصل تكتنفه العناصر الزمانية والمكانية، وهذه العناصر المقامية[٢].

بالإضافة إلى أنه قد ترجمت التداوالية بعدة ترجمات تعكس علاقتها الشديدة بعلم اللغة النصي[٣]، خصوصًا معياري القصدية والمقامية، وهذان المعياران بالذات يبرزان الترابط بين فهم رسالة النص وبين المقام الذي قيل فيه- فقد ترجمت إلى «الذرائعية والمقصدية، والمقامية،والتداولية، والتداولية أكثرها شيوعًا»[٤].

وإذا كانت الإحالة إحدى الوسائل المهمة والأساسية في تحقيق الترابط النصي، فإن سياق الموقف يعدُّ مؤشرًا إحاليًّا مهمًّا؛ إذ إنه يحيل إلى عناصر غير موجودة، أو موجودة

---

(١) علم اللغة النصي ودوره في شرح الحديث وفهمه، د. عاصم شحادة علي، المجلة العربية للدراسات اللغوية معهد الخرطوم الدولي للغة العربية ، العددان (٢٩- ٣٠) محرم ١٤٣٣هـ - ديسمبر ٢٠١١م.

(٢) اللسانيات، المجال والوظيفة والمنهج، د.سمير شريف استيتية، مكتبة عالم الكتب الحديث، إربد، جدارا للكتاب العالمي، عمان، ط.الثانية ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨، ص٢٨٨.

(٣) تشيع كلمة التداول في كتابات بعض اللغويين العرب المعاصرين، وم يستعملون هذه الكلمة للدلالة على مضمون كلمة pragmatics الإنجليزية، والحق أن التداول أعم من البراجماتية، فهو يشمل:
أولاً: المجاز والاستعارة والكناية، ويشمل ثانيًا الدلالات المقامية، ويشمل ثالثًا الدلالات الإشارية.
- «انظر» اللسانيات - المجال والوظيفة والمنهج، أ.د. سمير شريف استيتة، ص٢٨٩.

(٤) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، د.محمود نحلة، دار المعرفة الجامعية،إسكندرية،٢٠٠٢م ص٥٢.

غير أنها غير واضحة الدلالة، فيحيل السياق إلى العنصر المفقود أو الدلالة المفقودة، ومن هنا ارتبطت الموقفية بنظرية السياق ارتباطًا وثيقًا.

والتراكيب اللغوية تُكتسب في اللغات الإنسانية «إما عن طريق السياق وإما عن طريق الموقف التي يجري فيها تداول هذه التراكيب، وينجم عن كل طريق معنى خاص، فيقال هذا معنى سياقي، أي السياق هو الذي يقتضيه، ويقال هذا معنى تداولي، أي أن التداوال هو الذي يقتضي هذا المعنى»[١].

وكذلك ارتبطت الموقفية بالتداولية النصية؛ إذ يدخل ضمن دائرة تناولها «دور المتلقي والموقف وهدف النص والمقام ونوع المعلومات المطروحة، وأنواع التفاعل وأشكال السياقات، وكيفية التواصل، وغير ذلك مما يتعلق بالعلاقة بين العلامات ومستعملي هذه العلامات»[٢].

والبحث النصي في الحقيقة لا يتحقق إلا على مستويات ثلاثة أساسية، وهي: المستوى النحوي، والمستوى الدلالي، والمستوى التداولي بمفهومه الواسع له»[٣].

ويركز الاتجاه التداولي اهتمامه «بالعلاقة بين بنية النص وعناصر الموقف التواصلي المرتبطة به بشكل منظم، مما يطلق عليه سياق النص، ويأتي هذا ليغطي بطريقة منهجية منظمة المساحة التي أنتجت المقولة الشهيرة في البلاغة العربية لكل مقام مقال»[٤].

---

(١) اللسانيات، المجال والوظيفة والمنهج، د.سمير شريف استيتية، مكتبة عالم الكتب الحديث، إربد، جدارا للكتاب العالمي، عمان، ط.الثانية ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨، ص٢٨٨.

(٢) علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، ص١٤٧.

(٣) انظر علم اللغة النصي المفاهيم والاتجاهات، د.سعيد بحيري.

(٤) بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل، عالم المعرفة، الكويت ١٩٩٢، ص٩٨.

ويتلاقى هذا الاهتمام التداولي مع تعريف دي بوجراند للنص، فالنص «تشكيلة لغوية تستهدف الاتصال،..وليس من الضروري أن يتألف النص من الجمل وحدها، فقد يتكون النص من جمل أو كلمات مفردة أو أية مجموعات لغوية تحقق أهداف الاتصال»[١].

وكذلك «يتكون السياق التداولي من كل العوامل النفسية والاجتماعية التي تحدد نسقيا لكي تلائم أفعال اللسان، وتتمثل هذه الأفعال في المعرفة، الرغبات، أو الإرادة، والتفضيل، وحكم مستخدمي اللغة وانجازاتهم الاجتماعية من جهة أخرى»[٢].

وكذلك: «علم لغة النص لاينغلق على نفسه في محاولته معالجة النصوص، وإنما يأخذ في حسابه دائمًا مكتسبات العلوم الأخرى التي تهتم بالاتصال الإنساني كعلم النفس، وعلم الاجتماع، والأنثروبولوجيا، وعلم النفس المعرفي، والذكاء الصناعي وغيرها»[٣].

«إن النص بالإضافة إلى كونه مكونًا ثقافيا متغيرًا للتفاعل الاجتماعي، فهو – في ذاته– ظاهرة ثقافية يمكن للمرء أن يستخلص انطلاقًا منها بعض الاستنتاجات حول البنية الاجتماعية للجماعات الثقافية»[٤].

---

(١) مدخل إلى علم لغة النص، روبرت دي بوجراند، وولفالج دريسلر، د. إلهام أبو غزالة، علي خليل حمد، ص٩.

(٢) العلاماتية وعلم النص، ص١٧٢.

(٣) مدخل إلى علم لغة النص، روبرت دي بوجراند، وولفالج دريسلر، د. إلهام أبو غزالة، علي خليل حمد، ص٧.

(٤) العلاماتية وعلم النص، ص١٨٨.

وهذه البنيات الاجتماعية المستخلصة مرتكز أساسٌ في فك شفرات النص وتحليله تحليلًا مبنيًا على رؤية نصية شاملة.

فالموقفية بمعناه العام، الذي يندرج فيه السياق، وترتبط بالتداولية ونظرية السياق، هي المسؤلة عن إيجاد البعد الغائب في النص، سواءٌ أكان هذا البعد ثقافيًّا أو اجتماعيًا أو لغويًا أو انفعاليًا.

ومما يؤكد أهمية السياق في تحديد الأبعاد الغائبة في النص، تفريق القدماء بين التعجب غير القياسي بالنظر إلى جوانب سياقية، وكذلك التفريق بين أسماء الزمان والمكان، واسم المفعول من غير الثلاثي حسب السياق، واهتمام البلاغيين بظاهرة الحذف وأنواعها وما يترتب عليها من مظاهر جمالية، وتواصلية.

ففي أغلب الأحوال لا تكفي الوسائط اللغوية والنحوية لدمج البنيات الدلالية الصغرى في البنية الدلالية الكبرى، وإنما تؤدي العلاقات الدلالية، والزمانية، والمكانية، دوْرًا كبيرًا في دمج هذه العناصر، بعضها ببعض، وبعث روح التماسك والتلاحم، بين مكونات النص.

رأى شاكر أن الوقوف عند حدود اللغة وحده أو القواعد غير كافٍ في إماطة اللثام عن مراد الشاعر، ومقاصد شعره؛ فهناك شيء وراء ذلك يكفل إيضاح الأغراض، واكتمالَ بناء النصوص، وهو الموقف وسياقات الأحداث، وقد بيَّن شاكر أن من الأسباب التي أدت إلى وقوع الخطإ في تحليل القصيدة، هو الركون إلى العوامل اللغوية، وعزل بعض أبيات القصيدة عن سياقها، وعدم مراعاة موقفيتها، أو موقفية بعض أبياتها، يقول شاكر

«والعلة في ذلك كله – أي ما وقع فيه الشراح من الأخطاء – هو ما قلتُ لكَ من أنَّ أكثرَ الشُّرَّاح القدماء كانوا من أهل اللغة وأصحاب النحو وعلماء الأدب»[1].

أي يقفون عند حدود اللغة والنحو والأدب، دون أن يتجاوزها إلى السياق، وطبيعة الحال التي قيلت فيها، أو يقال فيها أمثال هذا القصيدة.

وكذلك فإن مراعاة الموقفية، التي يسميها القدماء المناسبة، ركن ركين في تحليل القصائد، وأيُّ خطإٍ في إدراكها، يتبعه ولابد خطأٌ في نتائج التحليل، يقول شاكر:«فمن الخطإ أن يقال إن هذا الشاعر قال قصيدته في «طلب الثأر» أو التحريضِ عليه؛ لأنه إنما قال أكثرها بعد أن أدرك ثأره في « هذيل «، لا قبل إدراكه، ومن الخطإِ أيضا أن يقال إنه قالها «يَرْثي خاله تأبَّطَ شرًّا»؛ لأنه لم يقصد قصدَ الرثاء،..»[2].

لأن المواقف التي تلابس هذه الأغراض تتابين وتتفاوت، ولكل موقف منها خصائصُ وأبعادٌ تناسب هذا الغرض بعينه، وتخالف غيره.

فالموقفية «مؤسسة على تحكُّم المقام في دلالات النص، أو رعاية الموقف للمقال – على حد تعبير دي بوجراند – الذي قرر ارتباط النص بجملة من العوامل تعلمه بموقف يمكن استرجاعه»[3].

وعلى مثل هذا من التنبه لموقفية القصيدة، والربط بينها وبين الغرض، يتمكن الباحث من الوقوف على تشكل الأغراض أو المقصدية أو الإعلامية.

---

(١) نمط صعب، ونمط مخيف، ص١٣٧..

(٢) المصدر نفسه، ص١٤٠.

(٣) المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب – دراسة معجمية: د.نعمان بوقرة، ص٣٠.

وهناك قضية أخرى مهمة، وهي قطب تدور حوله أركان الموقفية من أشخاص، لهم أدوار مختلفة، وعناصر زمانية ومكانية، تتمثل هذه القضية في تحقيق نسبة القصيدة إلى قائلها، وهي قضية ذات بعد اجتماعي موقفي، فمعرفة منتج النص، من هو؟ يكشف عن مضمون النص وغاياته وأهدافه، التي هي – بالأحرى – تُسهم في لمِّ شعَثه وتماسكه، وهو مؤثر كذلك في كشف مقصدية النص،والإعلامية، ومدى تحقق التناص،

وفي معنى ذلك يقول شاكر:«والاستهانة بأمر نسبة الشعر على صاحبه مضرٌّ، لأنه يدخل الخلط والفساد في تمييز شاعر من شاعر، وفي الكشف عن خصائص بنية كل شاعر في شعره»[1].

فالغفلة عن مثله، أو الخطأُ في تحقيقه يفسد عملية التواصل، ويلقي بمستقبِل النَّصِ في الحيرة في فهمه وحلِّ شفراته، لا سيما وأن الشعراء يلجئون في شعرهم إلى الإلماح الخاطف لمعاني ما يريدون، أو يشفِّرون في إنتاجهم لغرض ما، وهذا ما يسميه شاكر (مكر الشعراء).

وهناك موقفية أعم وأشمل من سابقتها، تتمثل في المعرفة بأحوال العرب في بيئتها، وطبيعة حياتها، وخصائصها الأسلوبية، وهو ما أشار إليه، واعتمد عليه «من المعرفة بأحوال العرب في جاهليتها، وما كانت تأخذ، وما كانت تدع من المعاني، وما كانت تألف مما يحيط بها في حياتها، في البادية وفي الحواضر، وبجمهرة الأساليب المختلفة التي يسلكها الشعراء في بناء القصيدة لبنة لبنة، حتى يستوي بناء قائمًا منضَّدًا»[2].

(١) نمط صعب، ونمط مخيف، ص٤٦.
(٢) المصدر نفسه، ص١٣٣-١٣٤.

والإحاطة بهذا النوع من الموقفية الخارجية، يسهم في تفسير النص تفسيرًا صحيحًا أو مقاربًا، ويكسب المتلقى القدرة المناسبة لكشف ما يحمله النص من الدلالات، وما توفره من إعلامية.

ومِن هذه الوِجهة، عاب شاكر على مَنْ توّهموا اختلال ترتيب القصيدة، وراموا ترتيبها وهم «لا يؤولون إلى علم صحيح بلسان العرب، ولا يؤلون إلى علم صحيحٍ بحياتهم في جاهلية ولا إسلام»[1].

وإذا كانت الموقفية مرتبطة بحال المنتج والمتلقي، كما عبَّرت عنه القاعدة البلاغية «لكل مقام مقال»، والذي يمكن أن نُطلق عليها الموقفية الداخلية؛ فلا ينسى شاكر أهمية هذا المؤثر، وتوافقه مع الحال الخارجي أو السياق الخارجي للموقف، تتمثل في الحالة الشعورية، التي يكون عليها الشاعر في أثناء تغنِّيه، تلك الحالة التي يتشكل النص مطابقًا لها ومعبرًا عنها، وتكون هي صانعةً ومكونة للنص، لأنه يكون مَعبرًا ناقلًا للشعور منها إلى الخارج، فيرى شاكر: «أن إلغاء الحالة التي يكون عليها الشاعر وهو يتغنى وإغفالها، يجعل الشعرَ ميتًا لا حِراك به، ومحال أن يستغرق الشاعرُ الصادق في غنائه، وهو على حالة من الإحساس، ثم لا يكون لهذه الحالة أثرٌ ظاهرٌ في اختيار لفظه، وفي تركيب كلامه»[2].

فالموقفية معيار كاشف، وآلة تحليل استطاع من خلاله بيانَ ترتب أبيات القصيدة، والتفريقَ بين فترات التغني وتميزها بعضها عن بعض، وهو في الحقيقة ربط بين التسلسل الزمني للقصيدة والسياق.

---

(١) نمط صعب، ونمط مخيف، ص٢٩٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٢٣.

ثانيا: التناص:

التناص أو التناصية أو النصوصية أو التداخل النصي، أو التعالق النصي، تلك هي المسميات التي أطلقها العلماء على تلك الظاهرة القائمة على على تفاعل نصوص سابقة تولدت في نصوص جديدة، عن طريق الاستدعاء والتحويل.

وهو مصطلح نقدي جديد، ظهر في ظل الاتجاهات النقدية الجديدة[1]، ويعني أن العمل الأدبي يُدرك في علاقته بالأعمال الأخرى، فالأدب ينمو في عالم ملئ بكلمات

---

(١) ١- **التّناص** INTERTEXTULTY: ظهر كمصطلح للمرة الأولى على يد جوليا كويستيفا عام ١٩٦٦ في مجلة (تل كل) TEL QUEL الفرنسية، وهي ترى أن «كل نصّ هو عبارة عن فسيفساء من الاقتباسات، وكل نصّ هو تشرّب وتحويل لنصوص أخرى».

٢- **التفاعل النصّيّ**: بين بنيتين: بنية النصّ، والبنيات النصّية، لا يكون مباشراً دائماً، فقد يكون ضمنياً عندما ينتج نصّ ما حاملاً صور نصوص أخرى من خلال تبنينه الجديد، و (التفاعل النصّي) مصطلح يؤثره بعض النقاد على مصطلح (التّناص).

٣- **البنيات النصّية**: حيث ينتج كل كاتب نصوصه ضمن بنية نصية معاصرة له، أو سابقة عليه.

٤- **التعالق النصي** HYPERTEXTUALITY: الذي يرى أن النصّ اللاحق يكتب النصّ السابق بطريقة جديدة.

٥- **المناصّ** PARATEXTE: وهو ما نجده في العناوين، والمقدمات، والخواتم، كلمات الناشر، والصور.

٦- **المصاحبات الأدبية** PARA LITERATURE: هي الاستشهادات الأدبية التى تدخل في بنية نصّية معينة،

٧- **التّناصّية**: هي مجموعة من العلاقات التى نراها بين النصوص، وهي تتجاوز قضية التأثر إلى أمور تتعلق بالبنية و النغم والفضاء الإبداعي.

٨- **المتناصّ** INTERTEXT: هو مجموعة النصوص التي يمكن تقريبها من النصّ سواء كانت ذاكرة الكاتب أو القارىء، أم في الكتب، وهو النصّ الذي يستوعب عدداً من النصوص، ويظل متمركزاً من خلال المعنى (لوران جيني)، بينما يناقش ريفاتير الخلط السائد بين (التّناص) و(المتناص) هو مجموع النصوص التي يمكن تقريبها من النصّ الموجود تحت أعيننا، أو مجموع النصوص التي نجدها في ذاكرتنا عند قراءة مقطع معين. =

الآخرين و(النص) تشكيل لنصوص سابقة ومعاصرة، أعيدت صياغتها بشكل جديد، وليست هناك حدود بين نص وآخر، وإنما يأخذ النص من نصوص أخرى، ويعطيها في آن واحد»[١].

ويدل المعنى المعجمي على معنى الاتصال، والتعالق والتماسك الذي يكون بين النصوص، وتداخلها معًا،فيقال «مفازةٌ تناصي مفازة، إذا اتصلتا»[٢]، وتناصى القومُ: أخذ بعضُهم بنواصي بعض في الخصومة «هبّتِ الريحُ وتناصتِ الأغصانُ: علَقت رءوس بعضها ببعض»[٣].

«والتناص –دلالةً– هو تشكيل نصّ جديد من نصوص سابقة أو معاصرة تشكيلاً وظيفيّاً، بحيث يغدو النّصّ المتناصّ خلاصةً لعدد من النصوص التي أمحت الحدود بينها، وكأنها حطام لمعدن ما، أو حطام لأنواع من المعادن أُعيد تشكيلها وصياغتها تشكيلاً جديداً بحيث لا يبقى بين النص الجديد وأشلاء النصوص السابقة سوى المادة، وبعض البقع التي تشير أو تومئ إلى النص الغائب، كأن تأخذ أشكالاً مختلفة من الزجاج

= ٩- **المتعاليات النصّية** TRANS TEXTUALITY: هي كل ما يجعل نصّاً يتعالق مع نصوص أخرى، بشكل ضمني أو مباشر، وقد خصص لها جيرار جينيت كتاباً بأكمله سماه: PALIM PSESTES.SEUIL PARIS١٩٨٣ حدد أنماط (المتعالقات النصّية) في خمسة أنواع هي: النصّ و معماره، والتّناص، والميتانصّية، والمناصّة، والتعلق النصّي، وهذه الأنواع تتداخل فيما بينها، انظر النص الغائب، ص٣٠، ٣١.

(١) النص الغائب، تجليات التناص في الشعر العربي، د. محمد عزام ، ص١١.

(٢) الإبانة في اللغة العربية، لأبي المنذر سلمة بن مسلم بن إبراهيم الصحاري العوتبي، تحقيق د. عبد الكريم خليفة، د. نصرت عبد الرحمن، د. صلاح جرار، د. محمد حسن عواد، د. جاسر أبو صفية، وزارة التراث القومي والثقافة – مسقط – سلطنة عمان، ط الأولى، ١٤٢٠ هـ ، ١٩٩٩م.

(٣) معجم اللغة العربية المعاصرة، د أحمد مختار عبد الحميد عمر بمساعدة فريق عمل، عالم الكتب القاهرة، ط الأولى، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م.

المحطّم وما يقاربه ويتفاعل معه، ثم تعيد صهرها لتصنع منها مادة جديدة وأشكالاً جديدة، ولذلك يدخل الشعري في اللاشعري، ويتفاعل معه، ويتضامّ ويتواشج ويتعاقد ويتناسل، حتى يغيب الأصل غياباً لا يدركه سوى أصحاب الخبرة»[1].

وهو بهذه الكيفية ذو أهمية كبيرة في تماسك النص وترابطه؛ لأن انصهار النصوص السابقة في اللاحقة وتكوّنها في صورة جديدة يؤدي إلى عملية تمازج وتداخل – واعية أو غير واعية – لا يدركها إلا أصحاب الخبرة بنصوص سابقة.

وهكذا يتفاعل النصان:(الغائب) و(الماثل)، من أجل إنتاج (نص) جديد يشكل في الوقت نفسه (تناصًّا)مع مكنونات الثقافة والقارئ»[2].

وتكمن أهمية التناص في التحقيق الكمِّي والكيفي للدلالة، فمن خلالها يستطيع القارئ العبور إلى معانٍ غائبة، أو فكِّ معانٍ مغلقة الدلالة، ويكون المرجع في ذلك هو الخبرة المعرفية والثقافية للقارئ، التي تمكنه من استكشاف الدلالات المبهمة.

والتناص في هذا التصور يمثل ضربًا من آلية لغوية مشتركة بين الكاتب والقارئ قادرة على تقديم التأويل والتفسير»[3].

وتجدر الإشارة إلى التفريق بين السرقات الشعرية التي تكلم عنها النقاد، وبين التناص باعتباره سمة نصية ذات قيم متعددة.

---

(١) التناص والإجناسية في النص الشعري، د. خليل الموسي، مجلة الموقف الأدبي، العدد ٣٠٥، أيلول ١٩٩٦م.

(٢) النص الغائب، تجليات التناص في الشعر العربي: د. محمد عزام، ص١٢.

(٣) التناص في الشعر العربي الحديث: البرغوثي نموذجًا، حصة عبد الله سعيد البادي، دار كنوز المعرفة، عمان، ط.٢٠٠٨م، ص٨.

فقد حاول بعض العلماء إدراج بعض الظواهر اللغوية المعروفة في التراث البلاغي والنقدي تحت معيار التناص، هادفًا إثباتَ تجذر هذا المعيار في التراث، لكن في مظاهرَ متعددة، وكان على رأس هذا الظواهر –وهي في الحقيقة قريبة الشبه – ظاهرة السرقات الشعرية.

لكن الفاحص المدقق لا يخفى عليه فرقُ ما بينهما، فقد أنكر د.خليل موسى تطابق هاتين الظاهرتين، وصرَّح بوجوه الخلاف بينهما،، ولم يفتْه أن يذكر وجه الاتفاق الذي به قد يُرَيان متطابقين، حيث يقول: «يتركّز الاتفاق بين المفهومين في أنهما ينتميان إلى حقل واحد هو حقل النقد الأدبي، وأحد المفهومين «السرقات الشعرية» ينتمي إلى حقل نقدي عربي قديم، والآخر «التناص» ينتمي إلى حقل نقدي أوربي معاصر، والسرقات معيار للتهجين والاستنكار استُنتج من قراءة الشعر العربي، أما التناص فهو معيار نقدي للمدح والاستحسان استُنتج من قراءة الأدب الأوروبي، وهما يعتمدان على مبدأ الأسبقية.

وتتركز وجوه الاختلاف في ثلاثة تفصل فصلاً حادّاً بين المفهومين:

أولها اختلاف المنهج، فالسرقات تعتمد المنهج التاريخي التأثري والسبق الزمني، فاللاحق هو السارق، والأصل «الأول» هو المبدع والنموذج والأجود، وفي هذا يقترب هذا المفهوم من تقديس القديم،وعمود الشعر، وتفضيل السابق على اللاحق، في حين أن التناص يعتمد المنهج الوظيفي،ولا يهتمّ كثيراً بالمرجع أو النص الغائب إذا كان النص الجديد قد امتصّ وحوّل وظيفيّاً النص القديم.

والاختلاف الثاني: بين المفهومين في حكم القيمة، فحين يذكر الناقدُ السرقاتِ الشعريةَ، يريد منها تهجين السارق واستنكارَ عمله وإدانتَه، في حين أن نقيض ذلك هو

المراد من التناص، والناقد يدلّ إلى أن الآخذ مثقّف مطّلع ماهر في نسجه، وعمله هذا إنتاجي وإبداعي، وشتّان ما بين الحكمين.

والاختلاف الثالث: يكمن في عملية القصدية، فعملية الأخذ في السرقات الشعرية قصدية واعية، ولذلك سُمّيت «سرقات»، في حين أن عملية الأخذ في التناص لا واعية، لأنه ينتج القراءة المطموسة والمنسية (الأثريةً)[1].

وفي النهاية فإننا نستطيع القول بأن «كل نص إنما هو هو تشرُّب وتحويل لجملة من النصوص السابقة، وهذه النظرة الإيجابية لمفهوم النص عززت موقف التناص في الدراسات النقدية الحديثة، فأخذ التناص فيها منحًى إيجابيًا، بعد أن تخلص من تلك النظرة ذات الطابع الأخلاقي التي رافقته في العصور القديمة، تلك النظرة التي وصمته بأنه ضرب من السرقة »[2].

السطو والتناص رؤية شاكرية:

كانت قضية السطو إحدى القضايا النابتة عن «قضية الشعر الجاهلي»، وعلى الرغم من كونها نابتةً عنها ومتفرعةً منها، إلا إنها كانت صاحبة أثر كبيرٍ في شاكر، ومنهجه.

بدأت هذه القضية، عندما ألقى د. طه حسين محاضراتِه عن الشعر الجاهلي، وذهابه إلى أنه منحول مصنوع، صنعه أناس مسلمون، ونسبوه للجاهلية كذبًا وزورًا، ولم يكن هذا الرأيُ متولدًا من قريحة طه حسين – كما مرَّ آنفا –، إنما كان رأيًا للمستشرق «مارجليوث»، فأخذه «طه حسين»، ونسبه إلى نفسه دون إشارة إلى صاحبه!!

---

(١) التناص والإجناسية في النص الشعري، د. خليل الموسي، مجلة الموقف الأدبي، العدد ٣٠٥ أيلول ١٩٩٦م.

(٢) التناص في الشعر العربي الحديث: البرغوثي نموذجًا، حصة عبد الله سعيد البادي، دار كنوز المعرفة، عمان ط٢٠٠٨م، ص٧– ٨.

يقول شاكر:«أما القضية الثانية التي نشأت عندي أنا،.وكانت محاضرات الدكتور سببًا في نشأتها يوم كنت طالبًا عنده في الجامعة، فهي «قضية السطو»على أقوال الناس وآرائهم وأعمالهم، ثم ادِّعاء تملكها تملك عزيز مقتدر، ثم الاستعلاء بهذا الملك المغصوب والاستطالة به على الناس»[1].

يقول وقد كان يتابع المحاضراتِ إذ كان طالبًا في الجامعة:«وكل يوم أقول لنفسي عسى، ولعل! وأتوقع أن يذكر الدكتور طه، اسمَ مرجليوث مرة، وينسب إلى الرجل رأيَه في «مسألة الشعر الجاهلي»، مجرد إشارة ! وذهب توقعي باطلًا هذرًا، لم أسمع منه إلا «انتهى البحث» ثم «انتهى البحث»، «ثم انتهى البحث» وإذا كل شيء منه هو يبدأ، وإليه هو ينتهي! كيف يكون هذا «والمتن»أمامي- يقصد مقال مارجليوث -أقرؤه بعينين مبصرتين، وكل شيء يقوله الدكتور طه من هذا المتن وحده يبدأ وإليه وحده ينتهي»[2].

وكانت هذه القضية هي السببَ في مفارقة شاكر للجامعة، لما أعملته في نفسه، وأزالت وأقامت.

فهل كان شاكر يرى السطو مرادفًا للتناص؟...وهل كل تناصٍّ معدودًا سطوًا؟

قد يبدو الأمرُ متداخلًا يصعب لملمة جزيئاته، لتتضح صورته جليةً، لكنه بشيء من التدقيق والتأمل لإنتاج شاكر نظرًا وتطبيقًا، نستطيع أن نجد فارقًا يوضح رؤيته لهما، وتفريقَه بينهما.

(١) المتنبي ليتني ما عرفته، محمود محمد شاكر عام ١٩٧٨م بمجلة «الثقافة» العدد ٦٠.
(٢) المصدر نفسه.

وهذا الفارق نوعانِ، نظريٌّ، وتطبيقيٌّ:

١- الفارق النظري: ويتمثل في أمرين، ما عرَّف به السطو، وما نقله مؤيدًا، ويعدُّ إقرارً للتناص.

١- فأما تعريفه للسطو، فقولُه «السطو على أقوال الناس وآرائهم وأعمالهم، ثم ادِّعاء تملكها تملك عزيز مقتدر، ثم الاستعلاء بهذا الملك المغصوب والاستطالة به على الناس».

فبادٍ أن «السطو» يرادفة «السرقة»، كما عرَفتها الدراساتُ البلاغية، وتعني السرقة والانتهاب، وانتحال أعمال الناس، عن علم وتعمد،ونسبتها للنفس،فهذا بعضُ ما تحمله كلمة «السطو» من دلالة لدى شاكر.

٢- وأما ما نقله مقررًا، فهو قول الدكتور فؤاد زكريا من كتابه «التفكير العلمي» و«الوجه الآخر لموضوع النقد هذا هو أن نعترف بفضل الآخرين على أعمالنا، فنحن ندين لمن نقرأ لهم بقدر كبير من معارفنا، بل إن كثيرًا من أفكارنا الشخصية التي يبتدعها كلٌّ منَّا، وفي ذهنه أنه مصدرها الوحيد، لا تُثار في أذهاننا إلا لأن قراءة بحثٍ أو كتابٍ معيَّنٍ، قد أوحى إلينا بها، ولو بصورة غير مباشرة»[(١)].

فهذا النقل بذاته، كافٍ في الدلالة على الإقرار الضمني بالتناص، كما هو معروف في علم اللغة النصي.

ومثله في الوضوح، وذكره الأستاذ مُقِرًّا به، ما نقله عنه في المقال نفسه، عن توثيق الإحالات والإقتباسات، وسبق الغرب لنا في ذلك، يقول الدكتور فؤاد زكريا:

(١) المتنبي ليتني ما عرفته: محمود محمد شاكر عام ١٩٧٨م بمجلة «الثقافة» العدد ٦٠.

«أما الإشارة إلى الاقتباسات من المراجع الأخرى، فقد أصبحت تقليدًا ثابتًا (يقصد في الغرب) لا يخالف فيه أحد.

وفي هذه الحالة بدورها، نجد أن هذا التقليد الجليلَ، لم يستقرَّ في بلادنا تمامَ الاستقرار، بل إن مخالفته قد تتخذ في بعض الأحيات أبعادًا مؤسفةً، كما يحدث في حالات «السطو» على أعمال الآخرين التي ينسبها المرءُ إلى نفسه دون وازعٍ من ضمير»[1].

وقد تضمن هذا الكلامُ كذلك، موافقة الدكتور زكريا للأستاذ شاكر في معنى «السطو».

٢- الفارق التطبيقي: ويتمثل فيما طبقَّه شاكر على القصيدة، موضوعِ الدراسة، حينَ وظّف التناص، كآلية لأثباتِ معانٍ، به يظهر اتساق القصيدة وتماسكها،وانسجام معانيها، وتحقق أهداف عملية التواصل.

ومثل هذا نجده في قول الشاعر:

بَـزَّنِـي الـدَّهـرُ، وَكَـانَ غَـشُـومًـا، بِـأَبِـيِّ، جَـارُهُ مَـا يُـذَلُّ

يقول شاكر:«قال «بزني»، ولم يقل «غالني»، ولا «فجعني»، ولا شيئًا مما ينطق فالفجيعة والبكاء، بل ما هو إلا «بزَّه»، أي «سلبه سلاحه» وانتزعه الدهرُ منه انتزاعًا،... كما ينتزع المقاتلُ «بزَّ المُقاتل» وهو سلاحه كلُّه يدخل فيه درعه ومغفره وسيفه،..»[2].

ثم يقول: ولما قال «بزَّني»، أعلمنا أن الهالك كان له سلاحًا يتقي به، ويدفع عن نفسه أو يقاتل،..كما فعل «أبو كبير الهُذَلي «حين وصف خال الشاعر نفسَه من قبلُ، وكان

(١) المتنبي ليتني ما عرفته: محمود محمد شاكر عام ١٩٧٨م بمجلة «الثقافة» العدد ٦٠.
(٢) نمط صعب ، ونمط مخيف، ص١٥٤

أبو كبير «قد تزوج أمَّ «تأبَّطَّ شرًّا»، وربَّاه حتى استوى، فخرج معه في غزاة، فوصف ربيبَه في هذا وصفًا رائعًا في لاميَّتِه الشاخة المشهورة، فقال:

ولَـقَـدْ سَـرَيْـتُ عـلَـى الـظَّـلامِ بِمِعْشَمٍ، جَلْدٍ من الفِتْيانِ غَيْرِ مُهَبّلِ

حتى ذكر صحبته له فقال:

وَمَـعِـي لَـبُـوسٌ للبَئِيسِ،كأَنَّه رَوْقٌ بِجـبْـهـةِ ذِي نِـعَـاجٍ مُجْـفِـلِ

فجعله لبوسًا «وهو سلاح المحاربُ الجريءُ الفاتِكُ ذو البأْسِ،..»[1].

وفي قول الشاعر «مُدِلُّ»يقول: «فقد أساء الناس فهمَه»، وتبعوا في ذلك المرزوقي حين فسَّرَه بأنه «الواثقُ بنفسه وآلاته وعدَّته وسلاحه»،..وإنما «المدلُّ» هنا من قولهم «أدلَّ البازي على صيده» إذا انقضَّ عليه هاويًا من جو السماء، وأخذوا منه في صفة المحارب، إذا انقضَّ على قِرْنِه انقضاضًا، فأطبق عليه من فوق وصرعه،..ووصفَ أبوكبير الهُذَلي، تأبَّطَّ شرًّا نفسه.. فقال:

وَإِذَا رَمَـيْـتَ بـه الـفِـجـاجَ، رأيتَه يَـنْـضُـوا مَـخَـارَمَـهـا، هُـوِيَّ الأَجْـدَلِ

...و «ينضو» يقطعها ويجتازها ويخرج من بينها إلى فضاءٍ فسيحٍ،..و«الأجدل»، صفة غالبة على الصقر والبازي، كأَنَّه جُدل جدْلًا، أي فُتِل جسمه فتلًا شديدًا، و«الهُوي «الانحطاطُ السريع من علوٍّ إلى سفل»[2].

بل إنه يصرِّح بالتناص فيقول:«فما قاله أبوكبير في صفة ربيبه تأبطَّ شرًّا، هو نفسه ما قاله شاعرُنا في صفة خاله تأبَّطّ شرًّا»[3].

---

(١) نمط صعب ، ونمط مخيف، ص١٧٢.

(٢) المصدر نفسه، ص١٨٢-١٨٣.

(٣) نمط صعب، ونمط مخيف، ص١٨٣.

ومما سبق يتبين لنا وضوح فكرة التناص في منهج شاكر، بصورتيه النظرية والعملية، وتفريقُه بينَه و بين السرقات «السطو».

وتجدر الإشارة إلى أن توظيف التناص للكشف عن المعاني الشعرية وشرحها، لم يكن شاكر فيها بدْعًا من النقاد، بل إن ذلك الأصل ممتدٌّ في النقد العربي، توسل به النقاد والشراح للكشف عن معاني الشعر، بالوقوف على مرجعيتها، فقد" استطاع هذا الفريق أن يكشف عن السند المرجعي لتلك الأشعار التي فسرها، وأبان عن غريبها، انطلاقا من أن عملية استيعاب النص، لا تتم إلا بالكشف عن هذا النص، وتخريج معانيه، وتحديد نصوصه المرجعية، ويكون مسعى النقاد هو التعامل مع النص كشبكة فنية متداخلة، كدائرة متعددة الحلقات،.. وهذا ما يفتح أمام الناقد آفاقًا واسعة في ممارسته، ويشترط فيه ثقافة واسعة، واطلاع على النصوص المرجعية للنص المدروس، وتجليات هذا النص في نصوص أخرى.

لقد استطاع الكثير من الشراح التقرب من النص الشعري وُفق هذا المنظور، على الرغم من أن هذه الطبقة من الدارسين خصوصا، والنقاد القدماء عموما، كانوا يعالجون النص وفق نظرة جزئية، لم تتعدَّ وحدة البيت الشعري[1].

تلخص مما سبق صورة لملامح المعايير النصية التي اشتمل عليه منهج محمود شاكر، وهي ملامح تعطي صورة لوجود الفكرة النصية في التراث والاعتداد بها.

(١) أدوات النص: دراسة محمد تحريشي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٣، ص٥٦.

مما يؤيد قول د. نعمان بوقرة: «الحضارة العربية نصية في مبدائها»[1]، وقول محمد الأخضر الصبيحي بأن «البحث في الاتساق الداخلي للنصوص كان موضع اهتمام أكثر من باحث لغوي قديم إلى درجة يمكن معها الكلام عن (علم نص عربي)»[2].

وعلى الرغم من كونها لم تطابقها في تصورها، وتنظيرها، وإجراءتها، إلا أنها اشتملت على أصول الفكرة، وتطبيق بعض اجراءتها في التصور المعاصر.

وقد أمكن تتبع ملامح وظائف علم اللغة النصي وخصائصه، في منهج محمود شاكر من خلال معرفة وظائف علم اللغة النصي والمقارنة بينه و بين ما قام به محمود شاكر من تحليل للقصيدة، منطلقًا من فكرة نصية كلية، ترى أن النص الصحيح، هو النص المتماسك، تترابط أجزاؤه وتتلاحم منسجمة، تخدم الدلالة الكلية، والدلالات الجزئية، المشتمل النص عليها، والداعمة للدلالة الكبرى.

مع الأخذ في الاعتبار، أن مهام علم اللغة النصي تتلخص في «دراسة الخواص التي تؤدي إلى تماسك النص، وتعطي عرضا للمكونات المنظِمة لنماذجه النصية، وقد تكون هذه المكونات مبعثرة غير خاضعة لمنطق التنظيم النحوي المألوف، ويكون حينها واجبًا على المحلل استكشاف الخيط الحريري الناعم الذي يربط بينها ليشكل منها نسيجًا متميزًا»[3].

(١) المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب – دراسة معجمية، د.نعمان بوقرة، ص١١.
(٢) مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه: محمد الخضر الصبيحي، ص١٣٨.
(٣) المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب – دراسة معجمية، د.نعمان بوقرة، ص٣١.

النتائج

وفي النهاية، فقد توصل البحث إلى النتائج التالية:

-وقف البحث على ثراء الإنتاج التراثي، وما احتواه من أسس النجاح التواصلي بأشكاله التداولية والنصية والاتصالية.

- كما وقف على مظاهر الالتئام والاتساق بين االنصوص من منظور عربي، ُممثلًا في منهج شاكر، في صورة جامعة بين الأصالة والمعاصرة، وبين التجديد والتراث، باعتبار ذلك مقومًا من مقومات العربية، وركيزة من ركائزها.

- كشف البحث عن الملامح النقدية والألسنية الحديثة للتراث العربي، كما يُعدُّ محاولة لتفسير النتاج التراثي في ضوء مفاهيم علم اللغة العام وما تفرع عنه من علوم.

- وقف البحث على تكامل النظريات الألسنية الحديث مع المناهج التراثية، وانصهار مبادئها في ضمن إجراءات المناهج العربية الأصيلة.

- اتخذ البحث آليات التنظير والتطبيق، للوقوف على أهداف الأطروحة، وتحقيق غاياتها، وكيفية توظيف محمود شاكر للمعايير التي تجعل من نصٍّ ما نصًّا متماسكًا، واتخاذ الأدوات النصية بصورتها التراثية وسيلةً للإجابة على أسئلة «يحي حقي»، والردِّ على دعوى افتقار القصيدة العربية للوحدة العضوية.

- حاولت الدراسة البحث عن جذور المعايير النصية في التراث العربي، لتحدث نوعا من المشاكلة والتناغم بين مبتكرات علم اللغة الحديث والتراث.

- أثبت البحث أن الفكر النصي بصورتيه الإجمالية والتفصلية موجود في منهج محمود شاكر، إلا أن الجانب التفصيلي أقلُّ تطابقًا منه في علم اللغة النصي.

- وأثبتَ كذلك أن المعايير والخصائص والوظيفة منسربة في منهج شاكر، وأنها وإن لم تبدُ واضحة قائمة، كما هي في علم اللغة النصي، فإنها وُجدتْ وجودًا كليًّا في المنهج بعيدة عن التفاصيل التي استقرت عليها في علم اللغة النصي.

المصادر

١- أباطيل وأسمار، محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي - القاهرة ط. الثالثة ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

٢- أدوات النص، محمد تحريشي، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٠٣م.

٣- الإبانة في اللغة العربية، لأبي المنذر سلمة بن مسلم بن إبراهيم الصحاري العوتبي، تحقيق د. عبد الكريم خليفة، د. نصرت عبد الرحمن، د. صلاح جرار، د. محمد حسن عواد، د. جاسر أبو صفية، وزارة التراث القومي والثقافة - مسقط - سلطنة عمان ط الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.

٤- إشكالية الذوق الفني عند محمود محمد شاكر، خليفة بن عربي، صفحات للدراسات والنشر، ط. أولى ٢٠١١م.

٥- إشكاليات النص دراسة نصية، د.جمعان بن عبد الكريم، المركز الثقافي العربي، ط.الأولى ٢٠٠٩م.

٦- اجتهادات لغوية، د. حسان، عالم الكتب - القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م

٧- استقبال النص عند العرب، د. محمد المبارك، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٩م.

٨- آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، د.محمود نحلة ، دار المعرفة الجامعية ٢٠٠٢م.

٩- آفاق اللسانيات – دراسات – مراجعات – شهادات، تكريما للأستذ الدكتور نهاد الموسى، مركز دراسات الوحدة العربية، ط.أولى ٢٠١١

١٠- البديع بين البلاغة العربية وواللسانيات النصية، د. جميل عبد المجيد، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٩٨م

١١- البيان والتبين، أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط. السابعة ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م

١٢- بلاغة الخطاب وعلم النص، د. صلاح فضل، عالم المعرفة –الكويت،ط. ١٩٩٢م.

١٣- بناء لغة الشعر، جون كوين، ترجمة وتعليق د. أحمد درويش، دار المعارف، القاهرة،ط. الثالثة.

١٤- التداولية عند علماء العرب – دراسة تداولية لظاهرة «الأفعال الكلامية « في التراث اللساني العربي، د.مسعود صحراوي، دار الطليعة،بيروت، ط. الأولى ٢٠٠٥م

١٥- التداولية من أوستن إلى غوفمان، فيليب بلانشيه، ترجمة صابر الحباشة، دار الحوار، سورية، ط.الأولى ٢٠٠٧م.

١٦- تفسير الماوردي المسمَّى بـ«النُّكت والعيون» تحقيق خضر محمد خضر، دار الصفوة، القاهرة، ط.الأولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

١٧- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس.

١٨- التحليل اللغوي للنص مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج، كلاوس برينكر، ترجمة وتعليق د. سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار القاهرة الطبعة الثانية ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٠م .

١٩- تحليل الخطاب الشعري، إستراجية التناص، د.محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثالثة ١٩٩٢م.

٢٠- التناص في الشعر العربي الحديث: البرغوثي نموذجًا، حصة عبد الله سعيد البادي، دار كنوز المعرفة، عمان، ط.٢٠٠٨م.

٢١- التناص في شعر الرواد، أحمد ناهم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ط.الأولى ٢٠٠٤م.

٢٢-تأويل الجملة القرآنية الواحدة، د. نوار محمد إسماعيل، دار الراية للنشر، الأردن، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

٢٣- تقنيات الاتصال التعليمي في القرآن والسنة، عبد العظيم عبد السلام الفرجاني دار غريب ٢٠٠٠م.

٢٤- تقويم النظر في مسائل خلافية ذائعة، ونبذ مذهبية نافعة، أبو شجاع محمد بن علي بن شعيب بن الدهان، تحقيق د. ناصر بن ناصر الحزيم، مكتبة الرشد،السعودية، ط. أولى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٢٥- جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر، جمع وتقديم د. عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي ط. الثالثة ٢٠١٣م.

٢٦- جوليا كريستيفا: علم النص، ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال، الدار البيضاء، الطبعة الأولى،١٩٩١م.

٢٧- دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى أديب العربية أبي فهر محمود محمد شاكر، بمناسبة بلوغه السبعين، مجموعة مؤلفين، دار المدني، القاهرة ١٤٠٣هـ.

٢٨- دراسات في اللسانيات العربية، د. عبد الحميد مصطفى السيد، دار الحامد - الأردن، ط. أولى ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

٢٩- دراسات في النص والتناصية - ترجمة وتعليق د. محمد خير البقاعي، مركز الإنماء الحضاري -حلب ط.أولى ١٩٩٨م.

٣٠- دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر الجرجاني، تحقيق وتعليق أ.محمود شاكر، مكتبة الخانجي -مطبعة المدني ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

٣١- دينامية النص تنظير وانجاز، د.محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي.

٣٢- رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م «ضمن كتاب المتنبي».

٣٣- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل محمود الآلوسي، دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان.

٣٤- سمط اللآلي في شرح أمالي القالي، أبو عبد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي، تحقيق عبد العزيز الميمني، دار الكتب العلمية -بيروت - لبنان.

٣٥- شرح مختصر الروضة، سليمان بن عبد القوي بن الكريم الطوفي، وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد - السعودية، ط الثانية ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٣٦- شفرات النص دراسة سيميولوجية في شعرية القص والقصيد، د. صلاح فضل، عين للدراسات والبحوث - القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

٣٧- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حمّاد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين ط. الرابعة ١٩٩٠م.

٣٨- صناعة المعنى وتأويل النص، محمد عبد العظيم - منشورات كلية الآداب بمنوبة ١٩٩٢م.

٣٩- الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

٤٠- العلاقات النصية في القرآن الكريم، د. أحمد عزت يونس، دار الآفاق العربية القاهرة، ط. الأولى ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.

٤١- العلاماتية وعلم النص، إعداد وترجمة د، منذر عياشي، المركز الثقافي العربي المغرب ط. الأولى ٢٠٠٤م.

٤٢- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق. محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل - ط. الخامسة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٤٣- علم الدلالة، أحمد مختار عمر، عالم الكتب ط. الخامسة ١٩٩٨م.

٤٤- علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي، أد. هادي نهر، دار الأمل، الأردن الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٧.

٤٥- علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، د. صبحي إبراهيم الفقي، دار النابغة القاهرة ط. الأولى ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م.

٤٦- علم اللغة النصي،رسائل الجاحظ نموذجًا، د. رانيا فوزي عيسى، دار المعرفة الجامعية ط٢٠١٤.

٤٧- علم اللغة النصي المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد حسن بحيري، الشركة المصرية اللعالمية للنشر - لونجمان، ط. أولى ١٩٩٧م.

٤٨- علم النص مدخل متداخل الاختصاصات، تون أ. فان دايك، ترجمة وتعليق د.سعيد بحيري، دار القاهرة للكتاب الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

٤٩- علم لغة النص نحو آفاق جديدة، ترجمة د. حسن سعيد بحيري، مكتبة زهراء الشرق - القاهرة ط. أولى ٢٠٠٧م.

٥٠- علم لغة النص والأسلوب، د.نادية النجار، مؤسسة حورس الدولية، الطبعة الأولى ٢٠١٣م.

٥١- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط. الثانية ٢٠٠٠م.

٥٢- في بناء النص ودلالته (محاور الإحالة الكلامية)، مريم فرنسيس، منشورات وزارة الثقافة بسوريا - دمشق ١٩٩٨م.

٥٣- في بناء النص ودلالته (نظم النص التخاطبي - الإحالي)، مريم فرنسيس، منشورات وزارة الثقافة بسوريا - دمشق ٢٠٠١م.

٥٤- في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية آفاق جديدة، د. سعد المصلوح، عالم الكتب، القاهرة ط الثانية ٢٠١٠م.

٥٥- قراءة النص..تأصيل نظري وقراءات تطبيقية، د. عبد الرحيم الكردي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، الأولى ٢٠١٣م.

٥٦- قراءة النص وجماليات التلقي بين المذاهب الغربية الحديثة وتراثنا النقدي دراسة مقارنة، د. محمود عباس عبد الواحد، دار الفكر العربي - القاهرة ط أولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

٥٧- قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلَّام، محمود محمد شاكر، مطبعة المدني مصر، ط. الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٥٨- كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري، تحقيق على محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط. أولى، ١٣٧١هـ / ١٩٥٢م.

٥٩- لذة النص، روان بارت، ترجمة منذرعياشي، مركز الإنماء الحضاري، ط.أولى ١٩٩٢م.

٦٠- اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة - دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته، د. حافظ إسماعيلي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط. أولى ٢٠٠٩م.

٦١- اللسانيات - المجال والوظيفة والمنهج، أ.د. سمير شريف استيتة، جدار للكتاب العالمي ط.ثالثة ١٤٢٩ هـ/ ٢٠٠٨م.

٦٢- لسان العرب، لابن منظور، ط.دار الحديث- القاهرة،١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

٦٣- لسانيات النص النظرية والتطبيق، ليندة قيَّاس، مكتبة الآداب، القاهرة ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

٦٤- لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، محمد خطابي، المركز الثقافي الغربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٩٩١م.

٦٥- اللغة الشعرية في الخطاب النقدي العربي، محمد رضا مبارك، دار الشؤون الثقافية - بغداد ١٩٩٣.

٦٧- مباحث تأسيسية في اللسانيات، د. عبد السلام المسدي، دار الكتاب الجديد المتحدة - بيروت، ط. أولى ٢٠١٠.

٦٨-المتنبي «محمود محمد شاكر، شركة القدس، مصورة من طبعة مكتبة الخانجي القاهرة، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧م.

٦٩- محمود محمد شاكر، الرجل والمنهج «حسن القيام دار البشير - مؤسسة الرسالة، بيروت، ط.الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٧٠- محمود محمد شاكر،..سيرته الأدبية ومنهجه النقدي، د. إبراهيم الكوفحي، مؤسسة الرسالة، دار البشير، ط. أولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٧١- مدخل إلى علم لغة النص، فولفجانج هاينه من و ديتر فيهفيجر، ترجمة د.سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق - القاهرة ط. أولى ٢٠٠٤م.

٧٢- مدخل إلى علم لغة النص، فولفجانج هاينه من وديتر فيهفيجر، ترجمة د. فالح بن شبيب العجمي، الناشر جامعة الملك سعود ١٤١٩هـ.

٧٣- مدخل إلى علم النص مشكلات بناء النص، زتيسسلاف وأورزنياك، ترجمة وتعليق د. سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، القاهرة الطبعة الأولى١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م.

٧٤- مدخل إلى علم لغة النص، روبرت دي بوجراند، وولفالج دريسلر، د. إلهام أبو غزالة، علي خليل حمد، دار الكاتب، القاهرة، ط. أولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

٧٥- مدخل إلى علم النص ومجـالات تطبيقه، محمد الخضر الصبيحي، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٧٦- مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار، محمد طاهر الصديقي الفتني الكجراتي، مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد - الهند ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

٧٧- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة ط.الرابعة ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٧٨- معجم اللغة العربية المعاصرة، د. أحمد مختار عبد الحميد عمر بمساعدة فريق عمل، عالم الكتب، ط الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

٧٩- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد ابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون دار الفكر ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٨٠- المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب - دراسة معجمية، د.نعمان بوقرة، عالم الكتب الحديث، جدار للكتاب العالمي، ط. الأولى ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٩م.

٨١- معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة، محمد بن حسين بن بن حسن الجيزاني، دار ابن الجوزي، السعودية، ط.الثامنة ١٤٣٠هـ.

٨٢- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام الأنصاري، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع،القاهرة ٢٠٠٥م.

٨٣- مقالات د. محمود محمد الطناحي «صفحات في الراث والتراجم واللغة والأدب «دار البشائر الإسلامية -بيروت - ط. أولى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

٨٤- من نحو الجملة إلى نحو النص، د.سعد المصلوح، جامعة الكويت، الكتاب التذكاري بقسم اللغة العربية، ط١٩٩٠، ص٤٠٧.

٨٥- منهج البحث الأدبي، د. علي جواد الظاهر، مكتبة العاني - بغداد ط١٩٧٠

٨٦- مناهج البحث العلمي، عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات - الكويت ط. ثالثة ١٩٧٧م.

٨٧- مناهج البحث في الجغرافيا، مقاربة ابستمولوجية، العربي السليماني، مركز تكوين المفتشين، الرباط ١٩٩٧م.

٨٨- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، أبو الحسن حازم القرطاجني، تحقيق محمد الحبيب الخوجة، دار الغرب الإسلامي ط الثالثة ١٩٨٦م.

٨٩- النحو والدلالة، د.محمد حماسة عبد اللطيف، دار الشروق - القاهرة، ط. أولى ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

٩٠- نحو النص بين الأصالة والحداثة، د. أحمد محمد عبد الراضي، مكتبة الثقافة الدينية، ط. الأولى ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨.

٩١- نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، د.أحمد عفيفي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط.الأولى ٢٠٠١م.

٩٢- نحو النص نقد النظرية،..وبناء أخرى، د. عمر محمد أبو خرمة، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط.الأولى ١٤٢٥ هـ/ ٢٠٠٤م.

٩٣- نسيج النص بحث في ما يكون به الملفوظ نصًّا، الأزهر الزنَّاد، المركز الثقافي العربي-بيروت ط.الأولى ١٩٩٣م.

٩٤- النص الأدبي طبيعته ووظيفته وطرق قراءته، د.صلاح منصور خاطر، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م، رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٢٠٩٠٢-٢٠٠٩م.

٩٥- النص الشعري ومشكلات التفسير، عاطف جودة نصر، مكتبة لونجمان، مصر، ط. الأولى ١٩٩٦م.

٩٦- النص الغائب، تجليات التناص في الشعر العربي، د. محمد عزام، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٠١م.

٩٧- النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق، عدنان بن ذريل، اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٠.

٩٨- النص والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة،الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

٩٩- نظام الارتباط و الربط في تركيب الجملة العربية، د. مصطفى حميدة، مكتبة لبنان ناشرون، والشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

١٠٠- نظرية التوصيل وقراءة النص الأدبي، د.عبد الناصر حسن محمد، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة ١٩٩٩م.

١٠١- نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص الشعري، د.حسام أحمد فرج، مكتبة الآداب، القاهرة ط. الأولى ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

١٠٢- نمط صعب ونمط مخيف، محمود أحمد شاكر، دار المدني، القاهرة، ط.الأولى ١٤٤١٦ هـ/ ١٩٩٦م.

الرسائل العلمية:

١٠٣-أصول المعايير النصية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، رسالة ماجستير، جامعة الكوفة – كلية الآداب، الباحث:عبد الخالق شاهين فرحان ١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م.

١٠٤- بنية النص في سورة الكهف، مقاربة نصية للاتساق والسياق، رسالة ماجستير،جامعة منتوري – قسنطينة – الجزائر، الباحث: شعيب محمودي ٢٠٠٩م-٢٠١٠م.

١٠٥-السبك النصي في القرآن الكريم دراسة تطبيقية في سورة الأنعام، رسالة ماجستير، الجامعة المستنصرية – كلية الآداب – العراق، الباحث: أحمد حسين حيال ١٤٣٣هـ/ ٢٠١١م.

١٠٦- ملامح نظرية النص عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، رسالة ماجستير كلية الآداب واللغات – جامعة فرحات عباس – الجزائر، الباحثة: بشرى بوشلاغم، ٢٠١٠م-٢٠١١م.

١٠٧- موقف النقد التراثي العربي من دلالات ما وراء الصياغة، النادي الأدبي الثقافي – جدة ١٩٨٨م.

١٠٨- هرمينوطيقا النص عند بو ريكور من خلال كتابه «من النص إلى الفعل» مقاربة تأويلية، رسالة ماجستير للباحثة جويدة علاوة، كلية الآداب واللغة – جامعة فرحات عباس -الجزائر.

المجلّات:

١٠٩- التناص بين التراث والمعاصرة، أ.د نور الهدى لوشن، مجلة جامعة أم القرى ج ١٥، ع ٢٦ صفر ١٤٢٤هـ.

١١٠- التناص والإجناسية في النص الشعري، د. خليل الموسي، مجلة الموقف الأدبي، العدد٣٠٥ أيلول ١٩٩٦م.

١١١- علم اللغة النصي ودوره في شرح الحديث وفهمه، د. عاصم شحادة علي، المجلة العربية للدراسات اللغوية – معهد الخرطوم الدولي للغة العربية، العددان (٢٩، ٣٠) -محرم ١٤٣٣هـ/ ديسمبر ٢٠١١م.

١١٢- في مفهوم النص ومعايير نصية القرآن دراسة نظرية: أ.د بشرى حمدي البستاني، د. وسن عبد الغني المختار، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية -جامعة الموصل – المجلد ١١العدد ١.

١١٣- في نظرية النص الأدب، عبد المالك مرتاض،مجلة المجاهد، عدد ١٤٢٤.

١١٤- - النص ممارسته وتجلياته، د. منذر عياشي، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد ٩٦، ٩٧.

١١٥- النص وإشكالية المعنى بين الشاعر والقارئ، د. عبد الله بن محمد العضيبي، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدبها، جـ ١٨، عدد٣٠، جمادى الأولى ١٤٢٥هـ.

المقالات:

١١٦-«أوطـان» محمود محمد شاكر مجلة، الكتاب المجلد الرابع سنة ١٩٤٧م صـ١٥٦٦-١٥٨٧.

١١٧- «أيُّ شلَّالٍ هادرٍ توقف» د.محمود محمد الطناحي، مجلة «العربي» العدد ٤٦٩ديسمبر ١٩٩٧م.

١١٨- الرجل والأسلوب «للأستاذ فتحي رضوان، دراسات عربية وإسلامية

١١٩- «العلامة محمود شاكر في مواجهة النص». رؤية ومنهج، مقال إلكتروني بقلم د.صابر عبد الدايم رابط:

http://alarabnws.com/alshaab/GIF/0208-2002-/Shaker.htm.

١٢٠-«اللغة والمجتمع» محمود محمد شاكر، مجلة الكتاب المجلد الثاني، سنة ١٩٤٦م.

١٢١-«المتنبي ليتني ما عرَفتُه»، محمود محمد شاكر عام ١٩٧٨م، بمجلة الثقافة العدد ٦٠.

١٢٢-«المتنبي ليتني مع عرَفتُه»، محمود محمد شاكر مجلة «الثقافة»العدد ٦١أكتوبر ١٩٧٨م.

١٢٣-«المتنبي ليتني ما عرفته» مجلة «الثقافة»السنة السادسة، العدد ٦٣، سنة ١٩٧٩م.

١٢٤- في الطريق إلى حضارتنا،محمود محمد شاكر، مجلة «الثقافة»، العدد العاشر يولية١٩٧٤م.

١٢٥-مفهوم النص(من النص إلى النصم)، د. جمعان بن عبد الكريم، مقال على شبكة الإنترنت :

http://www.lissanat.net/viewtopic.php?t=571.

١٢٦- «كانت الجامعة هي طه حسين»، محمود محمد شاكر عام ١٩٧٥م بمجلة «الكاتب» العدد ١٦٨

١٢٧- «محمود شاكر..» منجم الأصالة العربية، د. خالد النجار(موقع الألوكة الثقافية) رابط الموضوع:

http://www.alukah.net/cultre/041908//#ixzz3t03jkglk.

١٢٨- «محمود شاكر،..والتكريم المستحق»، د.محمود محمد الطناحي، جريدة الأهرام مصر ٢٩ مارس ١٩٩٦م.

١٢٩- «محمود محمد شاكر»، د.محمود محمد الطناحي، الفرقان للتراث - لندن ١٩٩٨م.

١٣٠- «محمود محمد شاكر،..والسهام الطائشة»، د.محمود محمد الطناحي، مجلة الجيل ١٩٩٨م.

١٣١- «محمود محمد شاكر»، ومنهجه في تحقيق التراث، د.محمود محمد الطناحي، مجلة الهلال، فبراير ١٩٩٧م.

الدوريات:

١٣٢- الاتصال اللساني بين البلاغة والتداولية، أ. سامية بن يامنة - جامعة مستغانم. الجزائر م، ضمن دورية مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعليمية، العدد الأول:مايو ٢٠٠٨/ جمادى الأولى ١٤٢٩هـ، الجزائر.

الفهرس

الفهرس

الموضـــوع	الصفحة
المقدمة	٥
التمهيد	١٩
نشأة علم النص	٢٦
التماسك النصي	٢٧
الفرق بين النص والخطاب	٣٠
أهمية التماسك النصي	٣٠
دور السياق والمتلقي في تحقق التماسك النصي	٣١
أولًا: السيـاق	٣١
ثانيًا: المتلقي	٣٤
العلامة محمود شاكر	٣٩
المولد والنشأة	٤٠
آثاره العلمية	٤٢
تحقيقاته	٤٥
مؤلفاته	٤٦
بين يدي كتاب «نمط صعب، ونمط مخيف»	٤٩
بين يدي القصيدة	٥١
القصيدة كما رتبها الشاعر	٥٤

الموضـــــوع الصفحة

الفصل الأول

النص: المفهومات، الخصائص، الإجراءات ٥٧

المبحث الأول: **مفهوم النص في التراث والمعاصرة**.....٥٩

النص في المعاجم العربية.....٦١

النص في المعاجم غير العربية.....٦٣

النص في النحو التقليدي.....٦٤

تعريفات النص في الدراسات الغربية والعربية.....٦٥

أولًا: النص في الدراسات الغربية.....٦٦

ثانيًا: النص في الدراسات العربية.....٧٢

النص في علم لغة النص القائم على أساس النظام اللغوي، وعلم لغة النص الموجه على أساس نظرية التواصل.....٧٦

المبحث الثاني: **علم لغة النص الخصائص، الوظيفة، المعايير** ٨٣

خصائص علم لغة النص.....٨٤

وظيفة علم لغة النص.....٨٦

المعايير النصية.....٨٨

المعايير التأسيسية.....٨٩

معايير تنظيمية.....٩٠

المبحث الثالث: **فهم النصوص قضايا وإشكاليات**.....٩٣

١ -القارئ والنص.....٩٦

٢ -معوقات فهم النصوص.....٩٩

١ -لغة النص.....٩٩

٢ -رموز النص.....١٠٢

الموضـــوع الـصـفـحـة
٣- اختلال القدرة القرائية ١٠٢
٤- مشتات الطاقة الذهنية ١٠٣
٣- تعددية المعاني للنص الواحد ١٠٣
٤- العلوم غير اللغوية ودورها في فهم النص ١١٠
الفصل الثاني
منهج محمود شاكر، ملامحُه وأصولُه ١١٣
المبحث الأول: محنة الشعر الجاهلي وأثرها في تشكُّل المنهج ١٢١
١- المحنة بدايتها، حقيقتها، آثارها ١٢١
٢- تشكُّل المنهج ١٣٧
٣- كيفية استشفاف المناهج ١٤١
المبحث الثاني: أهم سمات المنهج وعلاقتها بالدراسة النصية ١٤٥
١- المنهج، طبيعته.. ومبادئه.. ووسائلُه ١٤٥
٢- تجذُّر المنهج في التراث العربي ١٤٦
٣- المنظور الثقافي في المنهج بين الأصالة والمعاصرة ١٥٤
أولًا: الثقافة والمنهج ١٥٥
ثانيًا: الثقافة والعلم ١٦٠
شمولية المنهج ورحابة أبعاده ١٦٢
النظرة النصية الكلية ١٦٥
الفصل الثالث
تمثل المعايير النصية في منهج محمود شاكر ١٨١
المبحث الأول: التمثل المعياري النصي في المنهج فيما يتعلق بالنص ذاته ١٨٥
أولًا: السبك ١٨٥

الموضـــــوع	الصفحة

ثانيًا: الحبك..... ١٩١
الرؤية السبكية والحبكية في المنهج من خلال العمل المعجمي..... ١٩٥
أولًا: الانتخاب المعجمي..... ١٩٧
ثانيًا: التصويب اللغوي..... ٢٠١
ثالثًا: التوضيح اللغوي..... ٢٠٦
رؤية سبكية حبكية مقاربة لعلم اللغة النصي..... ٢٠٩
التضاد اللغوي..... ٢٠٩
الربط بالعطف..... ٢١٠
التماسك الصوتي..... ٢١١
المبحث الثاني: التمثل المعياري النصي في المنهج فيما يتعلق بمستعملي النص..... ٢١٩
أولًا: القصدية..... ٢١٩
ثانيًا: المقبولية..... ٢٢٧
ثالثًا: الإعلامية..... ٢٣٢
المبحث الثالث: التمثل المعياري النصي في المنهج فيما يتعلق بالسياق الخارجي..... ٢٣٧
أولًا: المقامية..... ٢٣٧
ثانيًا: التناص..... ٢٤٧
السطو والتناص رؤية شاكرية..... ٢٥١
النتائج..... ٢٥٩
المصادر..... ٢٦١
الفهرس..... ٢٧٥

~